رواية

جريمة الولادة

تريڤور نوا

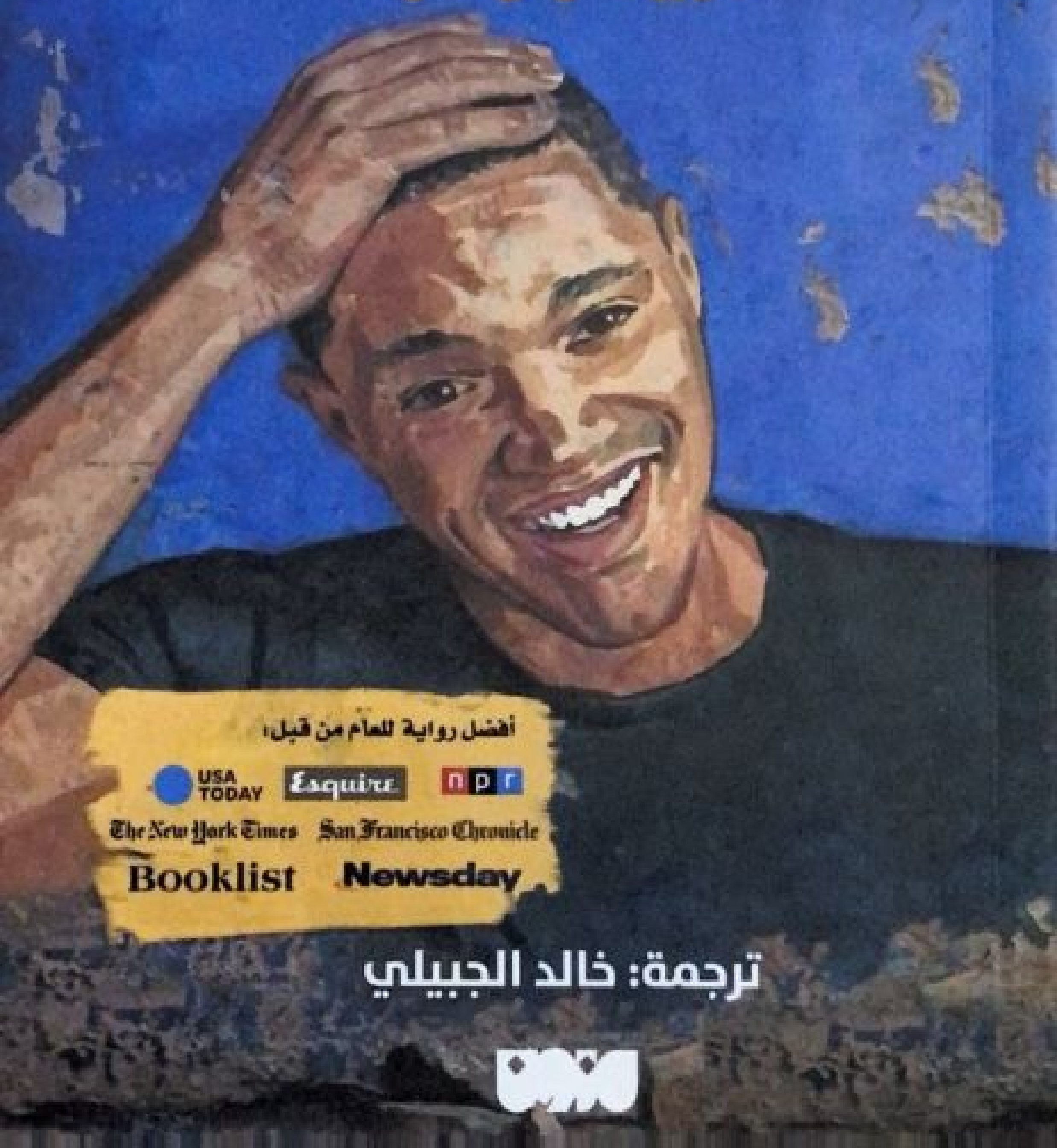

أفضل رواية للعام من قبل:

npr Esquire USA TODAY

San Francisco Chronicle The New York Times

Newsday Booklist

ترجمة: خالد الجبيلي

الكتاب: جريمة الولادة

المؤلف: تريفور نوا

ترجمة: خالد الجبيلي

التصنيف: قصص

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: سبتمبر (أيلول) 2020

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: 5 - 786 - 429 - 614 - ISBN: 978

Copyright © 2016 by Trevor Noah

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ مدارك. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من مدارك.

ترجمات مزون

Madarek Publishing House

دار مدارك للنشر

8470 طريق عثمان بن عفان، حي التعاون، الرياض، المملكة العربية السعودية
8470 Othman Bin Affan St, Al Taawun Dist, Riyadh, Saudi Arabia
Zip Code: 3844 - 12478 Riyadh, Saudi Arabia Tel: +966 114541148

mdrek.com | read@mdrek.com | DarMadarek

"مزون" ... خط إنتاج مواد مترجمة تقدمها مدارك
بجهود الزملاء، من خلال الناشر، الذي اختار أن يكون
الدعم والجهد، هدية لأمه، مزنة رحمها الله، حيث كانت تهطل
كالسحابة، وتغيث كالمطر، وتحب العلم بشغف.

تركي الدخيل
٢٠١٨/٩/٢٥

المحتويات

الجزء الأول ٩

(١) اركض ١٢

(٢) جريمة الولادة ٣٦

(٣) تريفور، صَلِّ ٥٥

(٤) الحرباء ٧٩

(٥) الفتاة الثانية ٩٧

(٦) ثغرات ١١٨

(٧) فوفي ١٤٣

(٨) روبرت ١٥٤

الجزء الثاني ١٦٧

(٩) شجرة التوت ١٧٠

(١٠) تعليم أخرق، طويل، مأساوي أحياناً، ومهين غالباً لشابّ في الأمور المتعلقة بالقلب، الجزء الأول: عيد الحبّ ١٨٧

(١١) الغريب... ١٩٦

(١٢) تعليم أخرق، طويل، مأساوي أحياناً، ومهين غالباً لشابّ في الأمور المتعلقة بالقلب، الجزء الثاني: الولع ٢٠٤

(١٣) عمى الألوان... ٢١٥

(١٤) تعليم أخرق، طويل، مأساوي أحياناً، ومهين غالباً لشابّ في الأمور المتعلقة بالقلب، الجزء الثالث: الرقص ٢٢٨

الجزء الثالث... ٢٥٧

(١٥) هيا هتلر!... ٢٥٩

(١٦) فتيان الجبنة.. ٢٨٤

(١٧) العالم لا يحبّك ٣٢١

(١٨) حياة أمّي ٣٥٠

الشكر... ٤١٢

إلى أمّي. أول داعم لي.

شكراً لأنكِ جعلتِ مني رجلاً.

قانون الانحلال الأخلاقي لعام ١٩٢٧

لحظر أي اتصال جسدي غير شرعي بين الأوربيين والسكان الأصليين وقوانين أخرى بهذا الشأن

يشرّع صاحب الجلالة الملك المعظم، ومجلس الشيوخ ومجلس النواب في اتحاد جنوب أفريقيا، ما يلي:

١- أيّ ذكر أوروبي يقيم علاقة جسدية محرّمة مع أنثى من السكان الأصليين، وأيّ ذكر من السكان الأصليين يقيم علاقة جسدية محرّمة مع أنثى أوروبية... سيُدان ويحكم عليه بالسجن لمدة أقصاها خمس سنوات.

٢- أيّ أنثى من السكان الأصليين تسمح لأيّ ذكر أوروبي أن يقيم معها علاقة جسدية محرّمة، وأيّ أنثى أوروبية تسمح لأيّ ذكر من السكان الأصليين أن يقيم معها علاقة جسدية محرّمة ستُدان ويحكم عليها بالسجن لمدة أقصاها أربع سنوات....

الجزء الأول

"كانت عبقرية سياسة التمييز العنصري تتجلى في تأليب السكان الذين يشكلون الغالبية العظمى على بعضهم بعضاً. بث الكراهية في نفوسهم. هكذا كانت تفعل: قسّم الناس إلى فئات ومجموعات واجعل إحداها تكره الأخرى كي تتمكن من حكمهم والسيطرة عليهم جميعاً."

في ذلك الوقت، كان عدد السكان السود في جنوب أفريقيا يفوق عدد السكان البيض بنسبة خمسة إلى واحد، مع أننا كنّا مقسّمين إلى قبائل مختلفة تتكلّم لغات مختلفة: الزولو، الإكسهوزا، التسوانا، السوثو، الفندا، النديبيلي، التسونغا، البيدي، وقبائل عديدة أخرى. حتى قبل مجيء نظام التمييز العنصري بفترة طويلة، كانت هذه القبائل تحارب بعضها بعضاً. ثمّ استغل البيض هذه العداوة بين هذه المجموعات في فرض سياسة فرّق تسد، فصنّفوا جميع الذين ليسوا بيضاً في فئات وفرق وفئات فرعية مختلفة، ثمّ منحوا هذه الفئات مستويات متباينة من الحقوق والمزايا كي يبقوا في خلاف وتقاتل مستمرين.

ربما كانت أشدّ هذه الانقسامات بين الفئتين المهيمنتين في جنوب أفريقيا وهما الزولو والإكسهوزا. ويُعرف الرجل الزولو بأنه رجل محارب، شديد الاعتداد بنفسه، يخفض رأسه ويحارب. فعندما غزت الجيوش الاستعمارية البلاد، اندفع الزولو وهم لا يملكون من السلاح سوى الرماح والدروع لمواجهة رجال

مسلحين بأحدث الأسلحة والبنادق، وعلى الرغم من أن آلافاً منهم قد لقوا حتفهم، لم يتوقّفوا عن القتال. أما الإكسهوزا، فإنهم يتفاخرون بأنهم ينتمون إلى فئة المفكّرين والعقلانيين. وأمّي تنتمي إلى الإكسهوزا، ونيلسون مانديلا ينتمي إلى الإكسهوزا. وحارب الإكسهوزا الرجل الأبيض أيضاً لمدة طويلة، لكن بعد أن رأوا أن لا جدوى من محاربة خصم مدجج بالسلاح، نهج العديد من زعماء الإكسهوزا نهجاً أكثر ذكاء. فقد قالوا: «هؤلاء البيض موجودون هنا إن شئنا أم أبينا، لذلك دعونا نرى ما هي الأدوات التي يمتلكونها والتي يمكن أن نستفيد منها. فبدلاً من أن نحارب اللغة الإنكليزية، دعونا نتعلّم اللغة الإنكليزية. عندها سنفهم ماذا يقول الرجل الأبيض، ونرغمه على أن يتفاوض معنا».

بدأ الزولو يحاربون الرجل الأبيض، أما الإكسهوزا فقد بدأوا يلعبون الشطرنج مع الرجل البيض. ولأمد بعيد لم يتمكن أي واحد منهما أن يحقق انتصاراً حاسماً، ولام أحدهما الآخر على مشكلة لم يسببّها أي منهما، فازداد الشعور بالبغض والمرارة بينهما. وطوال عقود، ظلت هذه المشاعر مقيّدة بعدوّ مشترك. وعندما سقط نظام التمييز العنصري، وخرج مانديلا من السجن، دخلت جنوب أفريقيا السوداء في حرب مع نفسها.

(١)

اركض

في أفلام هوليود الضخمة ترى أحياناً مشاهد مطاردة جنونية يقفز فيها أحدهم من سيارة مسرعة أو يُلقى به منها، فيرتطم ذلك الشخص بالأرض، ويتدحرج قليلاً، ثمّ يتوقّف وينهض واقفاً وينفض التراب عنه كأن الأمر بسيط وعادي. عندما أرى مشهداً كهذا أقول لنفسي هذا زبالة. **لأن إلقاء شخص من سيارة وهي تسير مؤلم أكثر من ذلك بكثير.**

عندما ألقت بي أمّي من سيارة وهي تسير كنت في التاسعة من عمري. حدث ذلك في يوم أحد. أعرف أنّه يوم أحد لأننا كنّا عائدين من الكنيسة إلى البيت، ولأن كلّ يوم أحد في طفولتي يعني الكنيسة، لأننا كنّا نذهب دائماً إلى الكنيسة يوم الأحد. فقد "كانت أمّي -ولا تزال- امرأة متدينة جداً، مسيحية شديدة التديّن. فقد تبنّى السود في جنوب أفريقيا، شأن جميع الشعوب الأصلية في أنحاء العالم، دين مستعمريهم. وبكلمة «تبنّى» فإني أقصد أنهم أرغمونا على اعتناق هذا الدين." فقد كان الرجل الأبيض حازماً جداً مع السكان الأصليين، وقال لهم: «يجب أن تصلّوا ليسوع

المسيح، لأن المسيح سينقذكم»، فأجاب السكان الأصليون، «حسناً، إننا بحاجة إلى أحد ينقذنا -ينقذنا منكم- لكن هذا الأمر جانبي، لذلك دعونا نعطي هذا الشيء عن المسيح محاولة».

" كان جميع أفراد أسرتي متدينين، ومع أن أمّي اندمجت في فريق المسيح اندماجاً كاملاً، فقد جعلت جدتي إيمانها المسيحي يسير جنباً إلى جنب مع معتقدات الإكسهوزا التقليدية التي تربّت عليها، وظلت على تواصل مع أرواح أسلافنا. ولفترة طويلة، لم أفهم لماذا تخلّى عدد كبير من السود عن دينهم الأصلي واعتنقوا الديانة المسيحية. لكن كلما ذهبنا إلى الكنيسة أكثر وجلست في تلك المقاعد، ازدادت معرفتي حول كيف تعمل المسيحية: فإذا كنت من سكان أمريكا الأصليين وصلّيت للذئاب، فأنت شخص همجي، وإذا كنت أفريقياً تصلّي لأسلافك، فأنت شخص بدائي، أما عندما يصلّي الرجل الأبيض لرجل يحوّل الماء إلى نبيذ، فهذا هو المنطق السليم. "

ملأت الكنيسة طفولتي، أو أحد أشكال الكنيسة، لما لا يقل عن أربع ليال كلّ أسبوع. إذ تخصص ليلة الثلاثاء للصلاة، وليلة الأربعاء لدراسة الكتاب المقدّس، وليلة الخميس للذهاب إلى كنيسة الشباب، أما يوم الجمعة فهو يوم عطلة (يوم لارتكاب الخطيئة). ففي كلّ يوم أحد نذهب إلى الكنيسة، وبدقة أكبر، نذهب إلى ثلاث كنائس. كنّا نذهب إلى ثلاث كنائس لأن أمّي تقول إن لكلّ كنيسة مذاقها الخاص وتمنحها شيئاً مختلفاً. فالكنيسة الأولى تقدّم مديحاً مبهجاً لله، والكنيسة الثانية تمنحها تحليلاً عميقاً للإنجيل

الـذي تحبّه أمّي كثيراً، في حين تمنح الكنيسـة الثالثة تطهيراً للنفس حيث تشعر حقاً بأن روح القـدس موجـود في داخلـك. وبينما كنّا نتنقل بين هـذه الكنائس، لاحظـت، بمحض لصدفة، أنّ كلّ كنيسة من هـذه الكنائس تتميّز بتركيبتهـا العرقيـة: فالكنيسـة البهيجة هي كنيسـة مختلطـة، والكنيسـة التحليليـة هـي كنيسـة البيض، والكنيسة التطهيريـة هـي كنيسـة السـود.

كانـت «كنيسـة ريـا للكتـاب المقدّس» هـي الكنيسـة المختلطة، وهـي واحـدة مـن أضخـم الكنائـس الحديثـة في الضواحـي يرتادها أكبر عـدد من المصلـين. وكانـت لـدى راي مكـولي، راعـي الكنيسة، الـذي كان أحـد أبطـال كـمال الأجسـام في المـاضي، ابتسـامة عريضة وشـخصية جذابـة. وكان قـد شـارك في مسـابقة بطـل الكـون لكـمال الأجسـام عـام ١٩٧٤، وحـلّ في المرتبـة الثالثـة، وكان أرنولـد شـوارزنيغر الفائـز بالمرتبـة الأولى في تلـك السـنة.

كان راي يعتلي خشـبة المسرح كلّ أسبوع، ويبـذل كل مـا بوسعه كـي يجعـل المسـيح يبـدو لطيفـاً. وكانـت القاعـة في شـكل حلبة أو مـدرج، وكانـت فرقـة روك تعـزف آخـر أغـاني البـوب المسيحية المعـاصرة. وكان يشـارك المصلـين في الغنـاء، ولا بـأس إن كنـت لا تعـرف كلـمات الأغنيـة، فقـد كان بإمكانـك أن تقرأهـا عـلى شاشة جومبوتـرون كبـيرة. في حقيقـة الأمـر، كانـت حفلـة غنائيـة مسيحية، لذلـك كنـت أحـب دائـماً أن أذهـب إلى الكنيسـة المختلطـة.

أمـا كنيسـة البيـض فهـي كنيسـة اتحـاد روزبانـك في سـاندتون،

الحيّ الغني الذي يعيش فيه البيض فقط في جوهانسبرغ. كنت أحبّ الذهاب إلى كنيسة البيض لأنني لم أكن اضطر للمشاركة في الصلاة الرئيسية. فقد كانت أمّي تذهب لتصلّي، وأذهب أنا إلى قسم الشباب لحضور مدرسة يوم الأحد حيث كنا نقرأ قصصاً جميلة. "وكانت قصة نوح والفيضان إحدى أحبّ القصص إلى قلبي، لكنني كنت أحبّ أيضاً قصة موسى وهو يفلق البحر الأحمر، وقصة داوود وهو يقتل جالوت، وقصة يسوع وهو يضرب الصرّافين في المعبد ويطردهم منه. "

نشأتُ في بيت لا يبدي اهتماماً كبيراً بالثقافة الشعبية. ولم يكن يُسمح لي أن أستمع إلى أغاني فرقة Boyz II Men في بيت أمّي لأنها تدور كلها حول شاب يتحدّث عن فتاة طوال الليل؟ لا، لا، لا. كان هذا شيئاً محرّماً في البيت. وكنت أسمع الصبية الآخرين في المدرسة يغنون أغنية «نهاية الطريق»، ولم أكن أعرف شيئاً عمّا يجري. كنت أسمع عن فرقة Boyz II Men، لكنني لم أكن أعرف ما هي حقاً. كانت الموسيقى الوحيدة التي أعرفها هي الموسيقى التي تُعزف في الكنيسة: أناشيد بهيجة حماسية تمتدح المسيح، والأمر ينسحب على السينما أيضاً لأن أمّي لم تكن تريد أن يتلوّث عقلي بأفلام بالجنس والعنف. لذلك، كانت السينما الفعلية بالنسبة لي هي الكتاب المقدّس. وكان شمشون بطلي الخارق. بطلي الحقيقي. رجل يضرب ألف شخص ويقتلهم بعظم فكّ حمار؟ يا لها من شجاعة حقيقية، وأخيراً تأتي إلى رسائل بولس الموجهة إلى المؤمنين في أفاسس التي لا توجد فيها حبكة. وماذا عن التوراة والإنجيل؟

أستطيع أن أتلو عليك أيّ جزء من تلك الصفحات، أيّ إصحاح وأي عدد. ففي كلّ أسبوع كانوا يُجرون في كنيسة البيض مسابقات من الكتاب المقدّس وينظمّون ألعاباً، وكنت أفوز بها دائماً.

وفي كنيسة السود، كان يوجد دائماً نوع من الصلاة طوال الوقت في أحد الأماكن، وكنّا نذهب إليها كلّها. وفي البلدة، كان ذلك يعني عادة الصلاة في الهواء الطلق، كنيسة تشبه كنيسة إحيائية. وكنا نذهب عادة إلى كنيسة جدتي التي يرتادها مصلون من مدرسة الكنيسة الميثودية القديمة، خمسمائة امرأة مسنّة أفريقية ترتدي كلّ واحدة منهن بلوزة زرقاء وبيضاء، وتحمل كلّ منهن إنجيلها وهي تحترق بصبر تحت شمس أفريقيا اللاهبة. ولا أكذب عندما أقول إنني لم أكن أحبّ الذهاب إلى كنيسة السود لأنه لم يكن فيها أي نوع من تكييف الهواء، ولا توجد فيها شاشة جومبوترون تعرض الكلمات، وكانت تستمر إلى الأبد، لما لا يقل عن ثلاث أو أربع ساعات، وكنت أنزعج من ذلك كثيراً لأن الصلاة في كنيسة البيض لم تكن تزيد على ساعة واحدة -يذهب الناس ويأتون، شكراً لمجيئكم. أما في كنيسة السود فقد كنت أجلس إلى ما يبدو دهراً، أحاول أن أعرف لماذا يتحرّك الزمن ببطء شديد هنا. وأتساءل هل يمكن أن يكون الزمن قد توقّف فعلاً؟ وإذا توقّف، فلماذا يتوقّف في كنيسة السود ولا يتوقّف في كنيسة البيض؟ ثم أدركت أخيراً أن السود يحتاجون إلى قضاء وقت أطول مع المسيح لأننا عانينا أكثر. وكانت أمّي تقول: «آتي إلى هنا لأملأ نفسي ببركات تكفيني طوال الأسبوع». فقد كانت

ترى أننا كلّما أمضينا وقتاً أطول في الكنيسة، حصلنا على عدد أكبر الحسنات والبركات، مثل بطاقة مكافآت ستاربكس."

توجد في كنيسة السود نعمة واحدة تنقذ المصلين. فإذا بقيت حتى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر، سأرى القسّ وهو يقوم بطرد أرواح الشياطين من أجساد بعض المصلين. فيبدأ أولئك الذين تسكنهم الشياطين يركضون كالمجانين بين الممرات، يصرخون ويلهجون بكلمات غير مفهومة. ويجري وراءهم المساعدون في الكنيسة الذين يشبهون القبضايات الذين يقفون أمام أبواب الأندية الليلية، ويثبتونهم على الأرض، فيأتي القس ويمسك برؤوسهم ويهزّها بعنف إلى الأمام والوراء، وهو يصيح، «باسم يسوع المسيح أطرد هذه الروح الشريرة». وهناك قساوسة أعنف من قساوسة آخرين، لكن الأمر المشترك بينهم هو أنهم لا يتوقّفون عن عمل ذلك حتى تخرج الروح الشريرة من جسد الشخص فترتخي أعضاؤه وينهار فوق المنصة. يجب أن يتهاوى الشخص ويسقط، لأنه إذا لم يتهاوَ ويسقط فهذا يعني أن الشيطان قوي ويتعين على القس أن يهاجمه بضراوة أكبر. حتى لو كنت لاعباً ظهيراً في فريق كرة القدم الوطني، فإن القس سيدمرك. يا إلهي، كان ذلك مشهداً مسلياً حقاً.

الأناشيد المسيحية، قصص البطولات، المعالجون العنيفون عن طريق الإيمان -يا إلهي- كلّ ذلك جعلني أحبّ الكنيسة. أما الشيء الذي لم أكن أحبّه فيها فهي الرحلات الطويلة المضنية التي كان علينا أن نقطعها حتى نصل إلى الكنيسة. كان ذلك عملاً

ملحمياً شاقاً. كنا نعيش في إيدن بارك، ضاحية صغيرة بعيدة عن جوهانسبرغ. وكنا نستغرق ساعة كاملة حتى نصل إلى كنيسة البيض، أضف إليها خمساً وأربعين دقيقة أخرى حتى نصل إلى الكنيسة المختلطة، وخمساً وأربعين دقيقة أخرى حتى نصل إلى سويتو لنذهب إلى كنيسة السود. وفي بعض أيام الأحد، كنّا نعود إلى كنيسة البيض لتأدية صلاة مسائية خاصّة، وعندما نصل إلى البيت في الليل أخيراً، كنت أرتمي على السرير منهكاً.

كان يوم الأحد ذاك، يوم الأحد الذي ألقي بي فيه من سيارة وهي تسير، قد بدأ مثل أيّ يوم أحد آخر. فقد أيقظتني امّي، وأعدّت لي عصيدة على الفطور، ثم تحمّمت بينما راحت تُلبس أخي أندرو الصغير الذي لم يكن يتجاوز تسعة شهور من عمره. ثمّ خرجنا من البيت، وعندما ركبنا السيارة وأصبحنا مستعدين للذهاب، لم تعمل السيارة. كانت أمّي تملك سيارة فولكسفاغن خنفساء قديمة برتقالية اللون لامعة لا تشبهها أي سيارة. وكان السبب الذي جعلها تشتريها هو لأنها كانت تتعطّل باستمرار. حتى الآن أكره السيارات المستعملة. لأنني أستطيع أن أعزو كلّ شيء أخفق في حياتي تقريباً إلى سيارة مستعملة. فقد كانت السيارة المستعملة تجعلني أتأخر عن المدرسة دائماً، وكانت السيارة المستعملة تجعلنا نقف على جانب الطريق لنوقف سيارة قد تقلّنا. وكانت السيارة المستعملة أيضاً السبب الذي جعل أمّي تتزوّج. فلو لم تكن تلك الفولكسفاغن التي لم تعمل الآن، لما احتجنا إلى الميكانيكي الذي أصبح زوج أمّي، الرجل الذي عذّبنا لسنوات

طويلة ثم أفرغ رصاصة في مؤخرة رأس أمّي -لذلك أصبحت أشتري دائماً سيارة جديدة ومعها كفالة. ومهما بلغ حبّي للكنيسة، فإن فكرة قضاء تسع ساعات من العناء في الانتقال من الكنيسة المختلطة إلى كنيسة البيض ثم إلى كنيسة السود ثمّ العودة إلى كنيسة البيض، كان شيئاً لا يمكن تصوّره. كان ذلك أمراً سيئاً للغاية في تلك السيارة، لكن استخدام وسائل النقل العام كان يستغرق ضعف الوقت والتعب. عندما لم تعمل الفولكسفاغن، بدأت أصلّي داخل رأسي وأقول: أرجو أن تقولي إننا سنمكث في البيت. أرجو أن تقولي إننا سنبقى في البيت. ثمّ نظرت إلى أمّي لأرى تلك النظرة المصرّة على وجهها، شكل فكّها، فعرفت على الفور أن أمامي يوم طويل.

قالت: «هيا، سنذهب بحافلة الميني باص».

" كان تديّن أمّي بقدر عنادها. فما إن تقرر شيئاً، حتى ينتهي الأمر. لكن العقبات التي يمكن أن تجعل الشخص يغيّر خططه عادة، مثل سيارة لم تعد تعمل، كان يزيدها إصراراً وتصميماً على تنفيذ ما تريد. "

«إنه الشيطان»، قالت أمّي عن السيارة التي لم تعمل، «فالشيطان لا يريد لنا أن نذهب إلى الكنيسة، لذلك يجب أن نذهب بحافلة الميني باص».

عندما أجد نفسي في مواجهة تعنّت أمّي الديني، أحاول، بأكبر قدر من اللباقة والاحترام، أن أقدّم لها وجهة نظر معاكسة.

فقلت لها: «أو أن الله يعرف بأن علينا ألاّ نذهب اليوم إلى الكنيسة، فعطّل السيارة، كي نبقى في البيت كأسرة ونأخذ يوم راحة، لأن حتى الرب استراح».

«آه، إن الذي يتكلّم هو الشيطان يا تريفور».

«لا، لأن المسيح يملك زمام الأمور، وإذا كان المسيح يملك زمام الأمور وبما أننا نصلّي للمسيح، لكان ترك السيارة تعمل، لكنه لم يفعل ذلك، لذلك...»

«لا، يا تريفور! في بعض الأحيان يضع المسيح عقبات في طريقك ليعرف إن كنت ستتغلّب عليها، مثل أيوب. قد يكون هذا اختباراً».

«نعم يا أمّي، لكن ربما يختبرنا ليعرف إن كنّا مستعدين لقبول ما الذي جرى ونمكث في البيت ونتمدح المسيح على حكمته».

«لا، هذا كلام الشيطان. اذهب الآن وغيّر ثيابك».

«لكن، يا أمّي».

«تريفور. Sun'qhela»

Sun'qhela عبارة تنطوي على ظلال معانٍ عديدة. فهي تعني «لا تستنفد صبري»، و«لا تقلل من قدري» و«فقط جربّني». إنها أمر وتهديد في آن معاً. وهي عبارة شائعة يقولها الآباء الإكسهوزا لأطفالهم. وعندما أسمعها أدرك أنها تقصد أن الحديث انتهى،

وأنني إذا قلت كلمة أخرى فإنها ستضربني -ما نسميه الضرب على الردفين.

" في ذلك الحين، كنت أدرس في مدرسة كاثوليكية خاصّة تدعى ماريفال كولديج. وفي كل سنة، كنت أفوز بمباريات الجري في ماريفال، وكانت أمّي تفوز بكأس الأمّهات في الجري كلّ سنة. السبب؟ لأنها كانت تجري ورائي دائماً لتركلني في مؤخرتي، وكنت أجري أمامها دائماً كي لا تركلني على مؤخرتي. لم يكن هناك أحد يستطيع أن يركض كما أركض أنا وتركض أمّي. ولم تكن أمّي واحدة من تلك الأمّهات اللاتي يقلن «تعال لأضربك». لن تعطيها لك مجاناً. وكانت تجيد الرمي أيضاً. فأيّ شيء يمكن أن يقع في يدها سيطير نحوك، وإذا كان ذلك الشيء قابلاً للكسر، كان عليّ أن أمسك به وأضعه جانباً، فإذا كُسر، فأكون أنا السبب في كسره وسيتضاعف الركل على مؤخرتي. وإذا ألقت عليّ مزهريّة، كان عليّ أن ألتقطها وأركنها جانباً ثمّ أعود وأركض. وفي جزء من الثانية، كان عليّ أن أفكّر، **هل هي غالية الثمن؟ نعم. هل هي قابلة للكسر؟ نعم إذاً امسكها وضعها على الأرض، واركض الآن.** "

كانت علاقتنا أنا وأمّي تشبه العلاقة بين توم وجيري. فهي المربية الصارمة، وأنا الولد الشقي. فعندما كانت ترسلني لأشتري بعض الحاجيات من البقالية، لم أكن أعود فوراً إلى البيت لأنني كنت أستخدم النقود المتبقية بعد أن أشتري الحليب والخبز في اللعب. كنت مولعاً بألعاب الفيديو، وكنت أجيد لعبة «مقاتل الشوارع». كان بإمكاني أن أمضي الوقت كله في لعب لعبة واحدة.

أضع قطعة نقود في الآلة، فيمضي الوقت بسرعة، والشيء التالي الذي أعرفه هو أن تكون هناك امرأة تقف ورائي وبيدها حزام ثم يجري سباق بيني وبينها. فأندفع خارجاً من الباب إلى الشوارع المتربة في إيدن بارك، نتسلّق الجدران، نهبط في باحات البيوت الخلفية. كان هذا المشهد مألوفاً في الحيّ الذي نعيش فيه. فالجميع يعرف: أن الطفل تريفور يجري بسرعة كبيرة، وتجري أمّه وراءه تماماً. كانت تستطيع أن تنطلق كالسهم في حذائها ذي الكعب العالي، وإذا أرادت أن تمسك بي فعلاً، كانت تخلع حذاءها وهي تجري بأقصى سرعتها. كانت تفعل هذه الحركة الغريبة بكاحلها فيطير الحذاء في الهواء ولا تضيّع خطوة واحدة. عندها أعرف أنها أصبحت في وضعية النفّاث.

عندما كنت صغيراً كانت تمسك بي دائماً، وعندما كبرت، ازدادت سرعتي، وعندما لم تكن تتمكن من اللحاق بي كانت تستخدم ذكاءها. فإذا رأت أنني سأفلت منها، كانت تصيح، «امسكوه! حرامي!» كانت تفعل ذلك لابنها. "في جنوب أفريقيا، لا يتدّخل الناس في شؤون الآخرين، إلا إذا كان ذلك من أجل تحقيق عدالة الغوغاء، عندها يتدخل الجميع." فكانت تصرخ «حرامي، لصّ، أمسكوه» وهي تعرف أنها ستجعل الحيّ كله يجري ورائي، ويحاول أشخاص غرباء الإمساك بي، فكنت أهرب منهم وأزوغ منهم وأتفاداهم وأراوغهم أيضاً، وأنا أصرخ طوال الوقت، «أنا لست لصّاً، أنا ابنها».

كان آخر شيء أردت أن أفعله في صباح يوم الأحد ذاك أن

أستقلّ حافلة ميني باص مزدحمة، لكن عندما سمعت أمّي تقول sunqhela عرفت أن مصيري قد تقرّر. حملت أندرو بين ذراعيها ونزلنا من سيارة الفولكسفاغن لنبحث عن حافلة.

" كنت في الخامسة من عمري، قريباً من السادسة، عندما أفرج عن نيلسون مانديلا من السجن. أذكر أنني شاهدت ذلك على شاشة التلفزيون وكان الجميع فرحين. لم أكن أعرف لماذا كنّا فرحين، لكننا كنا مبتهجين جداً. كنت أعرف أنّه كان هناك نظام يدعى نظام التمييز العنصري وأنه على وشك أن ينتهي، وأنها كانت مسألة في غاية الأهمية، لكنني لم أكن أفهم التعقيدات المحيطة بها. "

" أتذكّر أعمال العنف التي أعقبت ذلك التي لن أنساها طوال حياتي. في بعض الأحيان كانوا يسمون انتصار الديمقراطية على سياسة التمييز العنصري الثورة البيضاء، لأنه لم تُهرق فيها دماء كثيرة. أما الآن فقد بدأ الدم الأسود يسيل في الشوارع. "

عندما سقط نظام التمييز العنصري، عرفنا أنّ الرجل الأسود سيحكم الآن. وكان السؤال، من هو ذلك الرجل الأسود؟ فقد اندلعت موجة عنف شديدة بين حزب إنكاثا للحرّية وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي اللذين كانا يتسابقان على السيطرة على السلطة. وكان الدافع السياسي لهذين الفريقين معقداً للغاية، لكن أسهل طريقة لفهمه هو أنها كانت حرباً بالوكالة بين قبائل الزولو والإكسهوزا. فقد كان معظم أعضاء حزب إنكاثا من الزولو، وكان

حزباً ثورياً ووطنياً. أما حزب المؤتمر الوطني الأفريقي فقد كان يشكل ائتلافاً واسعاً يضم قبائل عديدة مختلفة، لكن معظم زعمائه آنذاك كانوا من قبيلة الإكسهوزا، وبدلاً من أن يتحدا لإحلال السلام انقلب أحدهما على الآخر، وارتكبا أعمالاً همجية لا يمكن تصوّرها، واندلعت أعمال شغب هائلة، قُتل خلالها آلاف البشر. وكان الخنق شائعاً جداً في عمليات القتل تلك. فقد كانوا يُلقون بشخص أرضاً ويضعون فوق صدره عجلة مطاطيّة، ويثبّتون ذراعيه، ثمّ يصبّون البنزين فوقه ويشعلون النار فيه ويحرقونه حياً. لقد فعل حزب المؤتمر الوطني الأفريقي ذلك لحزب إنكاثا، وفعل حزب إنكاثا ذلك للمؤتمر الوطني الأفريقي. وكنت قد رأيت إحدى تلك الجثث متفحّمة مرمية على قارعة الطريق في أحد الأيام وأنا ذاهب إلى المدرسة. وفي المساء كانت أمّي تفتح التلفزيون الصغير بالأبيض والأسود لدينا ونشاهد الأخبار: قُتل اثنا عشر شخصاً، قُتل خمسون شخصاً، قُتل مئة شخص.

لا تبعد إيدن بارك كثيراً عن البلدات الكبيرة، إيست راند وثوكوزا وكاتليهونج، التي كانت مسرحاً لعدد من الاشتباكات والصدامات المروعة بين حزبي إنكاثا والمؤتمر الوطني الأفريقي. وكنا نعود مرة في الشهر على الأقل إلى البيت ونرى الحيّ كلّه يحترق. كان يتجمع مئات المتظاهرين في الشوارع، وكانت أمّي تقود السيارة ببطء عبر الحشود وتلتف حول حواجز إطارات السيارات المحترقة. لا شيء يشتعل مثل إطارات السيارات -فهي تشتعل بطريقة لا يمكنك تخيّلها. وعندما كنّا نمرّ بالسيارة بين

تلك الإطارات المحترقة، كنّا نشعر بأننا داخل فرن. كنت أقول لأمي: «أظن أن الشيطان يحرق إطارات سيارات في نار جهنم».

عندما تندلع أعمال شغب، كان جميع جيراننا يتحصّنون بحكمة وراء أبواب بيوتهم المغلقة إلاّ أمّي التي كانت تخرج من البيت في ذلك الوقت، وعندما كنّا نتنقل بين حواجز الإطارات المشتعلة، كانت ترمق المتظاهرين بتلك النظرة التي تقول: دعوني أمرّ. فأنا لست معنية بهذا الخراء. كانت قوية في وجه الخطر، وكان ذلك يثير دهشتي باستمرار، ولم تكن تكترث حتى لو كانت هناك حرب تدور أمام باب بيتنا. فلديها أشياء يجب أن تفعلها، وأماكن يجب أن تذهب إليها. كان ذلك نفس العناد الذي يدفعها لعدم التوقف عن الذهاب إلى الكنيسة على الرغم من أن السيارة معطلة. ومع أنه قد يكون هناك خمسمائة متظاهر عند أحد الحواجز يشعلون إطارات على الطريق الرئيسي خارج إيدن بارك، كانت أمّي تقول لي: «هيا، ارتدي ثيابك. يجب أن أذهب إلى العمل، ويجب أن تذهب إلى المدرسة».

فأقول: «لكن ألستِ خائفة؟ أنتِ واحدة وهم كثر».

فتقول: «حبيبي، أنا لست وحدي. جميع ملائكة السماء تقف ورائي».

فأقول: «إذاً سيكون من الجيد أن نراها، لأنني لا أظن أن المتظاهرين يعرفون أنها موجودة هناك أصلاً».

فتطمئنني وتقول إنني يجب ألا أقلق، وكانت تردد دائماً العبارة

التي عاشت معها وهي: «إذا كان الله معي، فمن يستطيع أن يكون ضدّي؟» لم تخف أمّي قط حتى عندما كان يجب أن تخاف.

مع أن الشوارع كانت تخلو من السيارات في يوم الأحد ذاك، قمنا بدورتنا المعهودة كاملة على الكنائس، وكالعادة انتهى بنا المطاف في كنيسة البيض. وعندما خرجنا من كنيسة الجار روزبانك كان قد خيّم الظلام ولم يكن هناك أحد غيرنا. كنّا قد أمضينا يوماً طويلاً ونحن نتنقل من حافلة ميني باص إلى أخرى من الكنيسة المختلطة إلى كنيسة السود ثم إلى كنيسة البيض. كنت أشعر بالإعياء. على الأقل كانت الساعة التاسعة ليلاً. في تلك الأيام، عندما كانت تحدث أعمال عنف وشغب، لم يكن أحد يخرج من بيته في تلك الساعة المتأخرة من الليل. وقفنا عند ناصية جادّة جيليكو وأكسفورد روود في قلب ضاحية جوهانسبرغ التي يسكنها البيض الأغنياء، ولم يكن هناك أثر لأيّ حافلة ميني باص. كانت الشوارع خاوية تماماً.

أردت أن ألتفت إلى أمّي وأقول لها بحدّة: «أترين؟ لهذا السبب أراد الله أن نمكث في البيت». لكنني عرفت من النظرة البادية على وجهها أن من الأفضل ألا أقول شيئاً. في بعض الأحيان كنت أريد أن أكلّم أمّي بقسوة وكانت تلك إحدى تلك المرات.

انتظرنا حافلة الميني باص لمدة طويلة. لم توّفر حكومة نظام التمييز العنصري وسائل نقل عامة للسود، لكن بما أن البيض كانوا بحاجة إلينا لنأتي إلى بيوتهم لنكنسها وننظّف حماماتهم،

وبما أن الحاجة أمّ الاختراع، استنبط السود وسيلة نقل خاصّة بهم، فأقاموا شبكة غير رسمية من الحافلات الصغيرة تتحكم بها شركات خاصّة تعمل خارج سلطة القانون تماماً. لم تكن شركات هذه الحافلات الصغيرة التي تُدعى «ميني باص» منظّمة تماماً، وكانت تديرها جماعات الجريمة المنظّمة. وكانت جماعات مختلفة تسيطر على بعض الطرق ولا تسمح لجماعات أخرى السير فيها، وكانت تتصارع على من يسيطر على أي طريق، وكانت تُدفع رشاوى وأعمال تجري في الخفاء، وكانت تحدث أعمال عنف كثيرة، وتُدفع مبالغ كبيرة كخوة للحماية وتفادي العنف. وكان الشيء الوحيد الذي يجب ألاّ تفعله هو أن تسرق طريقاً من جماعة منافسة أخرى. فقد كان السائقون الذين يسرقون طريقاً يُقتلون. وبما أنها لم تكن عملية منظّمة، فلم يكن بإمكانك أن تعتمد على الميني باص أيضاً، فإذا جاء جاء، وإذا لم يأت، لم يأت.

عندما وقفنا خارج كنيسة اتحاد روزبانك، كان النعاس يغالبني بقوة وكنت أكاد أسقط على قدميّ. لم تظهر أي حافلة ميني باص على مرأى البصر. أخيراً قالت أمّي: «دعنا نوقف سيارة لكي تقلّنا». رحنا نمشي ونمشي، وبعد ما بدا دهراً، مرّت بجانبنا سيارة ثم توقّفت، وعرض علينا السائق أن يوصلنا، فركبنا معه. ولم نكد نقطع مسافة عشرة أقدام حتى انحرفت فجأة حافلة ميني باص وتوقفت أمام السيارة مباشرة وقطعت عليها الطريق.

ترجّل السائق وهو من الزولو وبيده إيويسا، سلاح تقليدي ضخم يستعمله الزولو -عصا تُستخدم في القتال لتهشيم جماجم

الناس. ثم ترجّل رجل آخر، صديقه، من الجانب الآخر، واقتربا من سائق السيارة التي كنّا فيها، وأمسكا بتلابيب الرجل وسحباه من السيارة، وأخذا يلوّحان بعصيهما في وجهه ويصرخان: «لماذا سرقت زبائننا؟ لماذا تأخذ الركاب بسيارتك؟»

كانا على وشك أن يقتلا الرجل. كنت أعرف جيداً أن هذا يحدث أحياناً. ثم قالت أمّي لهما: «هيه، اسمعا، كان هذا الرجل يساعدني فقط. اتركاه وشأنه. سنصعد معكما. هذا ما كنّا نريده في البداية». نزلنا من السيارة وصعدنا إلى حافلة الميني باص.

كنّا الراكبين الوحيدين في الميني باص. وبالإضافة إلى كونهم أفراد عصابات عنيفين، كان سائقو حافلات الميني باص في جنوب أفريقيا مشهورين بالتذمر وانتقاد الركّاب وهم يقودون حافلاتهم. وكان هذا السائق غاضباً جداً. وما إنِ صعدنا إلى الحافلة حتى بدأ السائق الغاضب يلقي محاضرة على أمّي لأنها صعدت إلى سيارة رجل ليس زوجها. لم تكن أمّي تحتمل سماع محاضرات من رجال غرباء، فطلبت منه ألا يتدخّل في شؤون الآخرين، وعندما سمعها تتكلّم بلهجة الإكسهوزا، فقد صوابه. فقد كانت الصورة النمطية عن نساء الزولو والإكسهوزا جاهزة كما هي عن الرجال. فقد كانت نساء الزولو يتميزن بالأخلاق الحسنة والإطاعة، ونساء الإكسهوزا بعدم الأخلاق وعدم الإخلاص. وها هي أمّي، عدوّته القبلية، امرأة من الإكسهوزا، وحيدة مع طفليها الصغيرين -أحدهما طفل مختلط. لذلك، فهي ليست عاهرة فقط، وإنما عاهرة تنام مع رجال بيض. فقال لها: «آه، أنتِ

من الإكسهوزا. هذا يوضّح كلّ شيء. تصعدين مع رجال غرباء. إنك امرأة مقرفة».

لم تتوقف أمّي عن توبيخه ولم يتوقف عن توبيخها وشتمها. كان يصرخ بها من المقعد الأمامي، يهزّ إصبعه في المرآة ويهدد حتى قال أخيراً: «هذه هي مشكلتكن يا نساء الإكسهوزا. كلّكن عاهرات، وسألقنك الليلة درساً لن تنسيه».

بدأ يقود الحافلة بسرعة ولم يعد يتوقّف. لكنه كان يتمهل قليلاً عند تقاطع الطرق ليتأكد من خلو الطريق من السيارات ثم يعود ويزيد من سرعته. في تلك الأوقات، لم يكن الموت بعيداً عن أي شخص. وفي تلك اللحظة كان من الممكن أن تُغتصب أمّي، وكان من الممكن أن نُقتل جميعاً. كانت تلك الاحتمالات ممكنة. لم أكن أدرك جيداً الخطر الذي كان يحيق بنا في تلك اللحظة. كنت منهكاً ولم أكن أريد شيئاً إلا أن أنام. وعلى الرغم من كلّ ذلك، ظلت أمّي هادئة جداً. وبما أنها لم تكن تخاف، لم أكن أعرف الخوف. وظلّت تحاول أن تتوصل إلى تفاهم معه.

«آسفة إن كنا قد أزعجناك، بهوتي. يمكنك أن تنزلنا هنا...»

«لا».

«حقاً، لا بأس هنا. يمكننا أن نمشي...»

«لا».

عندما وصل إلى شارع أكسفورد روود كان الطريق خالياً من

السيارات فزاد سرعته. كنت أجلس بجانب باب الحافلة المنزلق، وكانت أمّي تجلس بجانبي تحمل أخي أندرو. نظرت من النافذة إلى الطريق ثمّ مالت فوقي وهمست، «تريفور، عندما يبطئ من سرعته عند تقاطع الشارع القادم، سأفتح الباب ونقفز من الحافلة».

لم أسمع كلمة واحدة مما قالته أمّي، لأنني غفوت في تلك اللحظة. عندما وصلنا إلى إشارة المرور التالية، خفّف السائق من سرعته قليلاً لينظر حواليه ويتأكد من خلو الطريق. مدّت أمّي يدها وفتحت الباب المنزلق بسرعة، وأمسكتني وألقت بي خارج السيارة بكل ما أوتيت من قوة، ثمّ أخذت أندرو، تكوّرت حوله في شكل كرة، وقفزت ورائي.

ظننت أنني أحلم إلى أن أحسست بالألم. بام! ارتطمت على الرصيف بقوة، ثم هبطت أمّي بجانبي وتدحرجنا وتدحرجنا. عندها استيقظت. انتقلت من حالة نصف نائم إلى أيّ شيء لا أعرف ما هو؟ وفي النهاية، توقّفت ونهضت واقفاً لا أعرف ما الذي يجري حقاً. نظرت حولي ورأيت أمّي التي وقفت للتو أيضاً على قدميها. التفتت ونظرت إليّ وصاحت.

«اركض».

فركضتُ وركضتُ. لم يكن هناك أحد يمكن أن يركض كما أركض أنا وأمّي.

لا يمكن تفسير ذلك، لكنني كنت أعرف جيداً ما الذي يجب

أن أفعله. إنها غريزة حيوانية، تعلّمتها في عالم عنيف يتربص بك باستمرار وينتظر حتى ينفجر. ففي المناطق التي يقطنها السود، تعلّمت أنه عندما تهاجم الشرطة المدججة بأدوات مكافحة الشغب وبالعربات المدرّعة وطائرات الهيلوكوبتر، أن أركض وأبحث عن مكان آمن أختبئ فيه. اركض واختبئ. تعلّمت ذلك منذ أن كنت في الخامسة من عمري. لو أنني عشت حياة مختلفة، وألقي بي من الحافلة وهي تسير بسرعة لانزعجت ووقفت هناك كالأبله، وقلت: «ما الذي يجري يا أمّي؟ لماذا ساقاي تؤلمانني؟» لكن لم يحدث شيء من هذا. فعندما قالت أمّي «اركض» ركضت. جريت كما يجري الغزال الهارب من الأسد.

توقف الرجلان وترجلا من الميني باص وراحا يجريان وراءنا، لكن لم يكن لديهما أي حظ في أن يلحقا بنا. يخيّل إليّ أنهما صُدما. لا أزال أذكر عندما نظرت ورائي ورأيتهما يستسلمان وعلى وجهيهما نظرة مليئة بالحيرة. ما الذي جرى؟ من يخطر بباله أن امرأة معها طفلان صغيران يمكن أن يركضوا بهذه السرعة؟ لم يعرفا أنهما يتعاملان مع بطلين من أبطال مسابقات الجري في مدرسة ماريفال كوليدج. تابعنا طريقنا حتى وصلنا إلى محطة بنزين تفتح لمدة أربع وعشرين ساعة، واتّصلنا بالشرطة. كان الرجلان قد اختفيا الآن.

حتى تلك اللحظة لم أعرف لماذا حدث كلّ ذلك. فقد الأدرينالين هو الذي يجعلني أركض بسرعة. عندما توقّفنا عن الجري أحسست بالألم. نظرت إلى الأسفل ورأيت جلد ذراعي قد كُشط وتمزّق. كانت الجروح تملأ جسمي والدم يسيل مني.

وكانت أميّ كذلك. أما أخي الصغير فلم يصب بأي خدش بشكل لا يصدق. كانت أمّي قد كوّرت نفسها حوله، فلم يصب بأي أذى. التفتُّ إليها مصدوماً.

«ما الذي حدث؟! لماذا كنا نركض؟»

«ماذا تقصد، (لماذا كنا نركض؟) كان هذان الرجلان يحاولان أن يقتلانا».

«لم تقولي لي ذلك! فقط رميتني من السيارة».

«قلت لك. لماذا لم تقفز؟»

«أقفز؟ كنت نائماً».

«إذاً كان عليّ أن أتركك هناك ليقتلاك؟»

«على الأقل كانا سيوقظانني قبل أن يقتلاني».

" وظللنا هكذا في أخذ وردّ. كنت مشوّشاً جداً وغاضباً جداً لأنها رمتني من السيارة حتى أدركت حقيقة ما جرى. لقد أنقذت أمّي حياتي. "

عندما التقطنا أنفاسنا وانتظرنا قدوم سيارة الشرطة لتوصلنا إلى البيت، قالت: «حسناً، على الأقل أصبحنا الآن في أمان، الحمد لله».

لكنّي كنت في التاسعة من عمري وأصبحت أعرف أكثر. لن أسكت هذه المرة.

«لا يا أمّي! لم ينقذنا المسيح! كان يجب أن تسمعي عندما طلب منّا أن نمكث في البيت عندما لم تعمل السيارة، لأن الشيطان هو الذي خدعنا وجعلنا نخرج هذه الليلة».

«لا، يا تريفور! الشيطان لا يفعل ذلك. إنها جزء من خطّة الله، فإذا أراد أن نكون هنا فلديه سبب...»

واستمررنا هكذا في أخذ وردّ، نتجادل حول إرادة الله. ثم قلت أخيراً: «انظري يا أمّي، أعرف أنّك تحبّين المسيح كثيراً، لكن أرجو أن تطلبي منه أن يلتقي بنا في بيتنا الأسبوع القادم، لأن ما حدث الليلة لم يكن شيئاً جيداً».

ارتسمت على وجهها ابتسامة كبيرة وضحكت. وضحكت أنا أيضاً، ووقفنا هناك، الصبي الصغير وأمّه وقد امتلأ ذراعنا وساقانا بالدم والتراب، نضحك معاً بالرغم من الألم تحت ضوء مصباح محطة البنزين على جانب الطريق في منتصف الليل.

١

التفرقة العنصرية هي سياسة تمييز عنصري بامتياز. وقد استغرقت قروناً حتى تطورت وتشكلت، ويعود تاريخها إلى عام ١٦٥٢ عندما رست سفن شركة الهند الشرقية في رأس الرجاء الصالح وأنشأت مستعمرة تجارية تدعى كابستاد، عُرفت لاحقاً باسم كيب تاون، وهي محطة تتوقف فيها السفن المتنقلة بين أوروبا والهند للاستراحة. وبغية فرض هيمنة الرجل الأبيض، حارب المستعمرون الهولنديون سكان البلاد الأصليين، ثم وضعوا عدة قوانين لإخضاع السكان الأصليين واستعبادهم. وعندما سيطر البريطانيون على مستعمرة كيب تاون، زحف أحفاد المستوطنين الهولنديين الأصليين إلى المناطق الداخلية وطوّروا لغتهم وثقافتهم وعاداتهم الخاصة بهم، وفي النهاية أصبحوا شعباً متميزاً يدعون -الأفريكان- قبيلة البيض الأفريقية.

ألغى البريطانيون العبودية بالاسم فقط، لكنهم أبقوا عليها فعلياً. فعلوا ذلك لأن حفنة من الرأسماليين المحظوظين عثروا على أغنى الاحتياطيات من الذهب والماس في العالم في أواسط القرن التاسع عشر، فيما كانت محطة تقع على الطريق الذي لم تعد له قيمة إلى الشرق الأقصى، وأصبحوا بحاجة إلى أعداد كبيرة من الأجساد التي يمكن استهلاكها لحفر الأرض واستخراج الثروات منها.

عندما سقطت الإمبراطورية البريطانية، ثار الأفريكان وادّعوا

أن جنوب أفريقيا ميراثهم الشرعي. ولكي يحافظوا على السلطة في مواجهة غالبية سكان البلاد السود الثائرين والمتململين، أدركت الحكومة أنها بحاجة إلى فرض أدوات أحدث وأقوى. فشكّلت لجنة رسمية لدراسة التمييز العنصري بشكل مؤسّساتي. ذهبت هذه اللجنة إلى أستراليا وإلى هولندا وإلى أمريكا. ورأت ما الذي يمكن عمله وما لا يمكن عمله. ثمّ عادت اللجنة وقدمت تقريرها، واستخدمت الحكومة المعلومات التي وردت في التقرير وأنشأت أشدّ النظم تقدّماً في ما يتعلق بالظلم العرقي الذي عرفته البشرية. كان نظام التمييز العنصري دولة قمعية، نظاماً يتكون من قوانين وضعت السود تحت الهيمنة المطلقة. وتتألف هذه القوانين من أكثر من ثلاثة آلاف صفحة وتزن زهاء عشرة أرطال، لكن كان يجب أن تكون دوافعها العامة سهلة كي يفهمها أيّ أمريكي. فقد نُقل السكان الأصليون في أمريكا قسراً ووضعوا في محميات اقترنت بعبودية أعقبتها التفرقة العنصرية. تخيّل أن تحدث هذه الأشياء الثلاثة كلّها لمجموعة واحدة من الناس في آن واحد. هذا هو التمييز العنصري.

(٢)

جريمة الولادة

نشأتُ في جنوب أفريقيا في ظل نظام التمييز العنصري، وكان ذلك شيئاً في غاية الصعوبة لأنني رُبّيت في أسرة مختلطة، وكنت أنا الشخص المختلط في تلك الأسرة. كانت أمّي، باتريشيا نومبويسيلو نوا، امرأة سوداء، وكان أبي، روبرت، رجلاً أبيض، بدقة أكبر سويسري/ ألماني. وخلال فترة نظام التمييز العنصري، كانت إقامة علاقة جنسية مع شخص من عرق آخر تعتبر واحدة من أسوأ الجرائم التي يمكن للمرء أن يرتكبها. ولا داعي للقول إن أبي وأمي قد اقترفا هذه الجريمة.

"في أيّ مجتمع يقوم على أساس التمييز العنصري المؤسّساتي، لا يشكل اختلاط العرق تحدّياً للنظام باعتباره شيئاً غير عادل فحسب، وإنما يُظهر أن النظام مفكك ولا يمكن استمراره. إن اختلاط العرق يثبت أن الأعراق تستطيع أن تختلط -وفي أحيان كثيرة- تريد أن تختلط، لأن ثمرة هذا الاختلاط يجسّد سخرية من منطق هذا النظام، لهذا السبب أصبح الاختلاط بين الأعراق جريمة تفوق الخيانة العظمى."

يظل البشر بشراً ويظل الجنس جنساً. لذلك لن يردع هذا الحظر أحداً. فقد ظهر أطفال مختلطون في جنوب أفريقيا بعد تسعة أشهر فقط من رسو السفن الهولندية الأولى في خليج تابل باي. وكما حدث في أميركا، فقد استباح المستعمرون نساء السكان الأصليين، كما يفعل المستعمرون غالباً في كل مكان. لكن بخلاف ما حدث في أمريكا، حيث يصبح أي شخص يحمل قطرة سوداء واحدة أسود بشكل تلقائي، صُنِّف الأشخاص المختلطون في جنوب أفريقيا على أنهم مجموعة منفصلة، لا هي من السود ولا هي من البيض، وأطلقوا عليها اسم «ملوّنين». وكانوا يرغمون الملوّنين والسود والبيض والهنود على تسجيل عرقهم في السجلات الحكومية. واستناداً إلى هذه التصنيفات، اجتُثّ ملايين البشر من مناطقهم ونقلوا إلى مناطق أخرى، وعُزلت المناطق التي يقطنها الهنود عن مناطق الملوّنين التي عُزلت بدورها عن مناطق السود -عُزلوا جيعاً عن مناطق البيض، وفُصل أحدهم عن الآخر من خلال مناطق عازلة من أراض شاسعة فارغة. وسُنَّت قوانين تحظر إقامة علاقات جنسية بين الأوروبيين والسكان المحليين، عُدّلت لاحقاً لتحظر إقامة أي علاقة جنسية بين البيض وكلّ من هو ليس أبيض.

وتجاوزت الحكومة حدوداً جنونية أكثر في فرض قوانين جديدة. وكانت عقوبة عدم التقيد بهذه القوانين السجن لمدة خمس سنوات. وكانت تنطلق فرق كاملة من الشرطة تنحصر مهمتها في التجول في مختلف المناطق والتلصص من النوافذ -لا بد أنها مهمة

كانت توكل إلى أفضل العناصر المسؤولين عن إنفاذ القانون. وإذا أُلقي القبض على رجل وامرأة من عرقين مختلفين، كان الله بعونهما. إذ يكسر رجال الشرطة الباب ويقتحمون البيت، ويجرّون الشخصين إلى خارج البيت، ويوسعونهما ضرباً، ويُلقى القبض عليهما. هذا ما يفعلونه على الأقل للشخص الأسود، أما الشخص الأبيض فإنهم يقولون له، «انظر، سنقول إنّك كنت ثملاً، لكن لا تفعل ذلك مرة أخرى، إيه؟ بصحتك». هذا ما كان يجري مع رجل أبيض وامرأة سوداء. أما إذا قبض على رجل أسود متلبساً بممارسة الجنس مع امرأة بيضاء، فإنه سيكون محظوظاً إذا لم يُتّهم بالاغتصاب.

لو سألتُ أمّي إن كانت قد فكّرت في عواقب أن يكون عندها طفل مختلط في ظل نظام التمييز العنصري، لقالت لك لا. لقد أرادت أن تفعل شيئاً، وفكّرت بطريقة لتفعلها، ثمّ فعلتها. كانت تمتلك قدراً من الشجاعة التي كان يجب أن تمتلكها كي تفعل ما فعلته. فلو كانت قد توقّفت قليلاً وفكرت في العواقب، لما فعلت ما فعلته. في جميع الأحوال، كان تصرفاً جنونياً، طائشاً. كان هناك مليون شيء كان علينا أن نتجاوزه كما فعلنا لفترة طويلة جداً.

***

في ظل نظام التمييز العنصري، إذا كنتَ رجلاً أسود فإما أنك تعمل في مزرعة أو في مصنع أو في منجم. وإذا كنتِ امرأة سوداء، فإما أنك تعملين في مصنع أو خادمة. تكاد تكون هذه خياراتك

الوحيدة. أما أمّي فلم تكن تريد أن تعمل في مصنع، ولم تكن طاهية جيدة ولم تكن تستطيع احتمال أن تأمرها امرأة بيضاء بما يجب أن تفعله طوال اليوم. وانسجاماً مع طبيعتها، وجدت خياراً لم يكن متاحاً لها: فأخذت دروساً في السكرتاريا والطباعة على الآلة الكاتبة. كانت المرأة السوداء التي تتعلّم الطباعة على الآلة الكاتبة آنذاك مثل شخص أعمى يتعلّم قيادة السيارة. كان جهداً جديراً بالإعجاب، لكنّ لم تكن هناك إمكانية لإيجاد وظيفة في أي مكان لتقوم بهذا العمل. فاستناداً إلى القانون، كانت الوظائف المكتبية والتي تتطلب مهارات مخصصة للبيض فقط، ولم يكن يُسمح للسود العمل في المكاتب، لكن أمّي كانت امرأة متمرّدة، ومن حسن حظّها، أن تمرّدها جاء في اللحظة المناسبة.

"ففي مطلع ثمانينات القرن العشرين، بدأت حكومة جنوب أفريقيا تُجري إصلاحات طفيفة في محاولة منها لإسكات الاحتجاجات الدولية بشأن الأعمال الوحشية وانتهاكات حقوق الإنسان التي تنتهجها سياسة التمييز العنصري.[11] وكان من بين تلك الإصلاحات السماح رمزياً بتوظيف السود في وظائف مكتبية متدنية المستوى، مثل الطباعة على الآلة الكاتبة. ومن خلال مكتب توظيف، حصلت أمّي على وظيفة سكرتيرة في شركة آي سي آي، وهي شركة أدوية متعدّدة الجنسيات في برامفونتاين، إحدى ضواحي جوهانسبرغ.

عندما بدأت أمّي عملها، كانت لا تزال تعيش مع جدّتي في سويتو، البلدة التي نقلت إليها الحكومة جميع أفراد عائلتي منذ

عقود. لكن أمي لم تكن سعيدة في البيت، وعندما بلغت الثانية والعشرين من عمرها هربت لتعيش في وسط مدينة جوهانسبرغ. كانت تعترضها مشكلة واحدة فقط وهي أن إقامة السود هناك لم تكن قانونية.

" كانت سياسة التمييز العنصري تهدف إلى جعل جنوب أفريقيا بلداً يعيش فيه البيض فقط، لذلك كانت تنزع جنسية السود وتنقلهم ليعيشوا في ما يسمى «الوطن»، «البانتوستانات»، وهي مناطق شبه مستقلة يقطنها السود تابعة لحكومة بريتوريا. لكن ما كان يُدعى «البلد الأبيض» لم يستطع أن يستمر بدون العمال السود لإنتاج ثروته، وكان هذا يعني أنه يجب أن يُسمح للسود أن يعيشوا في مناطق يقطنها البيض، أحياء «غيتو» خصصتها الحكومة ليسكن فيها العمال السود، مثل سويتو. المدينة التي تعيش فيها، لكن لا يسمح لك أن تقطن هناك إلاّ إذا كنت عاملاً. وإذا رُفضت أوراقك لأيّ سبب، فقد تُرحّل إلى البانتوستانات أو «الوطن». "

ولكي تغادر «الوطن» لتعمل في المدينة أو لأيّ سبب آخر، عليك أن تحصل على ترخيص يحمل رقم هويّتك الشخصية، وإلا فقد يُلقي عليك القبض. وكان يوجد أيضاً حظر للتجول: فبعد ساعة معيّنة، يتعين على السود أن يلزموا بيوتهم وإلاّ فإنه يتم القبض عليهم ويُسجنون. لكن أمّي لم تكن تكترث بذلك. فقد صمّمت على ألاّ تعود إلى بيت أمها، فبقيت في المدينة تختبئ وتنام في دورات المياه العامة، حتى علّمتها نسوة سود أخريات يعملن هناك مومسات قواعد التجول في المدينة.

كانت بعض المومسات اللاتي يعشن في المدينة من قبيلة الإكسهوزا، وكنّ يتكلّمن بنفس اللغة التي تتكلّمها أمّي، فأرينها كيف تستطيع أن تعيش هناك، وعلّمنها كيف ترتدي ثياب خادمة لتتنقل في أرجاء المدينة دون أن يشكّ بها أحد، وعرّفنها أيضاً على رجال بيض مستعدين لتأجير شقق في المدينة كان الكثير منهم أجانب وألمان وبرتغاليين لا يبدون أي اهتمام للقانون المفروض ولم يكن لديهم مانع من تأجير مومس لتقيم وتعمل لقاء مبلغ معين. لكن أمّي لم تكن تهتم بكلّ هذه الأشياء لأنها كانت تملك مبلغاً كافياً لتسديد الإيجار من عملها. ثم التقت برجل ألماني بواسطة صديقة لها، وافق على تأجيرها شقّة باسمه. فانتقلت إلى الشقّة واشترت ثياب خادمة لترتديها. وقُبض عليها مرات عدة لأنها لم تكن تحمل بطاقتها الشخصية وهي عائدة إلى البيت من عملها، لوجودها في منطقة يقطنها البيض. وكانت عقوبة عدم حمل البطاقة الشخصية الحبس لمدة ثلاثين يوماً أو دفع غرامة قدرها خمسون رانداً، أي ما يعادل نصف راتبها الشهري. كانت تجمع النقود، وتدفع الغرامة، وتعود إلى عملها.

كانت شقّة أمّي السرّية تقع في حيّ يدعى هيلبرو، الشقة رقم ٢٠٣. وكان يعيش في الطرف الآخر من البهو مغترب سويسري/ألماني، طويل القامة له عيون بنيّة وشعر بنّي يدعى روبرت. كان يقيم في الشقة رقم ٢٠٦. وبما أن جنوب أفريقيا كانت مستعمرة، فقد كانت تعجّ بالمغتربين. كان الكثيرون يأتون إليها ويعيشون فيها. أطنان من الألمان، وأعداد كبيرة من الهولنديين. وكان حيّ

هيلبرو آنذاك يشبه حيّ غرينيتش فيليج في نيويورك لكن في جنوب أفريقيا. كان مشهداً رائعاً، عالمياً وتحرّرياً. وكانت توجد فيه معارض وصالات رسم ومسارح تحت الأرض، وكان الفنانون والممثلون ينتقدون الحكومة أمام مجموعات كبيرة من المشاهدين. وكانت تنتشر فيه مطاعم ونواد ليلية، يمتلك معظمها أشخاص أجانب يقدمون خدماتهم لزبائن مختلطين: سود يكرهون الوضع الراهن، وبيض يعتبرون هذه الممارسة أمراً سخيفاً. وكان هؤلاء يعقدون اجتماعات سرّية، عادة في شقّة أحدهم أو في قبو فارغ تم تحويله إلى ناد. وكانت يغلب على هذه اللقاءات طابع سياسي، لكن اللقاءات نفسها لم تكن سياسية مطلقاً. فقد كانوا يلتقون ويتبادلون الأحاديث ويقيمون حفلات.

ألقت أمّي بنفسها في هذا المشهد. فقد دأبت على الذهاب إلى ناد ما، حفلة ما، اللقاء بأشخاص آخرين. وكانت تأتي دائماً إلى برج هيلبرو، أحد أعلى المباني في أفريقيا في ذلك الوقت، الذي يوجد فيه ناد ليلي له ساحة رقص دوّارة في الطابق العلوي. كانت تمضي وقتاً ممتعاً لكنه محفوف بالمخاطر. وكانت هذه المطاعم والنوادي تُغلق أحياناً، ولا تُغلق في أحيان أخرى. وكان يُلقى القبض على الممثلين والزبائن فيها أحياناً، ولا يُلقى عليهم القبض وفي أحيان أخرى. كانت مسألة حظ. ولم تكن أمّي تعرف أحداً تثق به، لأن أي شخص كان من الممكن أن يشي بها ويسلّمها إلى الشرطة لأن الجيران كانوا يبلغون عن أحدهم الآخر. وكانت لدى صديقات الرجال البيض في البناية التي تقيم فيها أمّي كل

الأسباب للإبلاغ عن امرأة سوداء -لا ريب أنها مومس- تعيش بينهم في البناية. علماً أن عدداً كبيراً من السود كانوا يعملون أيضاً جواسيس لدى الحكومة، وربما كان جيرانها البيض يظنون أن أمّي جاسوسة متنكرة في هيئة مومس أو خادمة، أرسلتها الشرطة إلى برج هيلبرو لتبلغ عن البيض الذين يخالفون القانون. بهذا الشكل كانت الدولة القمعية تعمل -كل شخص يظن أن شخصاً آخر يراقبه ويتجسس عليه.

كانت تعيش وحدها في المدينة، لا يثق بها أحد ولا تستطيع أن تثق بأحد، بدأت أمّي تمضي وقتاً مع شخص شعرت بالأمان معه، وهو الرجل السويسري الطويل القامة الذي يقيم في الطرف الآخر من البهو في الشقة رقم ٢٠٦. كان في السادسة والأربعين من عمره، وهي في الرابعة والعشرين. كان هادئاً ومتحفظاً، وهي طائشة وحرّة. بدأت تزوره في شقّته يتبادلان الأحاديث، وكانا يحضران تلك الاجتماعات السرية، ويرقصان في النادي الليلي الذي توجد فيه ساحة رقص دوارة. يبدو أن شيئاً علق بينهما.

أعرف أن علاقة حبّ حقيقية كانت تجمع بين والديّ. لقد رأيت ذلك، لكنني لا أعرف إلى أي مدى كانت علاقتهما رومانسية، وإلى أي حدّ كانا مجرد صديقين لأن الطفل لا يسأل عن هذه الأشياء. كلّ ما أعرفه أنها قالت له ذات يوم.

«أريد طفلاً».

فقال لها: «لا أريد أطفالاً».

«لم أسألك أن يكون عندنا طفل. طلبت منك أن تساعدني على أن يكون عندي طفل لي. لا أريد منك إلا النطفة».

فقال لها: «أنا رجل كاثوليكي، ونحن لا نفعل مثل هذه الأشياء».

فأجابته، «إنك تعرف أنني أستطيع أن أنام معك وأذهب ولن تعرف إن كان عندك طفل أم لا. لكنّي لا أريد أن أفعل ذلك. شرّفني بموافقتك حتى أعيش بسلام. أريد أن يكون عندي طفل وأريده منك. ويمكنك أن تراه كما تحب، ولن تكون لديك أي التزامات وواجبات تجاهه. ولن تكون مضطراً لأن تكلّمه إذا أردت. ولن تكون مضطراً لأن تدفع أي شيء من أجله. لا أطلب منك إلاّ أن تصنع لي هذا الطفل».

إن عدم رغبة هذا الرجل بإنشاء أسرة معها، وحظر القانون إنشاء أسرة معها، هما اللذان جذبا أمّي إليه. فقد كانت تريد طفلاً، لا رجلاً يتدخّل في حياتها. وأعرف أن أبي ظل يرفض لفترة طويلة، لكنه وافق أخيراً. ما هو السبب الذي جعله يوافق سؤال لا توجد عندي إجابة عليه.

بعد موافقته بتسعة أشهر، في ٢٠ شباط (فبراير) ١٩٨٤، أدخلت أمّي إلى مستشفى هيلبرو لإجراء عملية ولادة قيصرية. امرأة منفصلة عن عائلتها، حامل من رجل لا تستطيع أن تخرج معه علناً. كانت وحدها. عندما نقلها الأطباء إلى غرفة الولادة، وشقّوا بطنها، ومدّوا أيديهم وأخرجوا طفلاً نصفه أبيض ونصفه

أسـود، منتهـكاً جميـع القوانـين والأنظمـة -كانـت ولادتي بمثابـة جريمـة.

كانـت لحظـة خروجـي إلى الحيـاة صعبـة بالنسـبة إلى الأطبـاء الذيـن قالـوا: «همه. إن بـشرة هـذا الطفـل فاتحـة جـداً». وعندمـا نظـروا حولهـم في غرفـة التوليـد لم يـروا أي رجـل يقـف هنـاك.

سألوها، «من هو الأب؟»

فقالـت أمّـي: «أبـوه مـن سـوازيلاند»، بالإشـارة إلى المملكـة الصغـيرة الواقعـة غـرب جنـوب أفريقيـا.

" ربـما عرفـوا أنّهـا تكـذب، لكنّهـم قبلـوا الكذبـة لأنهـم كانـوا يريـدون تفسـيراً مـا لأن الحكومـة تسـجّل كلّ شيء في شـهادة ميلادك في ظـل نظـام التمييـز العنـصري: العـرق، القبيلـة، الجنسـية. يجـب أن يُحـدد كلّ شيء. كذبـت أمّـي وقالـت إننـي ولـدت في كانغـوان، ذلـك البلـد شـبه المسـتقل الـذي يعيـش فيـه الشـعب السـوازي في جنـوب أفريقيـا، لهـذا السـبب لم يـرد في شـهادة مـيلادي أننـي مـن قبيلـة الإكسـهوزا مـع أننـي أنتمـي إليهـا، ولم يـرد فيهـا أننـي سـويسري، لأن الحكومـة لا تسـمح بذلـك، وإنـما ورد فيهـا أننـي مـن بلـد آخـر.

لا يـرد ذكـر لأبي في شـهادة مـيلادي. فهـو رسـمياً ليـس أبي. وأوفـت أمّـي بوعدهـا، فلـم تقحمـه في الأمـر. ثـم اسـتأجرت شـقة جديـدة في جوبـيرت بـارك، وهـو حـيّ مجـاور لحـيّ هيلـبرو، وأخذتنـي إليهـا عندمـا خرجـت مـن المستشـفى. بعـد أسـبوع ذهبـت لزيارتـه وحدهـا، ولمفاجأتهـا، سـألها عنـي. فقالـت لـه: «قلـت إنّـك لا تريـد

أن أقحمك في هذا الأمر». لم يكن يريد ذلك، لكن عندما جئت إلى الوجود أدرك أنه لا يستطيع أن يكون عنده ابن يعيش في مكان قريب ولا يكون جزءاً من حياته. فشكّلنا ثلاثتنا نوعاً من أسرة، بقدر ما أتاحت لنا ظروفنا الغريبة. فعشت مع أمّي، وكنا نزور أبي خلسة كلما استطعنا.

إن معظم الأطفال هم دليل على حبّ آبائهم، أما أنا، فقد كنت دليلاً على الجريمة التي اقترفاها. فلم أكن أستطيع أن ألتقي بأبي إلاّ داخل البيت. وإذا خرجنا من البيت، فقد كان يمشي بعيداً عنّا على الجانب الآخر من الشارع. وكانت أمّي تأخذني دائماً إلى حديقة جوبيرت بارك التي تشبه حديقة سنترال بارك في نيويورك، لكن هذه في جوهانسبرغ، فيها حدائق جميلة، وحديقة حيوانات، وفيها لوح شطرنج ضخم فيه أحجار كبيرة بحجم إنسان يلعب بها الناس. حكت لي أمّي أن أبي أن يذهب معنا عندما كنت طفلاً صغيراً. ذهبنا إلى الحديقة وكان يسير بعيداً عنّا، فركضت وراءه، ورحت أصيح، «بابا، بابا، بابا». وعندما بدأ الناس ينظرون إلينا، خاف وهرب، فظننت أنها لعبة ورحت أركض وراءه.

لم يكن باستطاعتي أن أسير مع أمّي أيضاً. فقد كان وجود طفل له بشرة فاتحة مع امرأة سوداء يثير أسئلة كثيرة. بعد ولادتي مباشرة كانت تلفّني بقماط وتأخذني إلى أيّ مكان تريد، أما عندما بدأت أكبر فلم يعد ذلك ممكناً، لأنني كنت طفلاً ضخم الجثة. فعندما كان عمري سنة كان الناس يظنون أن عمري سنتان،

وعندما بلغت الستين، كان الناس يظنون أنني في الرابعة، فلم تكن لديها وسيلة لإخفائي.

كما فعلت أمّي بشقّتها وبثياب الخادمات التي كانت ترتديها، وجدت ثغرات في النظام. فلم يكن قانونياً أن تكون مختلطاً (أي أن يكون أحد والديك أسود والآخر أبيض)، لكنّ من القانوني أن تكون ملوناً (أي أن يكون كلا والديك ملوّنين). فكانت أمّي تتنقل بي باعتباري طفلاً ملوّناً. وكانت قد وجدت دار حضانة في منطقة الملوّنين وأصبح بإمكانها أن تخرجني عندما لا تكون في عملها. وكانت تقيم في بنايتنا امرأة ملوّنة اسمها كوين، كانت أمّي تدعوها لمرافقتنا عندما نذهب إلى الحديقة. كانت كوين تمشي بجانبي وتتصرّف كما لو كانت أمّي، وكانت أمّي تمشي وراءنا ببضع خطوات، كما لو كانت خادمة تعمل عند المرأة الملوّنة. توجد عندي عشرات الصور وأنا أسير مع هذه المرأة التي تشبهني لكنها لم تكن أمّي، بينما المرأة السوداء التي تقف وراءنا كأنها تحشر نفسها في الصورة هي أمّي. وعندما لم تكن توجد برفقتنا امرأة ملوّنة، فكانت أمّي تجازف وتأخذني معها. تمسك بيدي أو تحملني، وإذا رأت شرطياً فجأة كانت تضعني على الأرض وتبتعد عني وتتظاهر بأنها لا تعرفني كما لو كنت كيساً مهملاً.

عندما ولدتُ، لم تكن أمّي قد رأت أسرتها منذ ثلاث سنوات، لكنّها كانت تريد أن أعرفهم ويعرفوني، وهكذا عادت الابنة الضالة. فعشنا في البلدة، وكنت أمضي أسابيع متواصلة مع جدتي

في سويتو، في معظم الأحيان أثناء العطل. أحمل أيضاً ذكريات كثيرة من المكان الذي عشنا فيه.

كانت سويتو مدينة صُممت لكي تُقصف -هكذا صممها مهندسو التمييز العنصري أصحاب التفكير التقدّمي. كانت سويتو مدينة بحد ذاتها، يقارب عدد سكانها مليون نسمة. وكان فيها طريقان فقط، طريق ذهاب وطريق إياب. لقد صُممت هكذا لكي يتمكن الجيش من محاصرتها وقمع أيّ تمرّد قد ينشأ فيها. فإذا فقدت القرود صوابها وحاولت أن تهرب من قفصها، تستطيع الطائرات أن تحلّق فوقها وتقصف الجميع وتبيدهم عن بكرة أبيهم. حتى عندما كبرت، لم أكن أعرف أنّ جدتي كانت تعيش في مركز الهدف.

مع كلّ الصعوبات التي اعترضتنا في المدينة، تمكنّا من العيش فيها وتدبّر أمورنا. فقد كانت أعداد كبيرة من الناس تسير في الشوارع: سود، وبيض، وملوّنون، غادين ورائحين، فكنّا نفبع بين تلك الحشود. أما في سويتو، فلم يكن هناك إلاّ السود، وكان إخفاء واحد مثلي أمراً بالغ الصعوبة، وكانت مراقبة الحكومة شديدة. وقلما تجد في مناطق البيض شرطة، وإذا رأيتهم، فإنك ترى أشخاصاً ودودين يرتدون قمصاناً ذات ياقات وبناطيل مكوية. أما في سويتو، فقد كانت الشرطة أشبه بجيش احتلال، فهم لا يرتدون قمصاناً لها ياقات، وإنما يرتدون بدلات مكافحة الشغب. إنهم جيش في ثياب شرطة، يعملون في فرق تُعرف بالفرق الطيّارة، لأنهم يغيرون فجأة -يركبون ناقلات جنود

مدرّعة- نسميها أفراس النهر -دبابات ذات عجلات ضخمة ولها فتحات على جوانبها لإطلاق النار منها. لا يستطيع أحد أن يعبث مع أفراس النهر هؤلاء، فما إن ترى أحدهم حتى تطلق ساقيك للريح وتهرب بعيداً. هذه إحدى حقائق الحياة. وكانت البلدة في حالة مستمرة من التمرد والعصيان. فهناك دائماً شخص يحتجّ على شيء ما في مكان ما وعليهم أين يقمعوه. عندما كنت ألعب في بيت جدتي، كنت أسمع دائماً أصوات طلقات نارية، وصياحاً، وإطلاق قنابل مسيّلة للدموع على الجموع المحتشدة.

تعود ذكرياتي عن أفراس النهر والفرق الطيّارة إلى الفترة عندما كنت في الخامسة أو السادسة من عمري، عندما بدأت سياسة التمييز العنصري تنهار أخيراً. فلم أكن قد رأيت الشرطة من قبل لأننا لم نكن نجازف بأن تراني الشرطة. وعندما كنا نذهب إلى سويتو، لم تكن جدتي تسمح لي بمغادرة البيت. كانت تراقبني باستمرار وتقول لي: «لا، لا، لا. يجب ألا تغادر البيت». كنت ألعب في فناء البيت وراء الجدار، ولم يكن يُسمح لي أن ألعب في الشارع يلعب جميع الصبية والبنات. فقد كان ابنا خالتي وجميع الأولاد في الحيّ يفتحون أبواب بيوتهم ويخرجون ويتجوّلون بحرّية ثم يعودون عند الغروب. كنت أتوسل إلى جدتي لأن تدعني أخرج إلى الشارع.

«أرجوك، أرجوك. هل أستطيع أن أذهب وألعب مع أبناء خالتي؟»

«لا. إذا خرجت فإنهم سيأخذونك».

لفترة طويلة كنت أظن أنّها تقصد أنّ الأطفال الآخرين سيسرقونني، لكنّها كانت تقصد الشرطة. فقد كانوا يأخذون الأطفال، وقد أخذوا أطفالاً بالفعل. طفل لونه خطأ في منطقة لونها خطأ، قد تأتي الحكومة وتسلب من والديك رعايتهما لك، ويسحبونك ويأخذونك إلى ملجأ للأيتام. ولفرض النظام في مناطق السود، كانت الحكومة تعتمد على شبكة من المخبرين، أشخاص مجهولون يُبلغون عن الأنشطة المريبة. وكان هناك أيضاً البلاك جاك، وهم أشخاص سود يعملون لصالح الشرطة. كان جار جدتي أحدهم، وكانت جدّتي تحرص على ألا يرانا عندما تهرّبني إلى داخل البيت وخارجه.

تحكي لي جدّتي قصّة عندما كنت في الثالثة من عمري. كنت أشعر بملل شديد لأنني حبيس في البيت، فحفرت حفرة تحت بوّابة البيت وانسللت منها وهربت. أصيب الجميع بالفزع وخرجوا يبحثون عني. لم أكن أعرف أنني كنت أعرّض الجميع إلى الخطر. فقد كان من الممكن أن تُرحّل الأسرة كلها، وكان من الممكن أن يُقبض على جدّتي وأن تُسجن أمّي، ويأخذوني إلى بيت لرعاية الأطفال الملوّنين.

بقيت حبيساً داخل البيت، ما عدا المرات القليلة التي كنا نخرج فيها لنتمشّى في الحديقة. كانت جميع شذرات ذكرياتي في طفولتي تدور داخل البيت، إما أنا وأمّي في شقّتها الصغيرة، وإما

أنا وحدي في بيت جدّتي. لم يكن عندي أصدقاء، ولم أعرف أطفالاً آخرين غير ابنيْ خالتي. كنت طفلاً وحيداً، وكان هذا شيئاً جيداً. فقد كنت أمضي وقتاً في قراءة كتب واللعب باللعبة التي لديّ. كنت أختلق عوالم خيالية، أعيش في داخل رأسي، ولا أزال أعيش حتى الآن في داخل رأسي. إذ يمكنني حتى اليوم أن أبقى وحدي لساعات طويلة وأشعر بسعادة كبيرة. ويتعين عليّ أحياناً أن أتذكّر أن أكون مع الناس.

بالطبع لم أكن الطفل الوحيد الذي ولد لأبوين أحدهما أسود والآخر أبيض في فترة نظام التمييز العنصري. فعندما أسافر اليوم حول العالم، ألتقي بأشخاص مختلطين من جنوب أفريقيا. وغالباً ما تكون قصصنا متشابهة، وغالباً ما نكون في أعمار متقاربة. التقى آباؤهم في إحدى الحفلات السرية تلك التي كانت تقام في هيلبرو أو في كيب تاون، وكانوا يقيمون في شقق غير قانونية. لكن الفرق بيننا هو أنهم كلّهم غادروا البلد.، هرّبهم الوالد الأبيض من ليسوتو أو من بوتسوانا، وعاشوا في المنفى، في إنكلترا أو في ألمانيا أو في سويسرا، لأن وجود أسرة مختلطة في ظل نظام التمييز العنصري كان شيئاً لا يطاق.

عندما انتُخب مانديلا أصبح باستطاعتنا أن نعيش أخيراً بحرية. فبدأ المنفيون يعودون إلى البلد. التقيت أحد الأشخاص عندما كنت في السابعة عشرة من عمري. عندما كان يحكي لي قصّته، كنت أقول له: «انتظر، ماذا؟ تقصد أنه كان بإمكاننا أن نغادر؟ هل كان ذلك خياراً؟» تخيّل أن أحداً يلقي بك من الطائرة

فترتطم بالأرض وتتحطم عظامك، ثم تُنقل إلى المستشفى وتشفى ثم تمضي في حياتك وتضع كل ما حدث وراء ظهرك، ثمّ يأتي يوم، يحدّثك أحدهم بأنه توجد مظلات. هكذا كان شعوري. لم أفهم لماذا لم نغادر. عدت إلى البيت وسألت أمّي.

«لماذا؟ لماذا لم نغادر؟ لماذا لم نذهب إلى سويسرا؟»

«لأنني لست سويسرية»، قالت أمّي، العنيدة كدأبها، «هذا بلدي. لماذا عليّ أن أغادر؟»

إن جنوب أفريقيا مزيج من القديم والجديد، العتيق والمعاصر، وما المسيحية في جنوب أفريقيا إلاّ مثال صارخ على ذلك. فقد اعتنقنا دين مستعمرينا، لكن معظم الناس ظلوا متمسكين بعادات أسلافهم القديمة، لعلهم يعودون إليها، من يعرف. ففي جنوب أفريقيا، يسير الإيمان بالثالوث المقدّس إلى جانب الإيمان بالسحر ووضع التعويذات واللعنات على أعدائك.

أنا من بلد يفضل فيه الناس زيارة السنغوما - الشامان، المعالجون التقليديون الذين يُعرفون بالسحرة - على زيارة أطباء يمارسون الطبّ الغربي. أنا من بلد يُعتقل فيه الناس ويُحاكمون بتهمة السحر - في المحكمة - وأنا لا أتحدّث هنا عن القرن الثامن عشر، وإنما أتحدّث عن خمس سنوات خلت. أذكر أن رجلاً حوكم لأنه أصاب شخصاً آخر بصاعقة. هذا يحدث كثيراً في «الوطن» (بانتوستان) حيث لا توجد بنايات عالية، وأشجار باسقة قليلة. لا يوجد شيء يفصل بينك وبين السماء، لذلك تصيب الصواعق الناس دائماً. وعندما يموت أحدهم من الصاعقة، يعرف الجميع أن هذا حدث لأن أحداً سخّر أمّنا الطبيعة لكي تصيبه وتقتله. فإذا كنت على خلاف مع رجل قتلته صاعقة، فإنك ستُتهم بأنك ارتكبت جريمة قتل وستلقي الشرطة القبض عليك.

«السيد نوا، أنت متّهم بجريمة قتل. لقد سخّرت السحر لتقتل ديفيد كيووكا بتوجيه صاعقة عليه».

«ما هو الدليل؟»

«الدليل هو أن ديفيد كيبووكا قتلته صاعقة وحتى لم يهطل مطر».

فتذهب إلى المحكمة التي يترأسها قاض، وتوجّه إليك لائحة اتهام، ويوجد مدّع عام، ويتعين على محاميك أن يثبت أنه لا توجد عندك دافع لقتله، وتتوجه فرق تحقيق إلى موقع الجريمة، ويقدّم دفاعاً قوياً، وإذا حاجج محاميك بأن «السحر غير موجود»، لا، لا، لا. فإنك حتماً ستخسر القضية.

(٣)

تريفور، صَلِّ

نشأتُ في عالم تديره نساء. كان أبي رجلاً محبّاً ومخلصاً، لكنّني لم أكن أستطيع أن أراه إلا عندما وحيثما كانت سياسة التمييز العنصري تسمح بذلك. وكان خالي فيليل، شقيق أمّي الأصغر، يعيش مع جدتي، لكنّه كان يمضي معظم أوقاته في مشاجرات في الحانة المحليّة.

كان جدّي والد أمّي الذكر الوحيد في حياتي، وكان قوّة يحسب لها حساب. كان قد طلّق جدتي ولم يكن يعيش معنا، لكنّه كان يزورنا أحياناً. كان اسمه تيمبرانس وهو يعني الشخص المعتدل المزاج، لكنه كان رجلاً لا يعرف الاعتدال على الإطلاق. فقد كان رجلاً صاخباً يتحدّث بصوت مرتفع، وكانوا يلقبونه في الحيّ باسم «تات شيشا»، التي يمكن ترجمتها إلى «الجدّ المدخّن السريع الغضب»، وينطبق عليه هذا الوصف تماماً. وكان يحبّ النساء، وكانت النساء يحببنه. وكان يرتدي أفضل بدلة عنده ويتمشّى في شوارع سويتو بعد الظهر، يُضحك الجميع ويفتن

النسوة اللاتي يلتقي بهن. كانت له ابتسامة جميلة عريضة تكشف عن أسنانه البيضاء الناصعة -أسنان صناعية- كان يخرجها من فمه عندما يعود إلى البيت. عندما كنت أراه يفعل ذلك، كان يبدو لي كأنه يأكل وجهه.

بعد فترة اكتشفنا أنه مصاب باضطراب ثنائي القطب، لكن قبل ذلك، كنّا نظن أنّه رجل غريب الأطوار. ذات مرة استعار سيارة أمّي ليذهب ويشتري بعض الحليب والخبز من المحل المجاور، لكنه اختفى وعاد في وقت متأخّر من تلك الليلة عندما لم نعد بحاجة إلى الحليب أو إلى الخبز. ثمّ عرفنا أنه رأى شابّة تنتظر عند موقف الباص، فقال لنفسه إن المرأة الجميلة يجب ألا تنتظر باصاً، فعرض عليها أن يوصلها إلى المكان الذي تسكن فيه -يبعد ثلاث ساعات بالسيارة- فغضبت أمّي منه كثيراً لأنه كلّفنا ثمن خزّان كامل من البنزين كان يكفينا لنذهب إلى العمل والمدرسة والعودة منهما لمدة أسبوعين. عندما كان يصمم على عمل شيء، لم يكن بوسع أحد أن يمنعه عن عمل ذلك، وكان متقلب المزاج كثيراً. عندما كان شاباً، كان ملاكماً، وفي أحد الأيام قال إني لم أحترمه وأراد أن يلكمني. كان في الثمانينات من عمره، وكنت أنا في الثانية عشرة. رفع قبضتيه، وطوقني بهما وقال: «هيا يا تريفاه! هيا! ارفع قبضتيك إلى الأعلى! اضربني! سأريك أنني ما زلت رجلاً! هيا!» لكنني لم أستطع أن أضربه لأنني لم أشأ أن أضرب رجلاً مسناً، فضلاً عن أنني لم أكن قد تشاجرت مع أحد ولم أرغب في أن تكون أول مشاجرة لي مع رجل في الثمانين من العمر.

ركضت إلى أمّي التي أوقفته. في اليوم التالي، جلس في كرسيه ولم يتحرّك أو ينبس بكلمة واحدة طوال اليوم.

عاش تيمبرانس مع أسرته الثانية في ميدولاندز، وقلما كنا نزورهم لأن أمّي كانت تخاف أن يدسّوا لنا سماً في الطعام. وكان ذلك أمراً شائعاً. فبما أن العائلة الأولى هي التي سترث، قد تقوم العائلة الثانية بتسميمها. كانت تلك أشبه بلعبة العروش بين الفقراء. كلما ذهبنا إلى ذلك البيت كانت أمّي تحذّرني.

«تريفور، لا تأكل من الطعام».

«لكنني أتضور جوعاً».

«لا. فقد يسمّموننا».

«حسناً، إذاً لماذا لا أصلّي للمسيح لكي يُخرج السمّ من الطعام؟»

«تريفور! Sun'qhela!»

لم أكن أرى جدّي كثيراً، وعندما غادر أصبح البيت تديره نساء فقط.

بالإضافة إلى أمّي، كانت هناك خالتي سيبونغيل التي يوجد لديها هي وزوجها الأول، صبيّان، ابنا خالتي ملانغيسي وبوليلوا. كانت سيبونغيل امرأة قوية، لها صدر كبير، الأمّ الحامية. أما زوجها دينكي، كما يدلّ عليه اسمه، فقد كان ضئيل الجسم، شريراً، لا لم يكن كذلك في حقيقة الأمر، وإنما كان يحاول أن يكون كذلك لكنّه

لم يكن ينجح. كان يحاول أن يكون قوي الشخصية لأنه كان يرى أن الزوج يجب أن يكون مهيمناً، مسيطراً. عندما كنت طفلاً أذكر أنني كنت أسمعهم يقولون: «إذا لم تضرب امرأتك فلن تحبّك». كنت أسمع الرجال يقولون هذه العبارات في الحانات والشوارع.

كان دينكي يبذل كل ما بوسعه كي يكون في صورة الرجل القوي التي لم يكنها على الإطلاق.

كان يصفع خالتي ويضربها، وكانت تتقبل ذلك أحياناً، لكنها سرعان ما تغضب وتبادله الصفعات حتى تضعه في مكانه الصحيح. كان دينكي يسير في الشارع ويقول لنفسه: «أنا أسيطر على امرأتي»، لكنك تريد أن تقول له: «دينكي، أولاً، إنك لا تفعل ذلك، وثانياً، إنك لست بحاجة إلى أن تفعل ذلك لأنها تحبّك». في أحد الأيام، أذكر أن خالتي لم تعد تحتمله. في أحد الأيام كنت ألعب في باحة البيت عندما رأيت دينكي يجري إلى خارج البيت وهو يصرخ ويشتم، وكانت خالتي سيبونغيل تجري وراءه وبيدها وعاء فيه ماء مغلي، تشتمه وتلعنه وتهدّد بأنها ستدلق عليه الماء. في سويتو كنت تسمع دائماً عن رجال يُدلق عليهم ماء مغلي -غالباً ما تكون المرأة هي التي تفعل ذلك، ويكون الرجال محظوظين إذا كان ما يُدلق عليهم ماء، لأن بعض النسوة يدلقن على أزواجهن زيت طهي حار، وكانت المرأة تدلق عليه ماء إذا كانت تريد أن تلقّن زوجها درساً، أما الزيت فيعني أنها تريد إنهاء علاقتها معه.

كانت جدتي فرانسيس نوا المسؤولة عن العائلة كلها. فقد

كانت تدير كلّ شيء في البيت: تعتني بالأطفال وتطهي وتنظف. لم يكن طولها يتجاوز متراً وخمسين سنتمتراً. احدودب ظهرها بعد سنوات طويلة في العمل في المصنع، لكنها لا تزال امرأة صلبة ونشيطة مفعمة بالحيوية حتى الآن. ففي حين كان جدّي ضخم الجثة وصاخباً، كانت جدتي هادئة، تحسب حساب كلّ شيء، ذات عقل وقاد. فإذا كنت تريد أن تعرف أيّ شيء عن تاريخ العائلة، حتى ثلاثينات القرن الماضي، باستطاعتها أن تخبرك في أي يوم حدث هذا، وأين حدث ذاك، ولماذا حدث. إنها تتذكّر كلّ شيء.

كانت أمّ جدّتي تعيش معنا أيضاً. كنّا نسميها كوكو. كانت امرأة طاعنة في السن، في طريقها إلى التسعين، محنية الظهر، ضعيفة الجسد، ولا ترى أبداً. فقد ابيضّت عيناها، وغشاهما إعتام عدسة العين، ولا تستطيع أن تتنقل في البيت من دون أن يسندها أحد. كانت تجلس طوال الوقت في المطبخ بجانب موقد الفحم، متدثرة بثياب عديدة طويلة، تغطي رأسها، وتضع بطانيات على كتفيها. وكان الفحم في الموقد يشتعل دائماً: للطهي وتدفئة البيت وتسخين الماء للاستحمام. كانت تجلس هناك لأنها أدفأ بقعة في البيت. في الصباح يوقظها أحدهم ويجلبها لتجلس في المطبخ، وفي الليل يعيدها أحدهم إلى السرير. كان هذا كلّ ما تفعله طوال اليوم، كلّ يوم: تجلس بجانب الموقد. كانت امرأة رائعة سوى أنها لم تكن ترى ولا تتحرّك.

كانت كوكو وجدّتي تجلسان وتتبادلان أحاديث طويلة. وكطفل في الخامسة من عمره، لم أكن أظن أن كوكو شخص

حقيقـي. وبـما أن جسـدها لم يكـن يتحـرّك، فقـد كان يخيّـل إليّ أنها مجرد دماغ له فم، ولم تكن علاقتنا تتجاوز الأسئلة والأجوبة، كما لـو كنـتَ تكلّـم جهـاز كمبيوتـر.

«صباح الخير، كوكو».

«صباح الخير، تريفور».

«كوكو، هل أكلتِ؟»

«نعم، يا تريفور».

«كوكو، سأخرج».

«حسناً، انتبه لنفسك».

«إلى اللقاء، كوكو».

«مع السلامة، تريفور».

لم تكـن نشـأتي في عـالم تديـره نسـاء بالمصادفـة. فقـد أبعدتنـي سياسـة التمييـز العنصري عـن أبي لأنـه أبيـض، لكـن هـذه السياسـة سـلبت أيضـاً جميـع الأطفـال الذيـن أعرفهـم في حـارة جـدّتي في سـويتو، مـن آبائهـم أيضـاً، لكـن لأسـباب مختلفـة. فقـد كان آباؤهـم يعملـون في منجـم مـا في مـكان بعيـد، لا يسـتطيعون أن يعـودوا إلى بيوتهـم إلا أثنـاء العطـل. وكان آبـاء بعـض هـؤلاء الأطفـال يقبعـون في السـجن، وآباء بعضهـم الآخـر في المنفـى يناضلـون في سـبيل القضيـة. لذلـك كانـت النسـوة هـن الـلاتي يـدرن المجتمـع ويجعلنـه متماسـكاً.

«Wathint'Abafazi Wathint'imbokodo» كانت العبارة التي ترددها الجماهير أثناء الصراع من أجل الحرّية. «عندما تضرب امرأة، فإنك تضرب صخرة». كأمّة، كنّا نعرف قوّة المرأة، أما في البيت فكان عليهن أن يخضعن ويطعن.

في سويتو، كان الدين هو الذي يملأ الفراغ الذي خلّفه الرجال الغائبون. عندما كنت أسأل أمّي هل وجدت صعوبة كبيرة في تربيتي وحدها دون زوج، كانت تقول: «إن كنت أعيش دون رجل فهذا لا يعني أنه لا يوجد عندي زوج. فالرب هو زوجي». كانت الحياة بالنسبة إلى أمّي وخالتي وجدّتي وجميع النسوة الأخريات في حيّنا تتمركز حول الإيمان. فقد كانت اجتماعات الصلاة تنتقل من بيت إلى بيت كل يوم، وكانت هذه الاجتماعات تضم النساء والأطفال فقط. وكانت أمّي تلحّ على خالي فيليل بأن يحضر هذه الاجتماعات، فكان يقول لها: «كان من الممكن أن أحضرها لو كان يوجد رجال آخرون، لكن لا يمكنني أن أكون الرجل الوحيد بين نساء وأطفال»، ثمّ يبدأ الغناء، وكانت تلك إشارة على أنه سيغادر.

في اجتماعات الصلاة تلك، كنّا نحشر أنفسنا في غرفة الجلوس الصغيرة في بيت العائلة المضيفة ونشكّل دائرة، ثمّ ندور حول الدائرة ونحن نصلّي. وتتحدّث النساء المسنّات عمّا جرى لهن في حياتهن. «أنا سعيدة لأنني هنا. فقد أمضيت أسبوعاً جيّداً في العمل، وحصلت على علاوة وأريد أن أشكر يسوع وأمتدحه». وفي بعض الأحيان، كنّ يخرجن أناجيلهن

ويقلن: «لقد كلّمني هذا الإنجيل وربما يستطيع أن يساعدك أنت أيضاً». ثمّ ينشدن قليلاً. وكانت توجد وسادة جلدية يسمونها «الضربة» تربطها براحة يدك كأنها آلة إيقاع، تضرب عليها إحداهن لضبط الإيقاع بينما تستمر الأخريات في الإنشاد

« **Masango vulekani singeneeJerusalema. Masango vulekani singene eJerusalema**».

هكذا كانت تسير الأمور: صلاة، غناء، صلاة، غناء، صلاة، غناء، صلاة، غناء. صلاة، غناء، غناء، غناء، صلاة، صلاة، صلاة. ويستمر ذلك ساعات أحياناً، وتنتهي دائماً بكلمة «آمين» التي تستمر لما لا يقل عن خمس دقائق: آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآمممممممممممممممممممممممممممممممميين .

ثم يودّعن بعضهن ويعدن إلى بيوتهن. وفي الليلة التالية، يذهبن إلى بيت آخر، ويكررن الصلاة نفسها.

في ليالي الثلاثاء، كان اجتماع الصلاة يعقد في بيت جدتي. كنت أتلهف دائماً لهذه الاجتماعات لسببين اثنين، الأول لأنني كنت أصفّق مع إيقاع الغناء، والثاني لأنني كنت أحبّ الصلاة. كانت جدّتي تقول دائماً إنها تحبّ صلاتي لأنها تعتقد أن صلاتي أقوى من صلاتهن لأنني أصلّي باللغة الإنكليزية، لأنهن يعرفن أنّ المسيح أبيض ويتحدّث الإنكليزية، والكتاب المقدس مكتوب بالإنكليزية. صحيح أنه لم يُكتب بالإنكليزية بالأصل، لكن بما

أنـه جـاء إلى جنـوب أفريقيـا بالإنكليزيـة، فإنهـن يعتبرنـه مكتوبـاً بالإنكليزيـة أصـلاً، وكـن يعتقـدن أن صـلاتي أفضـل صـلاة لأن الصلاة باللغـة الإنكليزيـة تُستجاب أسرع مـن الصـلاة بلغـة أخـرى. كيـف نعـرف ذلـك؟ انظـروا إلى البيـض الذيـن لا بـد أنهـم يصلـون للشخص الصحيـح. بالإضافـة إلى مـا قالـه المسيح في إنجيـل متّـى ١٩: ١٤ **«خلّـوا الأطفـال يأتـون إليّ ولا تمنعوهـم لأن الله يُدخـل إلى مملكتـه مـن هـم مثلهـم»**. فـإذا كان طفـل يصـلّي بالإنكليزيـة؟ إلى المسيح الأبيـض؟ فهـذه توليفـة قويـة. وعندمـا كنـت أصـلّي، كانـت جـدتي تقـول: «ستُستجاب هـذه الصـلاة. أنـا متأكـدة مـن ذلـك».

كانـت النسـوة يصلـين دائـماً مـن أجـل شيء: نقـود، مشـكلات، ابـن مُعتقـل، ابنـة مريضـة، زوج سـكير. وعندمـا كان اجتـماع الصـلاة يعقد في بيتنـا، كانـت جـدتي تطلـب منـي أن أصـلّي نيابـة عـن الجميـع لأن صـلاتي مستجابة أكثر. فقـد كانـت تلتفـت إليّ وتقـول: «تريفـور، صـلِّ»، فأصـلّي. كنـت أحـبّ أن أفعـل ذلـك لأن جـدّتي أقنعتنـي أنّ صـلاتي مُستجابة، وكان يغمرني شـعور بأنني أسـاعد هـؤلاء النـاس.

"كان ثمة شيء سـحري حـول سـويتو. فعلى الرغـم مـن أنهـا كانـت سـجناً صمّمـه حكامنـا الطغـاة، فقـد كان يمنحنـا أيضـاً شـعوراً بحريـة الإرادة والاسـتقلال الـذاتي. كنّـا نشـعر أن سـويتو لنـا، فيهـا قـدر مـن الطمـوح لا تجـده في مـكان آخـر. ففـي أمريـكا مثـلاً تحلـم بالخـروج مـن الغيتـو، أمـا في سـويتو، بـما أنـك لا تسـتطيع أن تغـادر الغيتـو، فإنك تحلـم بـأن تُدخـل تغيـيرات عـلى الغيتـو. "

فلم تكن توجد مخازن أو حانات أو مطاعم للمليون شخص الذين يعيشون في سويتو، ولم تكن فيها طرق معبّدة، والكهرباء فيها نادرة، وتكاد شبكة المجاري فيها معدومة. لكن عندما يتجمع مليون شخص في مكان واحد، لا بد أن يجدوا وسيلة لكي تسير الحياة. فازدهر اقتصاد السوق السوداء، وكان جميع السكان يديرون عملاً من نوع ما من بيوتهم: تصليح سيارات، روضة لرعاية الأطفال، بيع إطارات سيارات مجددة.

وكان من بين أكثر الأشياء شيوعاً في سويتو إقامة دكاكين السبازا والشيبين. والسبازا هي محلات بقالة غير رسمية. إذ يقيم أحدهم كشكاً في كراج بيته، يشتري كمية من الخبز والبيض بالجملة ثمّ يبيعها بالمفرق. وكان جميع سكان البلدة يشترون تلك الأشياء بكميات قليلة جداً لأنهم لا يملكون نقوداً. فلم يكن بإمكانك أن تشتري دزينة بيض دفعة واحدة، لكنك تستطيع أن تشتري بيضتين لأن هذا هو كلّ ما تحتاج إليه في ذلك الصباح. يمكنك أن تشتري ربع رغيف خبز وكوباً من السكّر. أما الشيبين فهي حانة غير مرخصة يقيمها أحدهم في فناء بيته الخلفي، ويضع فيها بضع كراس ومظلة ويجعل منها حانة. ويرتاد الرجال الشيبين ويمضون وقتهم في الشرب بعد انتهاء عملهم وأثناء اجتماعات الصلاة وفي معظم فترات النهار أيضاً.

وكان الناس يبنون بيوتهم بنفس الطريقة التي يشترون فيها البيض: قطعة فقطعة. فقد كانت الحكومة تخصص لكلّ أسرة في البلدة قطعة أرض، تبني عليها كوخاً في البداية، هيكلاً مؤقتاً من

الخشب المعاكس والحديد المتموّج، ومع مرور الوقت، توفّر قليلاً من النقود فتبني جداراً من الآجر. جداراً واحداً فقط، ثمّ توفّر مبلغاً آخر فتبني جداراً آخر. وبعد سنوات عدة، تبني جداراً ثالثاً، وفي النهاية جداراً رابعاً. وهكذا يكون قد أصبح عندك غرفة، غرفة واحدة تتسع لجميع أفراد أسرتك، تنامون فيها وتأكلون فيها وتفعلون فيها كلّ شيء. ثمّ توفّر مبلغاً لبناء سقف، ثمّ نوافذ، ثمّ تطلي البيت بالجصّ، ثمّ تتزوج ابنتك وتكوّن أسرة. لكن لا يوجد عندها مكان تذهب إليه، فتنتقل هي وأسرتها الجديدة لتعيش معك، ثم تضيف إلى غرفتك المبنية من الآجر هيكلاً من الحديد المتموّج، وشيئاً فشيئاً، وعلى مدى سنوات، تصبح غرفة كاملة لأسرتها أيضاً، فتصبح عندك غرفتان الآن، ثمّ ثلاث غرف، وربما أربع غرف. وشيئاً فشيئاً، وعلى مدى الأجيال، تواصل سعيك حتى تصل إلى المرحلة التي يصبح فيها عندك بيت.

كانت جدتي تعيش في أورلاندو إيست. وكان عندها بيت مؤلف من غرفتين. لا بيتاً بغرفتيْ نوم، وإنما بيت بغرفتين: غرفة نوم وغرفة جلوس/ مطبخ/ غرفة لكلّ شيء آخر. قد يقول البعض إننا كنّا نعيش فقراء، لكنني أفضّل أن أقول «بيت مفتوح». فقد كنّا نمكث فيه أنا وأمّي خلال العطلة المدرسية. وكانت خالتي وأبناؤها يأتون عندما تتشاجر مع زوجها دنكي. وكنّا ننام جميعاً على الأرض في غرفة واحدة، أنا وأمّي وخالتي وأبناء خالتي وخالي وجدتي وأمّ جدّتي. وكانت توجد لكل فرد بالغ مرتبة ينام عليها، أما الأطفال فكانوا ينامون على مرتبة واحدة كبيرة نمدّها في وسط الغرفة.

كان في الفناء الخلفي كوخان تؤجّرهما جدتي لمهاجرين وعمّال موسميّين، وكانت تنتصب شجرة خوخ صغيرة في بقعة صغيرة على جانب البيت، وعلى الجانب الآخر يوجد كراج للسيارات. لم أكن أفهم لماذا يوجد كراج في بيت جدّتي. فعلى الرغم من أنها لا تملك سيارة، ولا تعرف كيف تقود سيارة، كان في بيتها كراج. وكان يوجد في بيوت جميع جيراننا كراج، وكانت بعض أبواب هذه الكراجات مزخرفة من الحديد الصلب، ولم يكن لدى أحد منهم سيارة أيضاً. ولم يكن هناك مستقبل يعد بأن تحصل معظم هذه العائلات على سيارة طوال حياتها. ومع أنه قد تكون هناك سيارة واحدة لكلّ ألف شخص، فقد كان لدى كل شخص تقريباً كراج للسيارة. "إنّ قصّة سويتو هي قصّة كراج السيارات. إنها مكان يدعو إلى التفاؤل."

لكن الشيء المحزن حقاً هو أنك مهما حاولت أن تجعل بيتك جميلاً، كان هناك شيء لا تستطيع أن تطمح إلى تحسينه أبداً وهو مرحاضك، لأنه لا توجد مياه جارية داخل البيت، وتوجد حنفية عمومية مشتركة واحدة خارج البيت، ومرحاض مشترك واحد بجانب ستّ أو سبع بيوت. كان مرحاضنا عبارة عن كوخ خارجي مبني من الحديد المتموّج يشترك فيه سكان البيوت المجاورة. كان يوجد في داخله بلاطة اسمنتية لها فتحة فوقها مقعد مرحاض بلاستيكي. كان لها غطاء ذات يوم، لكنّه كُسر واختفى منذ زمن. وبما أنه لم يكن باستطاعتنا شراء ورق تواليت، فقد كنّا نعلّق على الجدار بجانب المقعد سلكاً نثبّت عليه صحيفة قديمة

لتنظّف أنفسنا بها. لم تكن الصحيفة مريحة، لكنني كنت على الأقل أطلّع على ما يجري من أحداث وأنا أمارس نشاطي.

كان الذباب هو الشيء الذي لم أكن أتحمّله في المرحاض الخارجي. فقد كان المرحاض عبارة عن حفرة عميقة، وكان الذباب يعجّ فيه طوال الوقت، يأكل فوق الكومة، وكان يتملكني خوف شديد لا عقلاني بأن تطير ذبابة وتتسلل إلى مؤخرتي.

عندما كنت في الخامسة تقريباً، تركتني جدّتي بعد ظهر أحد الأيام في البيت لبضع ساعات وذهبت لأداء بعض الأعمال. كنت ممدّداً على أرضية غرفة النوم، أقرأ. شعرت بالحاجة إلى الذهاب إلى المرحاض، لكن المطر كان يهطل في الخارج. خفت إن خرجت إلى المرحاض، أن أتبلل من ماء المطر ومن الماء الذي سيسيل عليّ من السقف الذي يتسرب منه الماء، ومن الصحيفة المبللة، ومن الذباب الذي سيهاجمني من الأسفل. وفجأة لمعت في رأسي فكرة. لماذا أكلّف نفسي عناء الخروج إلى المرحاض؟ لماذا لا أمدّ أوراق صحيفة على الأرض وأقعي وأفعلها مثل جرو؟ بدت لي فكرة عظيمة. وهذا ما فعلته: أخذت أوراق الصحيفة وفرشتها على أرضية المطبخ، وأنزلت سروالي، وقرفصت وبدأت أفعلها.

عندما تقرفص لكي تتغوّط، لا تكون قد دخلت الحالة بكاملها بعد، لا تكون قد أصبحت شخصاً يتغوّط بعد، وإنما تنتقل من حالة شخص يتهيأ لأن يتغوّط إلى شخص يتغوّط فعلاً. لا تخرج هاتفك الذكي أو صحيفة على الفور. ويستغرق خروج

أول غائط دقيقة ثم تبدأ تشعر بالراحة. عندما تبلغ هذه اللحظة، فإنك تشعر بارتياح شديد.

إن التغوّط تجربة حقيقية. فيها شيء سحري، لا بل إنها تجربة عميقة. أظن أن الله جعل البشر يتغوّطون كما نفعل لأن هذه العملية تعيدنا إلى الأرض وتمنحنا إحساساً بالتواضع. لا يهم من أنت، لأننا نتغوّط كلنا بنفس الطريقة: فالمغنية بيونس تتغوّط، والبابا يتغوّط، وملكة إنكلترا تتغوّط. عندما نتغوّط ننسى كبرياءنا والنعم التي نحن فيها، ننسى كم أننا مشهورون أو كم نحن أغنياء. كلّ ذلك يتلاشى. لا تكون نفسك أبداً إلاّ عندما تتغوّط. عندما تأتيك تلك اللحظة التي تقول فيها هذا أنا، هذا أنا. تستطيع أن تتبوّل دون أي تفكير، لكن الأمر يختلف عندما تتغوّط. هل نظرت في عينيْ طفل رضيع وهو يتغوّط؟ تنتابه لحظة صافية من الوعي الذاتي. أما المرحاض الخارجي فهو يدمّر ذلك لك: المطر، الذباب، لحظتك تُسرق منك، ويجب ألاّ يُسرق أحد من هذه اللحظة. قرفصت وبدأت أتغوّط على أرضيّة المطبخ في ذلك اليوم. يا لها من سعادة. لم يكن هناك ذباب. لم يكن هناك ضغط خارجي. يا له من شيء عظيم حقاً. كنت أستمتع بذلك فعلاً. عرفت أن قراري كان صائباً، وكنت فخوراً جداً بنفسي لأنني اتخذت هذا القرار. بلغت تلك اللحظة التي أصبح بإمكاني أن أسترخي فيها وأكون مع نفسي، ثمّ نظرت بالصدفة حولي في الغرفة فرأيت إلى يساري، وعلى بعد بضعة أقدام فقط، كوكو تجلس بجانب موقد الفحم.

كان ذلك أشبه بمشهد في فيلم «حديقة الديناصورات» عندما يلتفت الأطفال ويرون أمامهم ملكة الديناصورات. عيناها مفتوحتان على وسعيهما، بيضاوان غائمتان. كنت أعرف أنها لا تستطيع أن تراني، لكن أنفها يبدأ ينكمش -كانت تشعر بأنّ شيئاً على غير ما يرام يجري هنا.

خفت. كنت في وسط عملية التغوّط. كلّ ما يمكنك أن تفعله عندما تكون في منتصف عملية التغوّط هو أن تنهي ذلك. كان خياري الوحيد هو أن أنهي ما أفعله بهدوء ببطء بقدر ما أستطيع، وهذا ما قرّرت أن أفعله. ثمّ انطلق صوت ناعم جداً يمكن أن يصدر من طفل صغير يقرفص فوق صحيفة. رفعت كوكو رأسها عندما سمعت الصوت.

«من هناك؟ هالو؟ هالو؟»

تسمّرت في مكاني. حبستُ أنفاسي وانتظرت.

«من هناك؟»

سكتُ، انتظرتُ، ثمّ قالت مرة أخرى.

«هل يوجد أحد هناك؟ تريفور، هل هذا أنت؟» فرانسيس؟ هالو؟ هالو؟»

بدأت تنادي أسماء العائلة كلهم: «نومبويسيلو؟ سيبونغيل؟ ملانغيسي؟ بوليلوا؟ من هناك؟ ماذا يجري هنا؟»

كانت مثل لعبة، كما لو كنت أحاول أن أختبئ وامرأة عمياء

تحاول أن تجدني باستخدام جهاز سونار بالصدى. كلّما صاحت، تسمّرت في مكاني، وساد صمت مطبق. كلّما قالت «من هناك؟ هالو؟» كنت أتوقّف وأنتظر حتى تعود وتستقر في كرسيها، ثمّ أعود وأتحرّك.

أخيراً، بعد ما بدا دهراً، انتهيتُ. نهضتُ، أخذتُ ورقة الصحيفة التي أصدرت خشخشة، ورحت أطويها ببطء. جعّدتها. «من هناك؟» توقّفتُ مرة أخرى وانتظرتُ، ثمّ طويتها أكثر، وذهبت إلى صندوق القمامة، ووضعت خطيئتي في قعرها، وغطّيتها بحذر داخل باقي القمامة. ثمّ مشيت على أطراف أصابعي وعدت إلى الغرفة الأخرى، وكوّرت نفسي فوق المرتبة المفروشة على الأرض وتظاهرت بالنوم. لقد تغوّطت من دون أن أخرج إلى المرحاض، تاركاً كوكو في حيرة تامة من أمرها.

أنجزت المهمّة بنجاح.

بعد ساعة توقّف المطر. عادت جدتي إلى البيت. ما إن دخلت إلى البيت حتى نادتها كوكو.

«فرانسيس! الحمد لله أنت هنا. يوجد شيء في البيت».

«ما هو».

«لا أعرف، لكني سمعته، وكانت هناك رائحة».

بدأت جدّتي تتشمم الهواء حولها، ثم قالت: «يا إلهي! نعم، يمكنني أن أشمّ الرائحة أيضاً».

هل هو جرذ؟ هل مات شيء؟ لا بد أنه لا يزال في البيت».

بدأت تفتش في أرجاء البيت، يعتصرها القلق. وعندما بدأ يخيم الظلام، عادت أمّي من عملها. ما إن وضعت قدمها داخل البيت حتى نادتها جدّتي.

«أوه، نومبويسيلو! نومبويسيلو! يوجد شيء في البيت».

«ما هو؟ ماذا تقصدين؟»

حكت لها كوكو القصّة، الأصوات، الرائحة.

فبدأت أمّي التي تتمتع بحاسّة شمّ قويّة، تبحث في المطبخ، تشمّ. «نعم، يمكنني أن أشمّ الرائحة. وجدتها... وجدتها»، وقادتها حاسة شمها إلى صندوق القمامة. «ها هي». رفعت غطاء صندوق القمامة، وأخرجت الصحيفة المطوية القابعة في الأسفل وفتحتها ووجدت غائطي الصغير. أرته لجدّتي.

«انظري».

«ماذا؟ كيف جاء إلى هنا؟»

كانت كوكو، العمياء، الملتصقة بكرسيها، تتحرّق لمعرفة ما الذي يجري.

صاحت، «ماذا هناك؟ ما الذي يجري؟ هل وجدتها؟»

فقالت أمّي: «إنه خراء. يوجد خراء في قعر صندوق القمامة».

فقالت كوكو: «لكن كيف؟ لم يكن هنا أحد».

«هل أنت متأكدة من أنه لم يكن هنا أحد؟»

«نعم. ناديتُ أسماء الجميع ولم يردّ عليّ أحد».

قالت أمّي لاهثة: «إننا مسحورون! إنه الشيطان».

كان هذا هو الاستنتاج المنطقي الوحيد بالنسبة لأمّي، لأن السحر يعمل بهذه الطريقة. فإذا وضع أحدهم لعنة عليك أو على بيتك، يجب أن تكون هناك دائماً تعويذة أو رقية، خصلة شعر أو رأس قطّة، مظهر جسدي لشيء روحي، برهان على وجود الشيطان.

عندما وجدت أمّي الغائط، فُتحت أبواب جهنم كلّها لأن الأمر في غاية الخطورة.

أصبح عندها الدليل. دخلت إلى غرفة النوم، وقالت: «تريفور! تريفور! استيقظ!»

«ماذا»، قلت متظاهراً بالغباء، «ما الذي يجري؟»

«تعال! يوجد شيطان في البيت».

أمسكتني من يدي وجرّتني خارج السرير. حان وقت العمل. كان أول شيء يجب أن نفعله هو أن نُخرج الغائط ونحرقه. هذا ما يجب أن تفعله لتبطل السحر. الطريقة الوحيدة للقضاء عليه هو أن تحرق الدليل المادي. خرجنا إلى باحة البيت، ووضعت أمّي

الصحيفة التي يقبع فيها الغائط في الكراج، وأشعلت عود ثقاب، وأضرمت فيها النار، ثمّ وقفت أمّي وجدّتي حول الغائط المحترق وراحتا تصليان وتنشدان بعض المدائح.

لم يتوقّف هذا الهرج لأنه عندما يكون هناك شيطان في البيت، يجب على جميع سكان الحيّ أن يجتمعوا لطرده، وإذا لم تشارك في الصلاة لطرد الشيطان، فقد يغادر بيتنا ويذهب إلى بيتك ويصب لعنته عليك. لذلك كنّا بحاجة إلى جميع سكان الحيّ. أطلق الإنذار. أُطلق النداء. فخرجت جدّتي المسنّة الضئيلة الحجم من بوّابة البيت، وراحت تطوف على بيوت الحيّ، تنادي جميع النساء المسنّات ليعقدن اجتماع صلاة طارئاً. «تعالوا! لقد سُحرنا».

وقفتُ هناك، وغائطي يحترق في الكراج، وجدّتي المسكينة تنتقل من بيت إلى بيت بهلع. لم أكن أعرف ماذا يجب أن أفعل. فقد كنت أعرف أنه لا يوجد شيطان، لكن لا يمكنني أن أعترف. يجب أن أستمر في إخفاء الحقيقة؟ يا إلهي، "لم يكن الصدق قط أفضل وسيلة عندما يتعين عليك أن تخفي الحقيقة. فلزمت الصمت. "

بعد لحظات هرعت النسوة العجائز تحمل كلّ واحدة منهن إنجيلها ودخلن من البوّابة وتوجهن إلى الكراج، حوالى اثنتي عشرة امرأة. دخلن كلهن. امتلأ البيت. كان هذا أكبر اجتماع للصلاة في بيتنا حتى الآن -أكبر اجتماع للصلاة يحدث في تاريخ بيتنا. تحلقت النسوة في شكل دائرة وبدأن يصلين ويصلين. كانت الصلاة قوية. كنّ ينشدن ويغمغمن ويتمايلن إلى الوراء والأمام،

يلهجن بألسنة متعددة. بذلت كل ما بوسعي ألا ألفت الانتباه إليّ وأخرج من كلّ ذلك. ثمّ مدّت جدتي يدها إلى الخلف وأمسكتني وشدّتني إلى منتصف الدائرة، ونظرت في عينيّ.

«تريفور، صلِّ».

«نعم»، قالت أمّي، «ساعدنا. صلِّ يا تريفور. صلِّ حتى يقتل الله الشيطان».

كنت مرعوباً. كنت أومن بقوّة الصلاة وتأثيرها. كنت أعرف أنّ صلاتي مستجابة. فإذا صلّيت لكي يقتل الله الشيء الذي ترك ذلك الغائط، وبما أن الشيء الذي ترك ذلك الغائط هو أنا، فإن الله سيقتلني. تجمّدت في مكاني. لم أعرف ماذا يجب أن أفعل، لكن النسوة الأخريات كنّ ينظرن إليّ، ينتظرن أن أبدأ الصلاة، فصلّيت، متلعثماً، باذلاً كلّ ما بوسعي.

«إلهي العزيز، أرجو أن تحمينا، فأنت تعرف من الذي فعل ذلك، أما نحن فلا نعرف ما الذي جرى تماماً وقد يكون ذلك سوء فهم كبير، وأنت تعرف، ربما يجب ألاّ نتسرّع في أن نطلق حكماً على ذلك ونحن لا نعرف القصّة كلها، أقصد، بالطبع أنت تعرف أكثر، أبانا الذي في السماوات، لكن قد يكون هذه المرة شيطاناً، لأن من يستطيع أن يعرف ذلك، ربما كل من كان...»

لم تكن هذه أفضل صلواتي. عندما انتهيت جلست. استمرّت الصلاة. استمرت لفترة من الوقت. يصلّين، يغنين، يصلّين، يغنين، يصلّين، يغنين، يغنين، يغنين. يصلّين، يصلّين، يصلّين.

أخيراً أحسسن جميعهن بأنّ الشيطان قد ذهب وأن الحياة يمكن أن تستمرّ، ورددنا كلنا «آمين» الكبيرة، ثم ودعن بعضهن وعدن إلى بيوتهن.

في تلك الليلة شعرت بالحزن. وقبل أن أنام، صلّيت بصمت، «إلهي، أنا آسف جداً على كلّ ما حدث. أعرف أنه ليس شيئاً جيداً» لأنني كنت أعرف أن الله يستجيب لصلواتك. الرب مثل أبيك. فهو الرجل الذي يساعدك، الرجل الذي يرعاك. فعندما تصلّي يتوقف ويستمع إليك، وقد جعلته يستمع إلى صلاة نساء عجائز لساعتين مع أنني أعرف بكلّ الألم والمعاناة في العالم بأن لديه أعمالاً أهمّ يجب أن يقوم بها أكثر من الشيء الذي فعلته.

عندما بدأت أكبر كانوا يبثون مسلسلات أمريكية على قنواتنا التلفزيونية: «الدكتور دوغي هاوسر» و«وجريمة القتل التي كتبتها» و«الإنقاذ ٩١١ مع وليام شاتنير». كان معظم هذه المسلسلات والبرامج مدبلج إلى اللغات الأفريقية. فقد كان مسلسل «ألف» مدبلجاً إلى اللغة الأفريكانية، ومسلسل «ترانفورمرز» إلى اللغة السوثية. وإذا أردت أن تسمع هذه البرامج باللغة الإنكليزية، كان بوسعك أن تسمع التسجيل الصوتي الأمريكي الأصلي من المذياع، فقد كان بإمكانك أن تخفض صوت التلفزيون وتستمع إليه من المذياع. عندما بدأت أشاهد هذه البرامج والمسلسلات، أصبحت أدرك أنه عندما يتكلّم السود على الشاشة باللغات الأفريقية، كنت أشعر أنهم مألوفون لي أكثر لأنه كان يبدو لي من أصواتهم بأنهم يجب أن يكونوا هكذا. وعندما كنت أستمع إليهم في البث المتزامن على الإذاعة، كانوا يتكلمون كلهم بلهجة الأمريكيين السود. تغيّر مفهومي عنهم، ولم يعودوا يبدون مألوفين بالنسبة لي. أصبحت أشعر بأنهم أجانب.

إن اللغة تحمل هوية وثقافة، أو على الأقل مفهوم ذلك. فاللغة المشتركة تقول: «إننا ذاتنا»، أما حاجز اللغة فيقول: «إننا مختلفون». لقد أدرك مهندسو التمييز العنصري ذلك، وكان جزء من جهودهم الرامية إلى تقسيم السود إلى فئات التأكد من أننا

منفصلون، لا جسدياً فحسب، وإنما لغوياً أيضاً. فلم يكن الأطفال في مدارس البانتو يتعلمون إلا بلغتهم الأصلية: يُعلّم أطفال الزولو بلغة الزولو، ويُعلّم الأطفال التسوانيون اللغة التسوانية. وهكذا وقعنا في الشرك الذي نصبته لنا الحكومة، وأصبحنا نحارب بعضنا لأننا كنا نعتقد أننا مختلفون.

إنّ الشيء العظيم المتعلق باللغة هو أنك تستطيع أن تستخدمها بسهولة لفعل العكس: أن تقنع الناس بأنهم هم أنفسهم. وتعلّمنا العنصرية أنّنا مختلفون بسبب لون بشرتنا. لكن بما أن العنصرية غبية، فإنها تُخدع بسهولة. فإذا كنت عنصرياً وصادفت شخصاً لا يشبهك، فإن عدم قدرته على أن يتحدّث مثلك يعزّز مفاهيمك السابقة عن العنصرية: «بما أنه مختلف، فلا بد أنه أدنى مني ذكاء». وإذا استطاع عالم عبور الحدود من المكسيك وجاء ليعيش في أمريكا، وإذا لم يكن يتحدث بلغة إنكليزية تامة، يقول الناس: «هيه، أنا لا أثق بهذا الرجل».

«لكنّه عالم».

«ربما كان عالماً بالعلوم المكسيكية، أما أنا فلا أثق به».

أما إذا كان الشخص الذي لا يشبهك يتحدّث مثلك، فإن عقلك يتشوش ويرتبك لأنه لا يوجد في برنامجك العنصري شيء حول هذه التعليمات. ويقول لك عقلك: «انتظر، انتظر. يقول قانون التمييز العنصري إنه إذا لم يكن يشبهني فهو ليس مثلي، أما

قانون اللغة فيقول: «إذا كان يتكلّم مثلي فهو مثلي؟ ثمة شيء خطأ هنا، لا أستطيع أن أفسّره».

(٤)

الحرباء

في عصر أحد الأيام، كنت ألعب مع ابنيْ خالتي. كنت ألعب دور الطبيب وهما المريضان. كنت أفحص أذن ابن خالتي بوليلوا بعود ثقاب فثقبت طبلة أذنه دون أن أقصد ذلك. فتُحت أبواب جهنم. فجاءت جدتي تركض من المطبخ وتقول: «كوينزيكانتوني؟» (ما الذي يجري؟). كان الدم يسيل من رأس ابن خالتي. بكينا جميعاً. مع أن جدتي عالجت أذن بوليلوا وأوقفت النزيف، ظللنا نبكي لأنه كان من الواضح أننا فعلنا شيئاً لم يكن علينا أن نفعله، وكنا نعرف أننا سنُعاقب على ذلك. عندما انتهت جدتي من معالجة أذن بوليلوا، أخذت حزاماً وضربته ضرباً مبرحاً، ثمّ انهالت بالضرب على ملانغيسي أيضاً، لكنها لم تضربني. عندما عادت أمّي من عملها في ذلك المساء، رأت الضماد حول أذن ابن خالتي ورأت جدّتي تبكي وهي تجلس إلى طاولة المطبخ.

«ما الذي يجري هنا؟» سألتها أمّي.

فقالت جدّتي: «نومبويسيلو. إن تريفور صبي شقي جداً. إنه أكثر طفل شقي رأيته في حياتي».

«إذاً كان عليك أن تضربيه».

«لا أستطيع أن أضربه».

«لماذا؟»

فقالت: «لأنني لا أستطيع أن أضرب طفلاً أبيض»، وأضافت، «أعرف كيف أضرب طفلاً أسود. لأنك عندما تضربين طفلاً أسود فإنه يظلّ أسود، أما إذا ضربت تريفور فإنه يزرقّ ويخضرّ ويصفرّ ويحمرّ. لم أر ألواناً كهذه في حياتي. أخاف أن أكسره. لا أريد أن أقتل شخصاً أبيض. أخاف كثيراً، لذلك لن أضربه». وبالفعل لم تلمسني طوال حياتها.

كانت جدّتي تعاملني كما لو كنت أبيض، وكان جدّي يعاملني هكذا أيضاً، لا بل أكثر من ذلك، فقد كان يخاطبني بعبارة «ماستاه» وكان يصرّ على أن يوصلني بالسيارة كما لو كان سائقي الخاص. «يجب أن يجلس ماستاه دائماً في المقعد الخلفي». ولم أعارضه قط. ماذا كنتُ سأقول؟ أظن أنك مخطئ في مفهومك للعرق يا جدّي. لا. فقد كنت في الخامسة من عمري، وكنت أجلس في المقعد الخلفي.

11

إذا كنت «أبيض» في عائلة سوداء فإنك تتمتع بمزايا كثيرة، ولم يكن بوسعي معارضة ذلك، بل كنت أستمتع بهذا الوضع كثيراً. كان أفراد عائلتي يفعلون ما يفعله نظام القضاء الأمريكي:

فقد كنت أحظى بمعاملة أكثر ليناً من المعاملة التي يحصل عليها الأطفال السود. فعندما كان أبنا خالتي يُعاقبان على سوء سلوك بدر منهما كان يُوجّه إليّ تحذير فقط وأُعفى من العقوبة، مع أنني كنت شقياً أكثر منهما بكثير. فإذا كُسر شيء في البيت أو إذا سرق أحدهم قطع بسكويت من جدّتي، أكون أنا من فعل ذلك. كنت صبياً مثيراً للمشكلات دائماً.

كانت أمّي الشخص الوحيد الذي أخاف منه. فقد كانت تؤمن بمقولة «إذا لم تستخدم العصا فإنك تُفسد الطفل». لكن الجميع كانوا يقولون: «لا، إنه مختلف»، ومنحوني بذلك رخصة لأن أفعل أي شيء أريد. وبالطريقة التي نشأت بها، أدركت كم يشعر البيض بالراحة في ظل نظام يمنحهم جميع الامتيازات. كنت أعرف أن ابنيْ خالتي كانا يعاقبان على أشياء أرتكبها أنا، لكنّي لم أكن مهتماً بتغيير رؤية جدّتي للأشياء، لأن ذلك يعني أنني سأُضرب أنا أيضاً. لماذا كنت كذلك؟ هل كنت سأشعر بأنني في حال أفضل إذا ضُربت. كان عندي اختيار. كان بإمكاني أن أدافع عن العدالة العرقية في بيتنا، أو أن أستمتع بقطع بسكويت جدّتي. فاخترت البسكويت.

في ذلك الحين لم يخطر ببالي أن للمعاملة الخاصّة التي أحظى بها علاقة بلوني، وإنما كنت أظن أن لها علاقة بتريفور نفسه. فلم يكن «تريفور لا يُضرب لأن تريفور أبيض»، وإنما كان «تريفور لا يُضرب لأن تريفور هو تريفور». لأن تريفور لا يستطيع أن يخرج من البيت. لأن تريفور لا يستطيع أن يسير من دون أن يرافقه أحد.

كان ذلك لأنني أنا. هذا هو السبب، ولم تكن لديّ أسباب أخرى. فلم يكن هناك أطفال مختلطون آخرون من حولي حتى أقول: «أوه، هذا يحدث لنا لأننا مختلطون».

كان يعيش في سويتو زهاء مليون شخص. تسعة وتسعون فاصلة تسعة في المئة منهم من السود -ثمّ أنا. كنت معروفاً في حيّنا فقط بسبب لون بشرتي. كنت فريداً من نوعي وكانوا يستخدمونني كنقطة علامة عندما يدلّ أحدهم على بيت آخر. «البيت الموجود في شارع ماكليما، عند الزاوية سترى صبياً ذا بشرة فاتحة. انعطف إلى اليمين من هناك».

عندما كان الأطفال يرونني في الشارع كانوا يصيحون، «إندودا يوم-لونغو» أي «الرجل الأبيض»، ويجري بعضهم. وكان بعضهم الآخر ينادون والديهم بأن يأتوا وينظروا إليّ، وكان آخرون يركضون نحوي ويحاولون أن يلمسوني ليعرفوا إن كنت حقيقياً أم لا. كانوا يحدثون جلبة حقيقية. ما لم أفهمه في ذلك الحين أن الصبية الآخرين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الشخص الأبيض لأن هؤلاء الأطفال السود لم يغادروا البلدة قط، ولم تكن توجد سوى أجهزة تلفزيون قليلة جداً لدى قلة من الناس. كانوا يشاهدون رجال الشرطة البيض، لكنهم لم يتعاملوا قط مع شخص أبيض وجهاً لوجه.

عندما كنت أذهب لحضور جنازة كان الناس يرفعون عيونهم إليّ ويتوقفون عن البكاء ويتهامسون، ثمّ يلوّحون لي ويقولون:

«أو» كما لو أن قدومي صدمهم أكثر مما صدمهم موت أحد أحبائهم. ويخيّل إليّ أنهم كانوا يشعرون أن المتوفى أصبح أكثر أهميّة لأن شخصاً أبيض جاء لتعزيتهم.

بعد انتهاء الجنازة، يذهب جميع المعزّين إلى بيت أسرة المتوفى لتناول الطعام. يأتي حوالي مئة شخص، وعليك أن تقدّم لهم الطعام. تجلب عادة بقرة وتذبحها ويأتي جميع جيرانك لمساعدتك في الطهي. ويتناول الجيران والأصدقاء الطعام خارج البيت، في فناء البيت وفي الشارع، أما أفراد الأسرة فيتناولون طعامهم داخل البيت. في جميع الجنازات التي حضرتها، كنت أتناول الطعام داخل البيت. وسواء أكنّا نعرف المتوفى أم لا، كانت الأسرة تدعوني إلى الداخل، ويقولون:

«Awunakuvumela umntanawomlungu ame ngaphandle. Yiza naye apha ngaphakathi».

«لا يمكنكم أن تتركوا الصبي الأبيض يقف خارج البيت. دعوه يدخل».

منذ طفولتي كنت أدرك أنّ الناس ينتمون إلى ألوان مختلفة، لكني كنت أظن أن الأبيض والأسود والبني هي مجرد أنواع مثل أنواع الشوكولاتة. فقد كان أبي شوكولاتة بيضاء، وأمّي شوكولاتة سوداء، وأنا شوكولاتة بالحليب. لكنّنا كنّا جميعاً شوكولاتة. لم أكن أعرف أن أيّاً منها يرتبط بالعرق لأنني لم أكن أعرف ما هو العرق. فلم تشر أمّي قط إلى أن أبي أبيض أو أنني مختلط، فعندما

كان الأولاد الآخرون في سويتو يدعونني «أبيض» مع أنني كنت أسمر بعض الشيء، كنت أظن أنهم يخلطون بين الألوان، وأنهم لا يعرفونها جيداً. «آه، نعم، يا صديقي. لقد خلطت بين الماء والفيروز. يمكنني أن أرى كيف ارتكبت هذا الخطأ، وأنت لست أول من يفعل ذلك».

لكني سرعان ما أدركت أن أسرع وسيلة لرأب فجوة العرق تكمن في اللغة. كانت سويتو بوتقة تجمع عائلات من مختلف العشائر والمناطق، وكان معظم الأطفال في المناطق التي يعيش فيها السود يتكلمون لغتهم المحلية فقط، أما أنا فقد تعلّمت عدة لغات لأنني نشأت في بيت لم يكن فيه خيار إلا أن أتعلّمها. وكانت أمّي تحرص على أن تكون الإنكليزية اللغة الأولى التي أتكلّمها. فإذا كنت أسود في جنوب أفريقيا، فإن التحدّث بالإنكليزية يمنحك فرصاً جيدة، لأن الإنكليزية هي لغة المال. وفهم الإنكليزية يعادل الذكاء. فإذا كنت تبحث عن عمل، فإن اللغة الإنكليزية هي التي تجعلك تحصل على عمل وإلا فإنك تبقى عاطلاً عن العمل. وإذا كنت في محكمة، فإن الإنكليزية هي التي تجعلك تدفع غرامة أو تدخل السجن.

بعد اللغة الإنكليزية كنّا نتكلم لغة الإكسهوزا في البيت. وعندما تكون أمّي غاضبة فإنها تلجأ إلى لغتها الأصلية، وبما أنني كنت طفلاً شقياً، فقد كنت أتقن التهديدات بالإكسهوزا. وكانت أولى العبارات التي تعلمتها كي آمن جانبها عبارات مثل « Ndiza kubetha entloko»، «سأحطم رأسك» أو

«Sidenge ndini somntwana» «أيها الولد الغبي». إنها لغة مشحونة بالعواطف والانفعالات. بالإضافة إلى ذلك، فقد تعلمت أمّي لغات مختلفة من هنا وهناك. فقد تعلّمت الزولو لأنها تشبه الإكسهوزا، وتعلمت الألمانية من أبي، وتتكلّم الأفريكانية لأنه من المفيد أن تجيد لغة مضطهديك، وتعلمت لغة السوتو من الشارع. وخلال حياتي مع أمّي، رأيت كيف أنها تستخدم اللغة لاجتياز الحدود، ومعالجة الأمور، والإبحار في العالم. ذات يوم كنا في أحد المحلات، وكان صاحب المحل واقفاً أمامنا، ثم التفت إلى مساعده وقال له بالأفريكانية: «Volg daai swartes, netnou steel hulle iets» «اتبع هذين الأسودين فقد يسرقان شيئاً».

فاستدارت أمّي إليه وقالت له بلغة أفريكانية طليقة جميلة:

« Hoekom volg jy nie daai swartes sodat jy hulle kan help kry waarna hulle soek nie?»

«لماذا لا تتبع هذين الأسودين لتساعدهما على إيجاد ما يبحثان عنه؟»

فقال معتذراً بالأفريكانية: «Ag, jammer» ثمّ -الشيء المضحك في الأمر أنه لم يعتذر لأنه عنصري، وإنما اعتذر لأنه وجّه تمييزه العنصري إلينا نحن فقط، وقال: «أنا آسف جداً. ظننت أنكما مثل السود الآخرين. تعرفين كم يحبّون أن يسرقوا».

تعلّمت أن أستخدم اللغة كما كانت تفعل أمّي. فأنا أحدّثك بلسانك. وكان الناس يرمقونني بنظرات مليئة بالشكّ والريبة

عندما أسير في الشارع. وعندما كانوا يسألونني، «من أين أنت؟» كنت أجيبهم باللغة التي يخاطبونني بها، مستخدماً نفس اللهجة التي يستخدمونها. تمرّ لحظات قصيرة من الارتباك، وسرعان ما تختفي نظرة الشك تلك ويقولون: «حسناً. ظننا أنك غريب. إذاً نحن على ما يرام».

أصبحت اللغة أداة خدمتني طوال حياتي. ففي أحد الأيام عندما كنت شاباً، كنت أتمشّى في الشارع، وسار خلفي شابان من الزولو، ثم اقتربا مني كثيراً وسمعتهما يتحدثان عن كيف يمكنهما سرقتي.

«Asibambe le autie yom- lungu. Phuma ngapha mina ngizoqhamuka ngemuva kwakhe.».

«لنسرق هذا الشاب الأبيض. أنت تذهب إلى يساره، وسآتي أنا من ورائه».

لم أعرف ماذا أفعل. ولم يكن بإمكاني أن أركض، فاستدرت نحوهما بسرعة وقلت لهما:

« Kodwa bafwethu yingani singavele sibambe umuntu inkunzi? Asen- zeni. Mina ngikulindele»،

«هيه أيها الشباب، لماذا لا نسرق أحداً معاً؟ أنا مستعدّ للقيام بذلك. هيا بنا نفعل ذلك». فصُدما لوهلة، ثمّ ضحكا.

«نحن آسفون. ظننا أنّك شيء آخر. لم نكن نحاول أن نأخذ

شيئاً منك. كنّا نحاول أن نسرق البيض. طاب يومك يا رجل». كانا مستعدين ليستخدما العنف معي، حتى شعرا بأنّنا ننتمي كلنا إلى نفس القبيلة، فسارت الأمر على ما يرام. هذه الحادثة وحوادث أخرى أصغر جرت في حياتي، جعلتني أدرك أنّ اللغة، أكثر من اللون، تحدّد من أنت تجاه الآخرين.

« هكذا أصبحت حرباء. لم أكن أغيّر لوني، لكن كان باستطاعتي أن أغيّر مفهومك عن لوني. فإذا تحدّثتَ معي بالزولو، أجبتك بالزولو، وإذا سألتني بالتسوانا، أجبتك بالتسوانا. قد لا أشبهك، لكني إذا تكلّمت مثلك، فإني أصبح أنت. »

عندما كان نظام التمييز العنصري على وشك الانتهاء، بدأت المدارس الخاصّة المتقدّمة في جنوب أفريقيا تقبل الطلاب من جميع الألوان. وكانت الشركة التي تعمل فيها أمّي تقدم منحاً دراسية ومالية للعائلات الفقيرة، فاستطاعت أمّي أن تسجلّني في مدرسة ماريفال كولديج، وهي مدرسة كاثوليكية خاصّة باهظة التكاليف. وكانت الراهبات يعلّمن في المدرسة، وكان القُدّاس يقام كلّ يوم جمعة. أمضيت فيها فترة دراستي كلها: فقد بدأت فيها من الروضة عندما كنت في الثالثة من عمري، ثمّ المدرسة الابتدائية عندما كنت في الخامسة.

كان صفّي يضم تلاميذ من جميع الأنواع والألوان: تلاميذ سود، وتلاميذ بيض، وتلاميذ هنود، وتلاميذ ملونون. وكان معظم التلاميذ البيض أغنياء، ولم يكن جميع الأطفال الملونين

هكذا. لكن المنح الدراسية هي التي جعلتنا نجلس جميعاً على نفس المقعد، وكنا نرتدي كلنا نفس السترات الكستنائية اللون، ونفس البناطيل والتنانير الرمادية. وكنا ندرس الكتب نفسها، ويعلّمنا المعلمون أنفسهم. ولم يعد هناك فصل عرقي، وخُلطت كل فئة عرقية مع الأخرى.

وظل الأطفال يُستفزّون ويُتنمّر عليهم، لكن ذلك كان أمراً عادياً بين الأطفال: سواء أكان الطفل بديناً أم نحيفاً، طويلاً أم قصيراً، ذكياً أم غبياً. لا أذكر أن أحداً عُيّر بسبب عرقه أو لونه. ولم أتعلّم أن أضع حدوداً على ما يفترض بأنني أحبّه أو لا أحبّه، وإنما كان عندي مجال واسع لأستكشف نفسي. فقد كنت أحبّ البنات البيض، وكنت أحبّ البنات السود. لم يسألني أحد من أنا. كنت تريفور فقط.

كانت تجربة رائعة حقاً، لكن الجانب السلبي فيها أنها عزلتني عن الواقع. كانت مدرسة ماريفال واحة أبعدتني عن الحقيقة. "كانت مكاناً مريحاً جعلني أتجنّب اتخاذ قرار صعب، لكن العالم الحقيقي لم يكن بعيداً، لأن التمييز العنصري كان موجوداً. فقد تعرّض كثيرون للأذى، لكن إذا لم يحدث لك ذلك فهذا لا يعني أنه لا يحدث لآخرين. وفي لحظة ما، يجب أن تختار: أسود أم أبيض. يجب أن تختار جانباً. يمكنك أن تحاول أن تتحاشاه. تستطيع أن تقول: «أوه، أنا لا أتخذ جانباً»، لكن في لحظة ما ستجبرك الحياة على أن تتخذ جانباً."

عند انتهاء الصفّ السادس تركت مدرسة ماريفال وذهبت إلى مدرسة ه. أ. جاك الابتدائية، وهي مدرسة حكومية. كان عليّ أن أجري اختبار كفاءة قبل أن يقبلوني في المدرسة، وبحسب نتائج الاختبار، قالت لي المشرفة: «سنضعك في صفّ التلاميذ الأذكياء، الفئة ألف». ذهبت إلى صفّي في اليوم الأول. كان جميع التلاميذ الثلاثين في صفّي من البيض تقريباً. وكان هناك تلميذ هندي واحد، وربما تلميذ أو تلميذان من السود، بالإضافة إليّ.

ثمّ حان وقت الاستراحة. خرجنا إلى باحة المدرسة، ورأيت التلاميذ السود في كل مكان. كان هناك بحر من السود، كأن شخصاً فتح صنبوراً واندلق منه جميع السود. تساءلت، أين كان كلّ هؤلاء مختبئين؟ فقد ذهب التلاميذ البيض الذين كنت قد التقيت بهم في ذلك الصباح في اتجاه، وذهب الأطفال السود في اتجاه آخر، وبقيت أنا واقفاً في الوسط، مشوّشاً، لا أعرف ماذا أفعل. هل سنلتقي لاحقاً؟ لم أفهم ما الذي يجري.

كنت في الحادية عشرة من عمري آنذاك، وبدا لي أنني أرى بلدي لأول مرة. ففي بلدات السود لا ترى فصلاً عنصرياً، لأن جميع من يعيش هناك هم من السود. أما في عالم البيض، عندما كانت أمّي تأخذني إلى كنيسة البيض، أكون أنا وهي الأسودان الوحيدان هناك، لكن أمّي لم تعزل نفسها عن أي شخص. لم تكن تكترث بذلك، بل كانت تذهب مباشرة وتجلس مع البيض. أما في مدرسة ماريفال فقد كان التلاميذ مختلطين ويمضون الوقت معاً. قبل ذلك اليوم، لم أر قط أشخاصاً موجودين معاً وآخرين

غير موجودين معاً يشغلون نفس المكان ومع ذلك فإنهم يختارون ألا يتواصل أحدهم بالآخر بأيّ شكل من الأشكال. وفي لحظة، أصبح بإمكاني أن أرى، وأن أشعر كيف رُسمت الحدود. كانت مجموعات التلاميذ تتحرّك في أشكال ورسوم ملونة عبر الباحة وعلى الدرج وفي الصفّ. كان شيئاً جنونياً. نظرت إلى التلاميذ البيض الذين التقيت بهم في ذلك الصباح، منذ عشر دقائق، وظننت أنهم يشكلون الغالبية في المدرسة. أما الآن فقد أدركت أنهم ليسوا إلاّ قلّة قليلة بالمقارنة مع التلاميذ الآخرين.

وقفت وحدي هناك مرتبكاً في هذه الأرض المحايدة في وسط الباحة. ولحسن الحظ أن التلميذ الهندي في صفّي، فتى اسمه ذيسان بيلاي هو الذي أنقذني. على الفور لاحظني ذيسان، أحد التلاميذ الهنود القلائل في المدرسة، غريب آخر. فجرى إليّ وعرّفني على نفسه. «مرحباً أيها الزميل الغريب! أنت في صفّي. من أنت؟ ما قصّتك؟» بدأنا نتكلّم وانسجم أحدنا مع الآخر. أخذني تحت جناحه، المراوغ الماكر إلى أوليفر المرتبك.

خلال حديثي معه صادف أنني نطقت بكلمات من لغات أفريقية عدة، فقال ذيسان لنفسه لا بد أن طفلاً ملوّناً يتكلّم لغات السود شيء مثير للدهشة. فأخذني إلى مجموعة من الأطفال السود وقال لهم: قولوا له شيئاً، وستجدون أنه يفهم ما تقولونه». فقال أحدهم شيئاً بالزولو، فأجبته بالزولو. هلّل الجميع. ثم قال تلميذ آخر شيئاً بالإكسهوزا، فرددت عليه بالإكسهوزا، فهلّل الآخرون. وخلال الفترة المتبقية من الاستراحة، عرّفني ذيسان على مجموعة

من التلاميذ السود في الملعب وقال لي: «هيا أرهِم خدعتك. هيا حدثهم بلغتك».

ذُهل التلاميذ السود. فلم يكن من الشائع آنذاك في جنوب أفريقيا أن تجد شخصاً أبيض أو ملوّناً يتكلّم اللغات الأفريقية الأخرى. فقد كان البيض يُعلّمون دائماً في ظلّ سياسة التمييز العنصري أنّ هذه اللغات أدنى مرتبة منهم. وهكذا جعلني التكلّم باللغات الأفريقية محبوباً لدى التلاميذ السود.

سألوني، «كيف صادف أنك تتكلّم لغاتنا؟»

فقلت: «لأنني أسود مثلكم».

«أنت لست أسود».

«لا أنا أسود».

«لا، أنت لست أسود. ألا ترى نفسك؟»

اضطربوا في البداية. فمن لوني ظنّوا أنّني ملوّن، لكن قدرتي على التكلّم بلغاتهم كان يعني أنني أنتمي إلى عشيرتهم. استغرقوا لحظة ليدركوا ذلك، واستغرقت لحظة أنا أيضاً.

التفتُّ إلى أحد التلاميذ وسألته: «لماذا لم أر أحداً منكم في صفّي؟» ثم عرفت أنهم في صفّ الفئة «باء» الذي تبين لي أيضاً أنه صفّ التلاميذ السود. بعد ظهر ذلك اليوم، عدت إلى الصفّ «ألف»، وفي نهاية اليوم أدركت أنه ليس الصفّ الذي يناسبني.

"لقد عرفت فجأة من هم الناس الذين أنتمي إليهم والذين أريد أن أكون معهم." فذهبت إلى مكتب المشرفة.

قلت لها: «أريد أن أنتقل من صفّي. أريد أن أنتقل إلى الصفّ «باء».

ارتبكت المشرفة وقالت: «لا، لا أظن أنك تريد أن تفعل ذلك».

«لم لا؟»

«لأن هؤلاء الأطفال... أنت تعرف».

«لا، لا أعرف. ماذا تقصدين؟»

فقالت: «انظر، أنت طفل ذكي، ولا تريد أن تكون في ذلك الصفّ».

«لكن أليست الدروس نفسها؟ فاللغة الإنكليزية هي اللغة الإنكليزية، والرياضيات هي الرياضيات».

«نعم، لكن ذلك الصفّ هو... هؤلاء التلاميذ سيجعلونك تتخلف في دراستك، ويجب أن تكون في صفّ الأذكياء».

«لكن لا بد أن هناك بعض التلاميذ الأذكياء في الصفّ باء».

«لا، لا يوجد».

«لكن جميع أصدقائي هناك».

«لا أظن أنك تريد أن تصادق هؤلاء التلاميذ».

«نعم، أريد».

ظللنا في أخذ وردّ. وأخيراً وجهت إليّ تحذيراً صارماً، وقالت: «هل تدرك تأثير ذلك على مستقبلك؟ هل تدرك ما الذي تريد أن تتخلّى عنه؟ إن ذلك سيؤثّر على الفرص التي ستتاح لك طوال حياتك».

«سأجازف».

" انتقلتُ إلى الصفّ فئة باء مع التلاميذ السود. فقد قرّرت أن من الأفضل أن أتأخر مع أناس أحبهم على أن أتقدّم مع أناس لا أعرفهم. "

" إن وجودي في مدرسة ه. أ. جاك جعلني أدرك أنني أسود. قبل فترة الاستراحة تلك، لم يكن عليّ أن أختار، لكن عندما كان عليّ أن أختار، اخترت السود. كان العالم يراني ملوّناً، لكنني لم أمض حياتي وأنا أنظر إلى نفسي، وإنما أمضيتها وأنا أنظر إلى الآخرين. كنت أرى نفسي أنني أشبه الناس الذين يعيشون حولي، وكان جميع من حولي من السود. فأبناء خالتي سود، وأمّي سوداء، وجدّتي سوداء. وقد نشأت في بيئة سوداء. ومع أن أبي أبيض، وكنت أذهب إلى مدرسة يوم الأحد مع البيض، وكنت أنسجم مع الصبية البيض، لكنني لم أكن أنتمي إليهم. لم أكن جزءاً من

عشيرتهم. أما التلاميذ السود فقد ضموني إليهم وقبلوني، قالوا: «تعال. إنك واحد منا». مع الصبية السود، لم أكن أحاول دائماً أن أكون، أما مع الصبية البيض، فقد كنت أحاول دائماً أن أفعل ذلك. "

قبل مجيء نظام التمييز العنصري، كان بعض السود في جنوب أفريقيا قد تلقوا تعليماً رسمياً بواسطة البعثات التبشيرية الأوروبية التي يديرها أجانب متحمّسون لجعل السكان المحليين يعتنقون المسيحية وتعلّم الثقافة الغربية. وتعلّم السود في تلك المدارس التبشيرية اللغة الإنكليزية والأدب الأوروبي والطبّ والقانون. وليس من قبيل المصادفة أن جميع كبار الزعماء السود المناهضين للعنصرية، بدءاً من نيلسون مانديلا حتى ستيف بيكو، تعلّموا في مدارس تلك البعثات التبشيرية - الإنسان ذو المعرفة الواسعة هو إنسان حرّ، أو هو على الأقل إنسان يتطلع إلى الحرّية.

لذلك كان تعطيل العقل الأسود الطريقة الوحيدة لإنجاح سياسة التمييز العنصري. فأقامت حكومة نظام التمييز العنصري ما أصبح يُعرف باسم «مدارس بانتو» التي لم تكن تدرّس مواد العلوم أو التاريخ أو التربية الاجتماعية أو الوطنية، وإنما كانت تعلّم المقاييس والزراعة: كيف تعدّ حبات البطاطا، كيف تمهّد طريقاً، وكيف تقطع الحطب وتحرث التربة. وكانت الحكومة تردد: «ليس من المجدي تعليم البانتو التاريخ والعلوم لأنهم بدائيون، ولن يؤدي ذلك إلاّ إلى تضليلهم، وجعلهم يرون المراعي التي لن يُسمح لهم برعايتها». وهذا من مصلحتهم، كانوا محقين. فما الفائدة في أن تعلّم عبداً؟ ما الفائدة في أن تعلّم أحداً اللغة اللاتينية وهدفه الوحيد أن يحفر في الأرض؟

وطُلب من المدارس التبشيرية أن تطبق المنهج الجديد وإلاّ فإنه سيتم إغلاقها. وقد أُغلق معظمها فعلاً، وحُشر الأطفال السود في قاعات دروس مكتظة في مدارس متداعية يدرّس فيها غالباً معلمون لا يكادون يفقهون شيئاً. فعلّموا آباءنا وأجدادنا دروساً فيها بعض الأغاني الصغيرة، كما يُعلَّم أطفال الروضة الأشكال والألوان. وكان جدّي يغنّي تلك الأغاني ويضحك ويقول كم كانت سخيفة: «اثنان ضرب اثنين يساوي أربعة. ثلاثة ضرب اثنين يساوي ستة. لا لا لا لا». إننا نتحدّث هنا عن أشخاص بالغين كانوا يُعلّمون هكذا، يربون أجيالاً.

إن ما حدث للتعليم في جنوب أفريقيا، في المدارس التبشيرية ومدارس البانتو، يتيح مقارنة جيدة لمجموعتي البيض اللتين ظلمتانا: البريطانيون والأفريكان. لكن الفرق بين التمييز العنصري الذي مارسه البريطانيون والتمييز العنصري الذي مارسه الأفريكان يكمن في أن البريطانيين كانوا يقدّمون على الأقل شيئاً يطمح إليه السكان الأصليون، فإذا أصبحوا يتكلّمون لغة إنكليزية صحيحة ويرتدون ثياباً جيدة، فقد يصبحون مثل الإنكليز ويصبحون متمدنين متحضرين وسُيرحب بهم في المجتمع ذات يوم. أما الأفريكان فلم يقدّموا لنا هذا الخيار قط. كانت سياسة التمييز العنصري البريطانية تقول: «إذا تمكن القرد من أن يمشي مثل رجل ويتكلّم مثل رجل، فمن الممكن أن يكون إنساناً»، أما سياسة التمييز العنصري التي اتبعها الأفريكانيون فإنها تقول: «لماذا تعطي القرد كتاباً؟»

(٥)

الفتاة الثانية

كانت أمّي تقول لي: «أردت أن أنجبك لأنني كنت أريد أن يكون عندي شيء أحبّه ويبادلني الحبّ دون قيد أو شرط». كنتُ ثمرة بحثها عن شيء تريد أن تنتمي إليه، لأنها لم تشعر قط بأنها تنتمي إلى أحد أو إلى أيّ مكان. فلم تكن تشعر بالانتماء إلى أمّها، أو إلى أبيها، أو إلى أشقّائها. لقد نشأت دون شيء وكانت تريد أن تحصل على شيء يمكنه أن تنسبه إلى نفسها.

لم يكن زواج جدّي وجدّتي زواجاً سعيداً. كانا قد التقيا وتزوّجا في صوفيا تاون، وبعد زواجهما بسنة واحدة هاجم الجيش البلدة وطردهما منها، واستولت الحكومة على بيتهما وأزالت المنطقة كلّها لبناء ضاحية جديدة جميلة للسكان البيض، أطلق عليها اسم تريومف، أي النصر. ونُقل جدّي وجدّتي مع عشرات آلاف السود الآخرين بالقوة إلى سويتو، وأقاما في حيّ يدعى ميدو لاندز. وبعد فترة قصيرة تطلقا، وانتقلت جدّتي إلى أورلاندو مع أمّي وخالتي وخالي.

كانت أمّي طفلة مشاكسة، فتاة تتشبّه بالصبية، متحدّية وعنيدة، ولم تعرف جدّتي كيف تتعامل معها. وكانتا قد فقدتا الحبّ الذي يجمعهما في الشجار المتواصل بينهما. وكانت أمّي تحبّ أباها كثيراً، تيمبرانس، الذي يتمتع بشخصية آسرة، وبدأت تصحبه في مغامراته الجنونية. كانت ترافقه عندما يذهب إلى الحانات. وكان كلّ همها في الحياة إرضاءه وأن تكون بجانبه. وكانت عشيقاته يطردنها لأنهن لم يكنّ يرغبن في أن يذكّرهن أحد بأنه كان متزوجاً، لكن ذلك كان يزيدها إصراراً على مرافقته.

عندما كانت أمّي في التاسعة من عمرها، قالت لجدّتي إنها لم تعد تريد أن تعيش معها، وإنها تريد أن تعيش مع أبيها، فقالت لها جدّتي: «إذا كانت هذه رغبتك فاذهبي». جاء أبوها وأخذها. صعدت إلى سيارته وهي في غاية السعادة مستعدة للذهاب إلى أي مكان لتعيش معه. لكنه لم يأخذها لتعيش معه في ميدو لاندز، ودون أن يخبرها أرسلها لتعيش مع أخته في ترانسكي، موطن الإكسهوزا، لأنه لم يكن يرغب بها أيضاً. كانت أمّي الابنة الوسطى، وكانت أختها الابنة البكر، وأخوها الابن الوحيد، حامل اسم الأسرة. وبقي كلاهما في سويتو، ورباهما والداهما. أما أمّي لم يرغب بها أحد.

لم تر أمّي أسرتها طوال اثنتي عشرة سنة. فقد عاشت في كوخ مع أربعة عشرة طفلاً - أربعة عشر طفلاً من أربع عشرة أمّاً وأباً مختلفين، جميعهم أزواج وأعمام ذهبوا إلى المدن بحثاً عن عمل،

وكان الأطفال غير المرغوب فيهم، أو الطفل الذي لا يستطيع أحد أن يوفر له الطعام، يعادون إلى الوطن ليعيشوا في مزرعة العمّة.

كان الوطن، موطن البانتو، الموطن الأصلي لقبائل جنوب أفريقيا، يتمتع باستقلال شبه ذاتي حيث يعيش السود «بحرية»، لكن طبعاً هذه أكذوبة كبيرة. فعلى الرغم من أن السود كانوا يشكّلون أكثر من ٨٠ في المئة من سكان جنوب أفريقيا، كانت المنطقة المخصّصة لوطن السود تشكل حوالى ١٣ في المائة من مساحة البلد كله، ولم تكن فيه مياه جارية ولا كهرباء، وكان الناس يعيشون في أكواخ.

كانت المناطق التي يعيش فيها البيض في جنوب أفريقيا أراضي خضراء مروية، أما المناطق التي يقطنها السود فكانت مكتظة بالسكان وأصبحت غير صالحة للزراعة واستُنفدت تربتها وتآكلت. وعلى الرغم من الأجور الضئيلة التي كان يتقاضاها العمال في المدن، كانوا يرسلونها إلى أسرهم الفقيرة التي تعيش على زراعة الكفاف. لذلك لم تقبل العمّة أمّي بدافع الصدقة، وإنما قبلتها لتعمل في المزرعة. «كنتُ واحدة من تلك البقرات»، قالت لي أمّي ذات يوم، «أحد تلك الثيران». فقد كانت تستيقظ مع الأطفال الآخرين في الساعة الرابعة والنصف صباحاً، يحرثون الحقول ويجمعون الحيوانات قبل أن تحرق الشمس التربة وتجعلها صلبة كالإسمنت، ولا يعود بإمكانك أن تقف إلا في الظلّ.

وقد تكون هناك دجاجة واحدة على العشاء لإطعام أربعة

عشر طفلاً. وكان على أمّي أن تتصارع مع الأطفال الأكبر سناً لتحصل على قطعة صغيرة من اللحم أو على رشفة من مرق الدجاج أو حتى على عظمة تمصّ منها النخاع. كان ذلك يحدث إذا كان هناك طعام على العشاء أصلاً. وعندما لا يوجد طعام، كانت أمّي تسرق أحياناً علف الخنازير وطعام الكلاب. فقد كان المزارعون يضعون النفايات في الخارج لتتناولها الحيوانات، وكانت أمّي تقفز إليها. كانت جائعة، ولتتدبر الحيوانات نفسها. وكانت تأكل التراب أحياناً. فقد كانت تذهب إلى النهر، تتناول حفنة من الوحل على ضفّة النهر وتخلطه بالماء لتصنع منه شيئاً رمادياً يشبه الحليب وتشربه حتى تشعر بالشبع.

لكن أمّي كانت محظوظة لوجود مدرسة تبشيرية في قريتها بقيت مفتوحة على الرغم من سياسات الحكومة التعليميّة الصارمة المتعلقة بالبانتو. وعلّمها قسّ أبيض اللغة الإنكليزية. لم يكن لديها طعام أو حذاء أو حتى ملابس داخلية، لكنها تعلّمت الإنكليزية، وأصبح باستطاعتها أن تقرأ وتكتب بها. وعندما كبرت قليلاً لم تعد تعمل في المزرعة ووجدت عملاً في مصنع في بلدة مجاورة. وعملت في خياطة ثياب مدرسية، "وكان الأجر الذي تحصل عليه في نهاية اليوم بالكاد يكفيها لشراء قليل من الطعام. قالت لي إنه كان ألذّ طعام تناولته في حياتها، لأنها كانت تشتريه من النقود التي تكسبها بعرق جبينها، ولم تكن عبئاً على أحد، ولا تدين لأحد بأيّ شيء."

عندما بلغت أمّي الحادية والعشرين من عمرها، مرضت

عنتها ولم يعد بإمكانها البقاء في ترانسكي، فكتبت أمّي إلى جدّتي، وطلبت منها أن ترسل لها ثمن تذكرة قطار، حوالى ثلاثين راندا، كي تتمكن من العودة إلى البيت. وعندما عادت أمّي إلى سويتو، أجرت دورة في السكرتاريا والتعلّم على الآلة الكاتبة أتاحت لها الفرصة لأن تضع قدمها على أول درجة في عالم الوظيفة. عملت وعملت وعملت، لكن العيش تحت سقف جدّتي، لم يمكّنها من توفير أي مبلغ تكسبه. فقد كانت أمّي تجلب إلى البيت نقوداً أكثر من أي شخص آخر من عملها كسكرتيرة، وكانت جدتي تصرّ على أن تضع أمّي كلّ النقود التي تكسبها في البيت. فقد كانت الأسرة بحاجة إلى راديو وإلى فرن وإلى ثلاجة، وكان على أمّي أن تشتري كلّ هذه الأشياء.

تمضي عائلات عديدة من السود معظم وقتها في محاولة إصلاح مشكلات الماضي. هذه هي لعنة أن تكون أسود وفقيراً، وهي لعنة تلاحقك من جيل إلى جيل. كانت أمّي تسميها «ضريبة أن تكون أسود». وبما أن الأجيال السابقة قد نُهبت فإنك تفقد كلّ شيء، فبدلاً من أن تكون حرّاً وتستخدم مهاراتك وتعليمك لتتقدّم، فإنك تعود إلى نقطة الصفر. "وبتقديم كلّ ما تكسبه إلى العائلة في سويتو، لم تعد لدى أمّي حرّية أكثر مما كان لديها عندما كانت في ترانسكي، فهربت من البيت. ركضت إلى محطة القطار وقفزت إلى القطار واختفت في المدينة، وبدأت تنام في دورات المياه العامة، وتعتمد على مساعدة المومسات هناك حتى تمكنت من شقّ طريقها في العالم.

لم تُجلسني أمّي قط وتحكي لي قصّة حياتها كلّها التي أمضتها في ترانسكي، وإنما كانت تذكر لي شذرات صغيرة، تفاصيل عشوائية، قصصاً عن كيف كانت تتفادى أن يغتصبها رجال غرباء في القرية. كانت تحكي لي هذه الأشياء وأقول لها: يا سيدتي، يبدو أنك لا تعرفين ما نوع القصص التي تحكيها لفتى في العاشرة من عمره.

حكت لي أمّي هذه القصص كي لا أعتبر أن ما وصلنا إليه كان سهلاً، لكنها لم تكن تقول ذلك بدافع رثاء الذات. كانت تقول لي: «تعلّم من ماضيك وكن أفضل بسبب ماضيك، لكن لا تبكِ على الماضي أبداً لأن الحياة مليئة بالألم. دع الألم يشحذ همتك، لكن لا تتمسّك به. لا تكن حقوداً». ولم تكن هي كذلك قط. فلم يجعلها الحرمان في أيام طفولتها والخيبات التي واجهتها من والديها، وتشتكي وتتذمر قط.

وكما تركت الماضي يذهب، كانت مصممة على ألا تكرره: على ألا تشبه طفولتي طفولتها. فبدأت باسمي. فالأسماء التي تطلقها عائلات الإكسهوزا على أبنائها لها معنى دائماً، وقد يتحقق هذا المعنى في الحياة. فاسم ابن خالتي ملانغيسي وهو يعني «مصلح»، وأصبح هكذا في حياته. فكلما حدثت لي مشكلة كان يهرع لمساعدتي ويحلّها. كان فتى طيباً، يقوم بأعمال كثيرة، ويساعد في أعمال البيت. وهناك خالي الذي ولد من حمل لم يكن مخطّطاً له، فيليل، وهو يعني «الشخص الذي يغيب ويظهر فجأة»، وهكذا كان، فقد كان كلّ ما يفعله طوال حياته هو أنه يختفي عن الأنظار ثم يظهر فجأة. كان يذهب ليشرب ويعود فجأة بعد أسبوع.

وهناك أمّي، باتريشيا نومبويسيلو نـوا، ويعني «الـذي يعيـد ما أعطيته له»، وهذا ما كانـت تفعلـه دائماً. فهي تعطي وتعطي وتعطي. كانت تفعل ذلك حتّى عندما كانت فتاة صغيرة في سويتو. فعندما كانت تلعب في الشارع كانت تبحث عن أطفال في الثالثة والرابعة من العمر يجرون في الشـارع لا يوجد أحـد يرعاهم طوال اليوم، لأن آباءهم هجروهـم أو أن أمهاتهم يسكرن. فكانـت أمّي التي لم تكن قد تجاوزت السادسة أو السابعة من عمرها، تجمع الأطفال المنبوذين وتشكّل مجموعة من الصبية وتأخذهم إلى الحانات لجمع الزجاجات الفارغة التي يتركها الرجال السكارى الذين فقدوا وعيهم ويبيعونها، ثمّ تأخذ أمّي تلك النقود، وتشتري بها طعاماً وتطعم الأطفال. كانت طفلة تعتني بالأطفال الآخرين.

عندما جاء الوقت لاختيار اسمي، اختارت أمّي اسم تريفور، اسم لا معنى لـه في جنوب أفريقيا، ولم يسبق لأحد في عائلتي أن سُمِّيَ به، ولم يكـن اسماً توراتياً. كان مجرد اسم، لأن أمّي لم تشأ أن يرتبط طفلها بأي مصير. أرادت أن أكون حراً في أن أذهب إلى أيّ مكان، وأفعل أيّ شيء، وأكون أي أحد.

لقد منحتني الأدوات لأفعل ذلك أيضاً. فقد علّمتني اللغة الإنكليزية باعتبارها لغتي الأولى. كانت تقرأ لي باستمرار. وكان الكتاب المقدّس أول كتاب تعلّمت القراءة منه. وكنا نحصل على معظم كتبنا الأخرى من الكنيسة أيضاً. كانت أمّي تجلب إلى البيت صناديق مليئة بالكتب التي يتبرّع بها البيض -كتب مصوّرة، كتب ذات فصول، أيّ كتاب يمكنها أن تضع يدها عليه. ثمّ

اشتركت في برنامج أصبحنا نحصل من خلاله على كتب بالبريد. كانت سلسلة من كتب **«كيف تفعل ذلك»**: كيف تكون صديقاً حميماً. كيف تكون صادقاً. واشترت أيضاً مجموعة من الموسوعات طُبعت منذ خمس عشرة سنة وأصبحت قديمة، لكني كنت أجلس وأنظر إلى الصور فيها.

كانت الكتب هي الأشياء القيّمة التي أملكها. كان عندي رفّ كتب أصفّ فوقه الكتب، وكنت فخوراً جداً بها. كنت أحبّ كتبي وأحافظ عليها. كنت أعيد قراءتها مرات ومرات، ولم أكن أثني الصفحات. وكنت أحتفظ بكلّ كتاب وأعتبره كنزي. وعندما بدأت أكبر قليلاً بدأت أشتري كتبي بنفسي. كنت أحبّ الخيال، وكنت أحبّ أن أعيش في عوالم غير موجودة. أذكر أنه كان هناك كتاب عن فتيان بيض يحلّون ألغازاً أو شيئاً من هذا القبيل. لم يكن عندي وقت أضيعه على قراءة قصص كهذه. أعطني كتب روالد داهل: **«جيمس والخوخ العملاق»**، و**«بي إف جي، تشارلي ومصنع الشكولاتة»**، وقصص هنري شوغار الرائعة. هذا ما كنت أحبّ أن أقرأه.

كنت أجادل أمّي لأقنعها بأن تحضر لي كتب نارنيا التي لم تكن تحبها.

قالت: «هذا الأسد، إنه إله كاذب -معبود زائف! هل تتذكّر ما الذي حدث عندما هبط موسى من الجبل بعد حصوله على الألواح...»

فقلت موضحاً: «نعم يا أمّي، لكن الأسد هو هيئة المسيح. عملياً هو المسيح نفسه. إنها قصّة تفسّر حكاية المسيح».

لكنها لم تشعر بالارتياح لهذا التفسير، فقالت: «لا، لا. لا، إنها أصنام زائفة يا صديقي».

في النهاية، أنهكتها. كان ذلك فوزاً كبيراً.

إذا كان لدى أمّي هدف واحد، فهو أن تحرر عقلي. فقد كانت أمّي تحدّثني كما لو كنت شخصاً بالغاً، وهو شيء لم يكن عادياً. ففي جنوب أفريقيا، يلعب الأطفال مع الأطفال، ويتكلّم البالغون مع البالغين. فالبالغون يشرفون عليك، لكنّهم لا ينزلون إلى مستواك ويتحدّثون معك. لكن أمّي كانت تفعل ذلك طوال الوقت. كانت تعتبرني أفضل صديق لها. كانت تحكي لي دائماً قصصاً، تعطيني دروساً، خصوصاً دروساً من الكتاب المقدّس، وكانت تركّز على سِفر المزامير. كان عليّ أن أقرأ المزامير كلّ يوم. كانت تختبرني وتسألني منه أسئلة. «ماذا تعني هذه الفقرة؟ ماذا يعني بالنسبة لك؟ كيف تطبقّها في حياتك؟» كانت تفعل ذلك في كلّ يوم في حياتي. لقد فعلت أمّي ما لم تفعله المدرسة. علّمتني كيف أفكّر.

***

جاءت نهاية نظام التمييز العنصري بالتدريج. لم يسقط كما سقط جدار برلين في يوم واحد. كانت جدران التمييز العنصري

قد تشققت وانهارت على مدى سنوات عديدة. كانت قد قُدّمت تنازلات هنا وهناك، وأُلغيت بعض القوانين، ولم يُنفذّ بعضها الآخر. خلال الأشهر التي سبقت إطلاق سراح مانديلا، أصبحنا نعيش بحرية أكبر. في ذلك الوقت قرّرت أمّي أن ننتقل إلى مكان آخر. كنت أشعر بأننا أمضينا وقتاً طويلاً ونحن مختبئون في شقّتنا الصغيرة في سويتو. أما الآن فقد أصبح البلد مفتوحاً. إلى أين نذهب؟ كانت أمّي لا تزال تريد أن تخرج من عباءة أسرتها. ولم تكن أمّي تستطيع كذلك أن تمشي معي في سويتو دون أن يشير إليها الناس ويقولون: «انظروا إلى هذه المومس التي تمشي مع طفل من رجل أبيض». في مناطق السود كان الحال هكذا دائماً. وبما أن أمّي لم تكن تريد أن تنتقل إلى منطقة يقطنها السود مرة أخرى، ولم يكن بإمكانها أن تنتقل إلى منطقة يسكنها البيض، فقد قرّرت أن ننتقل إلى منطقة يعيش فيها الملوّنون.

كانت إيدن بارك حيّاً للملوّنين يقع بالقرب من عدة أحياء يقطنها السود في إيست راند. قالت لنفسها: هنا يعيش نصف ملونين ونصف سود مثلنا. نستطيع أن نتخفّى هناك، لكن الأمور لم تسر على ما يرام. فلم نستطع أن نتلاءم فيها على الإطلاق. لكنها كانت فكرتها عندما انتقلنا، وكانت كذلك فرصة لشراء بيت -بيتنا. كانت إيدن بارك إحدى «الضواحي» التي تعيش على حافة الحضارة، وكان تجّار العقارات يقولون: «أيها المساكين. يمكنكم أن تعيشوا حياة لائقة، إنه بيت في مكان غير جيد لكن انظروا، أصبح عندكم فناء». ولسبب ما، كانت تُطلق على الشوارع في إيدن بارك

أسماء سيارات: شارع جاغوار، شارع فرراري، شارع هوندا. لا أعرف إن كان ذلك من قبيل المصادفة، لكنّه كان شيئاً مضحكاً لأن الملونين في جنوب أفريقيا معروفون بحبّهم للسيارات الفارهة. كان ذلك كأنك تعيش في حيّ للبيض وأسماء شوارعه على أسماء أنواع النبيذ الجيد.

تراودني ذكريات بسيطة، شذرات، عندما انتقلنا إلى هناك. أذهب إلى مكان لم أره من قبل قط، أرى أشخاصاً لم أرهم في حياتي. مكان مسطح، لا توجد فيه أشجار كثيرة، يكسوه التراب الطيني الأحمر نفسه والعشب المترب كما كان الحال في سويتو، لكن توجد هنا بيوت ملائمة وطرق معبّدة تجعلك تشعر كأنك في الضواحي. كان بيتنا صغيراً جداً يقع عند منعطف الشارع المقابل لشارع تويوتا. كان بيتاً متواضعاً فيه أغراض كثيرة، لكن عندما كنت أتنقل في أرجائه، كنت أقول لنفسي، يا إلهي، إننا نعيش حقاً. كان شيئاً رائعاً أن تكون لديّ غرفة خاصة بي. لكنني لم أحبّها. فقد كنت أنام طوال حياتي في غرفة مع أمّي أو على الأرض مع ابنَيْ خالتي. لقد تعودت على أن يكون معي أشخاص آخرون بجانبي، لذلك، كنت أنام في سرير أمّي معظم الليالي.

" لم يكن زوج الأمّ قد دخل إلى الصورة بعد، ولا أخ صغير يبكي في الليل. كنت أنا وهي فقط. كان يغمرني ذلك الإحساس بأننا سنشرع أنا وهي في مغامرة كبيرة. كانت تقول لي أشياء من قبيل: «أنا وأنت نواجه العالم». كنت قد أدركت منذ عمر مبكّر أننا لم نكن مجرد أمّ وابن، وإنما كنّا فريقاً. "

عندما انتقلنا إلى إيدن أصبح عندنا سيارة أخيراً، سيارة فولكسفاغن متداعية برتقالية اللون اشترتها أمّي مستعملة بثمن زهيد. من بين خمس مرات كانت تعمل مرة واحدة. لم يكن فيها مكيّف هواء، وإذا أخطأت وشغلّت المكيّف انبعثت منه قطع صغيرة من أوراق الأشجار وملأت السيارة غباراً. وعندما لم تكن تعمل كنّا نستقلّ حافلة الميني باص، أو كنّا أحياناً نوقف سيارة عابرة. وكانت أمّي تطلب أن أختبئ بين الأشجار لأنها تعرف أن الرجال يتوقّفون لامرأة لكنهم لا يتوقّفون لامرأة معها طفل. فكانت تقف على جانب الطريق وتلوّح بيدها فيقف السائق. وعندما تفتح باب السيارة تصفّر لي فأجري إليها وأصعد معها إلى السيارة، فأرى وجوههم تتجهم عندما يدركون أنّه لم تصعد معهم امرأة عازبة جذّابة وإنما امرأة عازبة جذّابة معها طفل بدين.

وعندما كانت السيارة تعمل، كنّا نفتح النوافذ، وتشوينا الحرارة اللاهبة. وطوال حياتي، ظلّ المؤشر على راديو السيارة ثابتاً عند محطة واحدة فقط، تُدعى قناة «إذاعة المنبر». وكما يوحي اسمها فهي لا تبث شيئاً سوى مواعظ وأناشيد دينية، لم يكن يُسمح لي أن أغيّر المحطة. وعندما لا يلتقط الراديو أي استقبال، كانت أمّي تضع كاسيت تنطلق منه مواعظ جيمي سواغارت. (عندما سمعنا أخيراً عن الفضيحة؟ يا إلهي. كان ذلك قاسياً جداً عليها).

مع أنها كانت سيارة حقيرة، فهي لا تزال سيارة. كانت تعني حرّية. فلم نكن من الأشخاص السود الملتصقين بالبلدة، ننتظر

إحدى وسائل النقل العام، وإنما كنّا أشخاصاً سوداً نعيش في العالم. كنّا أناساً سود يمكننا أن نستيقظ ونسأل: «إلى أين سنذهب اليوم؟» وفي الطريق إلى العمل وإلى المدرسة، كان هناك طريق طويل يوصل إلى بلدة هُجرت تماماً، فتسمح لي أمّي عندها أن أقود السيارة على الطريق السريع. كنت في السادسة من عمري. كانت تضعني في حجرها وتدعني أحرك المقود وأشغّل مؤشر الجهات بينما تستخدم هي الدواسات وعصا تغيير السرعة. وبعد عدة أشهر، علّمتني كيف أحرّك عصا تغيير السرعة، لكنها ظلت تضغط على دواسة البنزين. وكنت أجلس في حجرها وأمسك عصا تغيير السرعة، بينما تغيّر هي التروس. وكان هناك جزء من الطريق ينحدر بشدة في أحد الواديان ثمّ يصعد من الجانب الآخر. كنا نزيد السرعة قليلاً، ونضع عصا السرعة في وضعية محايدة ونترك الفرامل، وهوووو، تنزلق السيارة إلى أسفل التلّ ثمّ نصعد من الجانب الآخر. كنّا نطير.

وإذا لم نكن في المدرسة أو في العمل أو في الكنيسة، كنّا نخرج ونستكشف مناطق جديدة. كانت أمّي تقول لي: «لقد اخترتك يا بني. لقد جلبتك إلى هذا العالم، وسأعطيك كلّ ما لم أحصل عليه في حياتي». كانت تصبّ نفسها فيّ. كانت تجد أماكن لنذهب إليها حيث لا نضطر إلى إنفاق نقود. لقد زرنا جميع الحدائق العامة الكبيرة في جوهانسبرغ. كانت أمّي تجلس تحت شجرة وتقرأ في الكتاب المقدّس، وكنت أركض وألعب وألعب وألعب. وعندما نعود من الكنيسة بعد ظهر أيام الأحد، كنا نذهب إلى الريف.

كانت أمّي تبحث عن أماكن فيها مناظر جميلة نجلس ونمضي وقتنا. لم تكن لدينا موسيقي أو سلة طعام أو صحون أو أيّ شيء من هذا القبيل، وإنما سندويتشات من الخبز الأسمر فيها لحم بالوني وزبدة ملفوفة في ورق كالذي يستخدمه الجزّارون. وحتى اليوم، فإن لحم البالوني والخبز الأسمر والزبدة تذكّرني فوراً بتلك الأيام. يمكنك أن تحصل على جميع نجوم العالم، أما لحم بالوني والخبز الأسمر والزبدة فيجعلني في الجنة.

كان الطعام أو الحصول عليه يعتبر دائماً المقياس بأن الأمور في حياتنا جيّدة أو سيّئة. كانت أمّي تقول دائماً: «إن ما أفعله لك يغذّي جسدك، يغذّي روحك، ويغذّي عقلك». وكان هذا تماماً ما تفعله، ولم تكن تنفق نقوداً إلاّ لشراء الطعام والكتب. كان تدبيرها للأمور أشبه بالأسطورة. كانت سيارتنا عبارة عن قطعة من التنك تسير على عجلات، وكنا نعيش في مكان قصي. وكان الأثاث في بيتنا رثاً، أرائك قديمة مهترئة مخلخلة مليئة بالفتحات والثقوب، وكان جهاز التلفزيون في بيتنا صغيراً جداً باللونين الأبيض والأسود فوقه هوائي صغير، وكنا نغيّر القنوات بكماشة صغيرة لأن مفاتيحه لم تكن تعمل. وكان علينا في معظم الأحيان أن نحدّق لنرى ماذا يجري على الشاشة.

كنّا نرتدي دائماً ملابس مستعملة نحصل عليها من المخازن الخيرية أو ملابس يتبرع بها البيض في الكنيسة. وكان التلاميذ الآخرون في المدرسة يرتدون أحذية ذات ماركات معروفة مثل نايكي وأديداس. لم أنتعل أحذية كهذه قط. وطلبت من أمّي ذات

بوم حذاء رياضة أديداس، فعادت إلى البيت ومعها حذاء من ماركة مزورة تدعى أبيداس.

فقلت لها: «ماما، هذا الحذاء ليس أصلياً».

«لا أرى فرقاً بينهما».

«انظري إلى الشعار. عليه أربعة أشرطة بدلاً من ثلاثة».

فقالت: «أنت محظوظ. لديك شريط إضافي».

لم يكن لدينا شيء تقريباً، لكنّنا كنا نذهب إلى الكنيسة دائماً، وكان عندنا كتب دائماً، وكان عندنا طعام دائماً. لكن انتبه، ليس بالضرورة أن يكون طعاماً جيّداً. وكان اللحم ترفاً بالنسبة لنا. وعندما تسوء الأمور كانت أمّي تشتري دجاجة. كانت خبيرة في كسر عظام الدجاجة لتخرج من داخلها كلّ ذرة من النخاع. لم نكن نأكل الدجاجة، وإنما نلتهمها ونزيلها من الوجود. لا بد أن أسرتنا تُعتبر كابوساً بالنسبة لأي عالم آثار لأننا لم نكن نترك وراءنا أي أثر لعظمة. وكنّا نلتهم الدجاجة ولا يتبقى منها شيء سوى الرأس. وكان اللحم الوحيد الذي نتناوله أحياناً هو لحم قديم معبأ منذ مدة طويلة تشتريه من عند الجزّارين يُدعى «نشارة خشب»، وهو عبارة عن غبار اللحم، القطع التي تسقط من قطع اللحم عندما يُعبأ لعرضه في واجهة المحل، قطع الدهن وأيّ شيء يتبقى من اللحم. كانوا يكنسونها من الأرض ويعبئونها في أكياس. كان هذا اللحم يُقدّم للكلاب، لكن أمّي كانت تشتريه لنأكله. كانت تمرّ شهور عديدة لا نأكل فيها إلا هذا النوع من اللحم.

وكان الجزّار يبيع العظام أيضاً. كنا نطلق عليها «حساء العظام» لكنها تسمى في الواقع «عظام الكلاب» لأن الناس كان يشترونها من أجل كلابهم باعتبارها وجبة شهية لهم. وفي الأوقات الصعبة، كنا نلجأ إلى تناول عظام الكلاب التي كانت أمّي تغليها وتعدّ منها حساء، وكنا نمصّ النخاع منها. كان مصّ النخاع من العظام مهارة يتعلمها الفقراء في وقت مبكّر. ولن أنسى في حياتي أول مرة ذهبت فيها إلى مطعم فاخر عندما أصبحت يافعاً وقال لي أحدهم: «يجب أن تجرّب نخاع العظم. إنها لذيذة، إنها شهية». وعندما أحضره النادل، كنت أنا الخبير في «التهام عظام الكلاب»، ولم يكن ذلك يفاجئني.

على الرغم من هذا القدر الضئيل الذي عشنا فيه في البيت، لم أشعر قط بأنني فقير لأن حياتنا كانت غنية بالتجارب والخبرات. فقد كنّا دائماً خارج البيت نفعل شيئاً، نذهب إلى مكان ما. كانت أمّي تأخذني بالسيارة إلى أحياء البيض الراقية. نذهب لنشاهد بيوت الأغنياء، نرى قصورهم الفخمة. ننظر إلى جدرانها، غالباً، لأنها كانت كلّ ما يمكننا أن نراه من الطريق. كنا ننظر إلى جدار يمتد من طرف الشارع إلى الطرف الآخر ونقول مندهشين: «واو، هذا بيت واحد. كلّ هذا تسكنه عائلة واحدة». وكنّا أحياناً نتوقف ونقترب من الجدار، فتحملني على كتفيها كما لو كنت منظاراً صغيراً لعينيها، أنظر إلى الباحات وأصف لها كلّ ما أشاهده. «إنه بيت أبيض كبير! عندهم كلبان! هناك شجرة ليمون! هناك مسبح! وهناك ملعب تنس!»

وكانت أمّي تأخذني إلى أماكن لا يذهب إليها السود قط. فلم تكن تتقيد بالأفكار السخيفة التي تقول إن السود لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك أو يجب ألا يفعلوه. فكانت تأخذني إلى ساحة التزحلق على الجليد لنمارس رياضة التزلّج. وكان في جوهانسبرغ تلك السينما الأسطورية المكشوفة التي تدخل إليها بالسيارة اسمها «توب ستار» تتربع فوق قمّة منجم ضخم خارج المدينة. كانت تأخذني لنشاهد أفلاماً فيها، وكنا نتناول وجبات خفيفة، نثبّت مكبر الصوت على نافذة سيارتنا. وكان المشهد يمتد أمام «توب ستار» بدرجة ٣٦٠ فترى المدينة تحتك والضواحي وسويتو. من تلك البقعة كنت أرى لمسافة أميال عديدة من جميع الاتجاهات. كان يتملكني شعور بأنني أقف فوق قمة العالم.

ربتني أمّي كما لو أنه لم تكن هناك حدود إلى حيث يمكنني أن أذهب أو ما لا أستطيع أن أفعله. عندما أعود بذاكرتي إلى الوراء أدرك أنها ربّتني كما لو كنت طفلاً أبيض -ليس كأبيض من الناحية الثقافية، وإنما بمعنى الاعتقاد بأنّ العالم هو محارتي، وأنني يجب أن أتكلّم للدفاع عن نفسي، وأنّ أفكاري وآرائي وقراراتي مهمة.

تقول للآخرين اتبعوا أحلامكم، لكنك لا تستطيع أن تحلم إلا بما يمكنك أن تتخيّله، ومن أين أنت، ومن الممكن أن تكون مخيلتك محدودة جداً. "عندما نشأنا في سويتو، كان حلمنا ينحصر في أن نحصل على غرفة أخرى في بيتنا، وإذا أمكن أن يكون لدينا كراج للسيارة. ولعلنا نتمكن ذات يوم من وضع بوّابة حديدية

في نهاية الممر، لأن ذلك كان كلّ ما نعرفه. أما الأشياء الأخرى فقد كانت أبعد بكثير عن العالم الذي تستطيع أن تراه. لقد أرتني أمّي ما هو الممكن، وما يدهشني دائماً هو أن أحداً لم يُرها ذلك في حياتها. لم يُرها أحد كيف تفعل ذلك، وإنما كانت تفعل ذلك من تلقاء نفسها. كانت تشقّ طريقها من خلال قوة إرادتها البحتة.

ربما كان الأمر الأكثر إدهاشاً هو أنّ أمّي بدأت مشروعها الصغير الذي هو أنا في وقت لم يكن يعرف فيه أحد أنّ نظام التمييز العنصري سيزول، لأنه لم يكن هناك أي سبب يجعل المرء يعتقد بأنه سيزول. فقد رأى هذا النظام أجيالاً تأتي وتذهب. كنت في السادسة من عمري تقريباً عندما خرج مانديلا من السجن، وكنت في العاشرة عندما حلت الديمقراطية أخيراً، ومع ذلك، فقد كانت تجهزني لأن أعيش حياة الحرّية قبل أن نعرف بأن الحرّية ستأتي بفترة طويلة. كانت الحياة في البلدة صعبة وكان أخذي إلى ملجأ للأيتام الملوّنين الخيار الممكن الآخر، لكنّنا لم نعش هكذا. كنّا نتقدّم إلى الأمام، وكنّا نتحرك بسرعة، وعندما حلّ القانون والأشياء الأخرى التي رافقته كنّا قد قطعنا مسافة طويلة على الطريق، نحلّق على الطريق السريع في سيارة فولكسفاغن متداعية برتقالية اللون، والنوافذ مفتوحة على آخرها وصوت القسّ جيمي سواغارت يمتدح المسيح بأعلى صوته.

كان الناس يعتبرون أمّي مجنونة: الذهاب إلى ساحات التزحلق على الجليد والسينما المكشوفة والضواحي. كانت كلّ هذه الأشياء izinto zabelungu – مخصصة للبيض فقط. فقد قبلت أعداد كبيرة

من السود منطق التفرقة العنصرية وتعلقوا بها. لماذا تعلّمين طفلاً أسود أشياء مخصصة للبيض؟ كان الجيران والأقارب يسألون أمّي بإلحاح، «لماذا تفعلين كلّ ذلك؟ لماذا ترينه العالم مع أنه لن يغادر الغيتو في حياته؟»

فكانت تردّ عليهم، «لأنه حتى لو لم يغادر الغيتو، فإنه سيعرف أنّ الغيتو ليس هو العالم. وإذا كان هذا كلّ ما حققته له، أكون قد أديت واجبي».

بالرغم من كلّ القوة التي كانت تنطوي عليها سياسة التمييز العنصري، كانت تعتريها عيوب قاتلة غير منطقية. العنصرية ليست منطقيّة. انظر إلى هذا: فقد كان الصينيون يصّنفون بأنهم من فئة السود في جنوب أفريقيا. لا أقصد أنهم كانوا يتصرفون كما يتصرف السود، وإنما يظلون صينيين. لكن بخلاف الهنود، لم يكن هناك عدد كاف من الصينيين لتصنيفهم في فئة منفصلة. وعلى الرغم من تعقيدات سياسة التمييز العنصرية ودقّتها، لم تعرف ماذا يجب أن تفعل بشأنهم، فقالت الحكومة: إن أسهل طريقة هي أن نضعهم في فئة السود».

من الغريب أيضاً أن اليابانيين كانوا يُعتبرون من البيض لأنّ حكومة جنوب أفريقيا كانت تريد أن تقيم علاقات جيدة مع اليابان لتستورد منها السيارات الفارهة والأجهزة الإلكترونية المتطورة. فمُنح اليابانيون مكانة فخرية ووضعوهم في فئة البيض بينما ظل الصينيون ينتمون إلى فئة السود. كنت أتخيّل دائماً أنني شرطي في جنوب أفريقيا لا أستطيع أن أميّز بين شخص صيني وآخر ياباني، لكن من واجبي أن أتأكّد بألاّ يفعل الأشخاص من ذوي اللون الخاطئ أشياء خاطئة. فإذا رأيت آسيوياً جالساً على مقعد مخصص للبيض، ماذا أقول؟

«هيه أنت، لا تجلس على هذا المقعد لأنك صيني».

«اعذرني. أنا ياباني».

«أوه، أعتذر يا سيدي. لم أقصد أن أكون عنصرياً. طاب يومك».

(٦)

ثغرات

كانت أمّي تقول لي: «أردت أن أنجبك لأنني كنت أريد أن يكون عندي شيء أحبّه ويحبّني بالمقابل دون قيد أو شرط، لكنني أنجبت أكثر قطعة خراء أنانيّة على وجه الأرض كان كلّ ما يفعله هو أن يبكي ويأكل ويتغوّط ويقول: أنا، أنا، أنا، أنا».

كانت أمّي تظن أنها إذا أنجبت طفلاً فإنه سيكون بمثابة شريك لها، لكن كلّ طفل يولد يكون مركز كونه، لا يستطيع أن يفهم العالم الذي يتجاوز رغباته واحتياجاته، أما أنا فكنت طفلاً مختلفاً. فقد كنت طفلاً شرهاً، أستهلك صناديق مليئة بالكتب وكنت أطلب المزيد والمزيد منها. وكنت آكل مثل خنزير، ومن الطريقة التي كنت أتناول فيها الطعام كان يجب أن أكون بديناً. ففي فترة ما، ظنّوا أنني مصاب بالديدان. فكلما كنت أذهب إلى بيت جدّتي في العطل المدرسية، كانت أمّي توصلني وتأخذ معها كيساً من البندورة (الطماطم) والبصل والبطاطا، وكيساً كبيراً من الدقيق. كان هذا أسلوبها لكي لا يعترض أحد على زيارتي. فقد كنت أحصل دائماً على طبق ثان من الطعام، ولم يكن أحد من

الأطفال الآخرين يحصل على ذلك. كانت جدتي تعطيني الطبق وتقول: «هيا كله كلّه». وإذا لم تكن تريد أن تغسل الصحون، كانت تنادي تريفور. كانوا يسمونني «صندوق زبالة الأسرة». كنت آكل وآكل وآكل.

كنت طفلاً نشيطاً جداً. كنت دائم النشاط والحركة. فإذا لم تكن أمّي تمسك ذراعي بقوة عندما أسير معها على الرصيف، كنت أفلت منها أجري بسرعة نحو السيارات. كنت أحبّ أن يطاردني أحد. كنت أظن أنها لعبة. كنت أجعل النسوة المسنّات اللاتي تكلفهن أمّي برعايتي عندما تذهب إلى عملها يبكين. كانت تعود إلى البيت وتراهن يبكين. كنّ يقلن لها: «سأترك العمل. لا أستطيع أن أفعل ذلك مرة أخرى. ابنك طاغية». وكان ذلك يحدث مع أساتذتي أيضاً، مع المعلمين في مدرسة يوم الأحد. إذا لم تشغلني طوال الوقت، فأنت في ورطة. لم أكن صبياً وقحاً شريراً مع الآخرين. ولم أكن متذمّراً أو مدللاً. لم أكن سيئ السلوك، لكن كانت لديّ طاقة هائلة، ولم أكن أعرف ماذا أريد أن أفعل بها.

كانت أمّي تأخذني إلى الحديقة العامة الكبيرة لأركض وأركض حتى أتخلّص من الطاقة التي تتملكني. كانت تأخذ طبقاً طائراً وترميه، فأركض وراءه وأمسك به وأعيده لها. كانت تفعل ذلك مرات ومرات. كانت ترمي لي أحيانًا كرة تنس. السود لا يلعبون مع كلابهم لعبة «هيا اركض واجلبها». الشخص الأسود لا يرمي شيئاً لكلبه إلاّ إذا كان طعاماً. عندما بدأنا نمضي أوقاتاً في الحدائق مع البيض وكلابهم، أدركت أمّي أنها كانت تدرّبني مثل كلب.

عندما لم تكن طاقتي الزائدة تُحرق تماماً، كانت تنقلب إلى شقاوة وسوء سلوك. كنت أتباهى بأنني أمارس ألعاباً على الآخرين. ففي المدرسة كان المعلمون يستخدمون جهاز عرض صور لقراءة ملاحظاتهم على الجدار. في أحد الأيام، فككت العدسات المكبّرة من أجهزة العرض من جميع الصفوف. وفي مرة أخرى، أفرغت جهاز إطفاء الحريق في بيانو المدرسة لأنهم سيعزفون عليه خلال الاجتماع في اليوم التالي. عندما جلس عازف البيانو وبدأ يعزف النوطة الأولى، بوم، انبثقت كلّ تلك الرغوة من داخل مفاتيح البيانو.

كانت النار والسكاكين أكثر الأشياء التي أحبّها. كنت مفتوناً بها إلى درجة لا تصدق. كانت السكاكين رائعة. كنت أجمعها من محلات الرهن ومن البيوت: سكاكين الكبس، سكاكين الفراشة، سكاكين رامبو، سكاكين التمساح دندي. وكانت النار أعظم شيء بالنسبة لي. كنت مغرماً بالنار خصوصاً الألعاب النارية. كنا نحتفل بعيد غاي فاوكس في تشرين الثاني (نوفمبر)، وكانت أمّي تشتري كلّ سنة طنّاً من الألعاب النارية، كأنها ترسانة صغيرة. ثم أدركتُ أنني أستطيع أن أخرج البارود من تلك الألعاب النارية وأصنع ألعاباً نارية قوية بنفسي. وفي أحد الأيام، كنت أزيل البارود منها مع ابن خالتي ووضعنا في أصّ نبات فارغ كمية كبيرة منه. كنت أحب أن ألعب بمفرقعات «بلاك كات». والشيء الجيد في هذه المفرقعات هو أنك تستطيع أن تقسمها إلى شطرين وتشعلها فتتحوّل إلى قاذفة لهب صغيرة. وبينما كنت أضع كومة البارود

لألعب بمفرقعات «بلاك كات» سقط عود الثقاب من يدي فوق كومة البارود فانفجرت كلّها وقذفت كرة كبيرة من اللهب في وجهي. عندما صاح ملانغيسي، هرعت أمّي إلى الفناء مذعورة.

«ماذا حدث؟»

تظاهرتُ بالبرود مع أنني كنت أشعر بحرارة الكرة الملتهبة على وجهي، وقلت: «لا شيء، لم يحدث شيء».

«هل كنت تلعب بالنار؟»

«لا».

هزّت أمّي رأسها وقالت: «أتعرف؟ سأضربك لأن المسيح كشف كذبك».

«ماذا؟»

«اذهب إلى الحمّام وانظر إلى نفسك».

ذهبت إلى الحمّام ونظرت في المرآة. كان حاجباي قد اختفيا واحترقت خصلة شعري الأمامية بالكامل.

بالنسبة إلى شخص بالغ، كنت طفلاً مخرّباً لا يمكن التحكم بي، أما أنا الطفل، فلم أكن أرى الأشياء بهذه الطريقة. فلم أكن أنوي أن أخرّب شيئاً، وإنما كنت أريد أن أخلق شيئاً. لم يكن هدفي أن أحرق حاجبي، وإنما كنت أريد أن أشعل ناراً. لم أكن أريد أن أعطّل أجهزة العرض، وإنما كنت أريد أن أسبب فوضى لأرى ردة فعل الناس على ذلك.

لم يكن بإمكاني أن أتوقف عن عمل ذلك. هناك حالة يعاني منها الأطفال تدعى «اضطراب الوسواس القهري» تجعلهم يفعلون أشياء لا يفهمونها هم أنفسهم. تستطيع أن تقول لطفل: «افعل ما تشاء، لكن لا ترسم على الجدار. تستطيع أن ترسم على هذه الورقة. تستطيع أن ترسم في هذا الدفتر. تستطيع أن ترسم على أيّ سطح تريد، لكن لا ترسم أو تكتب أو تلوّن على الجدار». عندها سينظر الطفل في عينيك مباشرة ويقول: «فهمته»، وبعد عشر دقائق يعود الطفل ويرسم على الجدار. عندما تصرخ به: «لماذا رسمت على الجدار؟» فينظر الطفل إليك مندهشاً، لا يعرف لماذا رسم على الجدار. أذكر أن هذا الشعور كان ينتابني طوال الوقت عندما كنت طفلاً. وكلّما كانت أمّي تعاقبني وتضربني على مؤخرتي، كنت أتساءل لماذا فعلتُ ذلك؟ كنت أعرف أنّني يجب ألاّ أفعل ذلك لأنها قالت لي يجب ألاّ أفعل ذلك. وعندما ينتهي العقاب، كنت أقول لنفسي، من الآن فصاعداً سأكون طفلاً جيّداً ولن أفعل شيئاً سيئاً في حياتي، أبداً، أبداً، أبداً، أبداً، أبداً – ولكي أتذكّر بألاّ أفعل شيئاً سيئاً، سأكتب على الجدار لأتذكّر ذلك... فأتناول قطعة طباشير ملوّنة وأكتب على الجدار على الفور، ولم أفهم السبب قط.

كانت علاقتي مع أمّي تشبه العلاقة بين شرطي ومجرم في الأفلام – المرأة التحري العنيدة والمجرم المخادع التي تصمم على إلقاء القبض عليه. إنهما متنافسان مريران، لكن، اللعنة، يكنّ أحدهما احتراماً كبيراً للآخر، وبطريقة ما، فإن أحدهما يحبّ

الأخر. في بعض الأحيان، كانت أمّي تمسك بي، وتكون عادة خطوة واحدة ورائي، وكانت تنظر إليّ بإعجاب دائماً. ذات يوم، يا ولد. ذات يوم سأمسك بك وأحبسك طوال حياتك. فأهزّ لها رأسي رداً على ذلك. طاب مساؤك أيها الضابط. هكذا كانت طفولتي كلها.

كانت أمّي طوال الوقت تحاول كبح جماحي. ومع مرور الوقت، تطورت أساليبها. فكلما ازدادت حيويتي وطاقتي، ازدادت ذكاء ودهاء، وكانت تجد دائماً أساليب مختلفة كي تبقيني منضبطاً وتكبح جماحي. بعد ظهر يوم أحد، كنّا نتسوق في أحد المحلات، وكانت هناك أنواع متعددة من حلوى التفاح. كنت مغرماً بحلوى التفاح. لم أتوقف عن القول لها: «أرجوك أريد حلوى التفاح؟ أرجوك أريد حلوى التفاح؟ أرجوك أريد حلوى التفاح؟ أرجوك أريد حلوى التفاح؟»

عندما جمعت أمّي المواد التي تريد شراءها وذهبت لتدفع ثمنها، كنت قد أنهكتها بإلحاحي، فقالت: «حسناً، اذهب وأحضر واحدة». ركضت وجلبت حلوى التفاح، ثم عدت ووضعتها على الطاولة مع الأشياء الأخرى على صندوق الدفع.

«أضف ثمن حلوى التفاح هذه من فضلك»، قلت.

نظر أمين الصندوق إليّ بريبة وقال: «انتظر دورك، يا صبي. الا ترى أنني لا أزال أساعد هذه السيدة».

فقلت: «لا، إنها تشتريها لي».

فاستدارت أمي إليّ وقالت: «من يشتريها لك؟»

«أنتِ تشترينها لي».

«لا، لا. لماذا لا تشتريها لك أمك؟»

«ماذا؟ أمي؟ أنتِ أمي».

«أنا أمك؟ لا، أنا لست أمك. أين هي أمك؟»

ارتبكت، وقلت: «أنتِ أمي».

نظر أمين الصندوق إليها، ثم نظر إليّ، وعاد ونظر إليها. هزّت أمي كتفيها بلا مبالاة كأنها تقول إنها لا تعرف ما الذي يقوله هذا الطفل، ثمّ نظرت إليّ كما لو أنها لم ترني في حياتها.

«هل أنت ولد ضائع أيها الفتى الصغير؟ أين أمك؟»

«نعم»، قال أمين الصندوق، «أين أمك؟»

فأشرت إلى أمي وقلت له: «هذه هي أمي».

«ماذا؟ لا يمكن أن تكون أمك يا فتى. فهي سوداء. ألا ترى ذلك؟»

هزّت أمي رأسها وقالت: «صبي صغير ملوّن مسكين تاه عن أمه. مع الأسف».

ارتعبت. هل أنا مجنون؟ هل هي ليست أمي؟ بدأت أصرخ. «أنتِ أمي. أنتِ أمي. إنها أمي. إنها أمي».

فهزّت كتفيها بلا مبالاة مرة أخرى، وقالت: «يا له من أمر محزن. آمل أنّ يجد أمّه».

هزّ أمين الصندوق رأسه. دفعت له أمّي ثمن المشتريات وأخذتها وخرجت، وتركت حلوى التفاح. فركضت وراءها وأنا أبكي، لحقتها إلى السيارة. التفتت إليّ وانفجرت في الضحك، كما لو أنها لقنتني درساً قاسياً.

سألتني، «لماذا تبكي؟»

«لأنك قلتِ إنّك لست أمّي. لماذا قلتِ إنّك لست أمّي؟»

«لأنك أصررت على شراء حلوى التفاح. اصعد الآن إلى السيارة، لنذهب».

" عندما بلغت السابعة أو الثامنة من عمري، لم يعد بمقدورها أن تخدعني، فغيّرت أسلوبها، وتحوّلت حياتنا إلى مسرحية تدور أحداثها في قاعة محكمة فيها محاميان لا يتوقفان عن الجدال ومناقشة الثغرات والمسائل التقنية. كانت أمّي امرأة ذكية حادة اللسان، لكنني كنت أسرع في مجادلتها. كانت تنزعج كثيراً لعدم قدرتها على مجاراتي ولم يكن بإمكانها إقناعي بسهولة. فبدأت تكتب لي رسائل. بهذه الطريقة كان باستطاعتها إثارة النقاط التي تريد مناقشتها معي ولا ندخل في مهاترات شفوية. فعندما أعود إلى البيت، كنت أجد مغلفاً دسته من تحت الباب، كما لو كان إنذاراً من صاحب البيت. "

عزيزي تريفور،

«أيها الأولاد، أطيعوا والديكم في كلّ شيء، لأن هذا يرضي المسيح».

- الرسالة من بولس إلى المؤمنين في كولوسي، ٣:٢٠

هناك أشياء أتوقّع أن تقوم بها لأنك ابني وقد أصبحت شاباً. يجب أن تنظّف غرفتك. يجب أن تحافظ على نظافة البيت. يجب أن تعتني بثيابك المدرسية. أرجوك يا بني، أطلب منك أن تحترم القواعد التي أضعها حتى أحترمك أيضاً. أطلب منك الآن أن تذهب وتغسل الصحون وتزيل الأعشاب في الحديقة.

المخلصة،

أمّك

أنفذ ما تقوله، وإذا كنت أريد أن أقول لها شيئاً، كنت أكتب لها رداً. وبما أن أمّي كانت تعمل سكرتيرة، كنت أمضي ساعات طويلة في مكتبها كلّ يوم بعد المدرسة، تعلّمت أشياء كثيرة عن كتابة الرسائل التجارية. كنت أتباهى كثيراً بقدراتي على كتابة الرسائل.

إلى من يهمه الأمر:

عزيزتي ماما،

لقد استلمت رسالتك في وقت سابق. يسرني أن أقول لك إنني لم أغسل الصحون بعد وسأغسلها بعد ساعة تقريباً. أرجو الملاحظة بأنّ الحديقة لا تزال رطبة ولا أستطيع أن أزيل الأعشاب الآن، لكنني أريد أن أطمئنك بأنني سوف أنجز هذه المهمّة في نهاية عطلة الأسبوع. وأتفق معك أيضاً في ما قلته عن مستوى احترامي وسأنظف غرفتي وأجعلها تبدو في شكل يرضيك.

المخلص،

تريفور

كانت هذه الرسائل المهذبة. أما إذا كنّا نتجادل حول أمر أو إذا كنت قد واجهت مشكلة في المدرسة، كنت أجد بانتظاري رسائل فيها قدر أكبر من الاتّهام واللوم عندما أصل إلى البيت.

عزيزي تريفور،

«الجهالة متأصلة في قلب الطفل، وعصا التأديب تبعدها عنه».

- الأمثال ٢٢:١٥

درجاتك في المدرسة خلال هذا الفصل مخيّبة جداً، وسلوكك في الصفّ لا يزال سيئاً ولا يشي بالاحترام. وواضح من تصرفاتك بأنك لا تزال لا تحترمني، ولا تحترم أساتذتك. تعلّم أن تحترم النساء في حياتك. فالطريقة التي تعاملني بها وطريقة تعاملك مع معلميك ستكون هي الطريقة التي ستعامل بها النساء الأخريات في العالم. تعلّم أن تكبح جماح هذا المنحى لديك الآن لكي تصبح رجلاً أفضل. وبسبب سلوكك سأعاقبك لمدة أسبوع، ولن تشاهد التلفزيون ولن تلعب بألعاب الفيديو.

المخلصة،

أمك

بالطبع، كنت أجد هذا العقاب ظالماً فآخذ الرسالة وأذهب لمواجهتها.

«هل يمكننا أن نتناقش حول هذه المسألة؟»

«لا. إذا أردت أن تردّ، اكتب رسالة».

أعود إلى غرفتي، أخرج قلمي وورقتي، وأجلس إلى طاولتي الصغيرة، وأفنّد حججها الواحدة تلو الأخرى.

إلى من يهمه الأمر:

عزيزتي ماما،

قبل كل شيء، فإن هذه الفترة بالغة الصعوبة في المدرسة، وإن قولك إنّ درجاتي في المدرسة سيّئة غير منصف أبداً، خصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار بأنّك لم تكوني طالبة متفوقة في المدرسة وكما تعرفين فأنا ثمرة منك، لذلك، فإن جزءاً من اللوم يقع عليك لأنك إن لم تكوني طالبة متفوقة في المدرسة، فلماذا يجب أن أكون متفوقاً في المدرسة، لأننا من الناحية الوراثية نفس الشيء. وتقول جدّتي دائماً إنك كنتِ فتاة شقية، ومن الواضح أنني أخذت شقاوتي منك، لذلك لا أظن أنه يحق لك أن تقولي شيئاً عن هذا الأمر.

المخلص،

تريفور

كنت آخذ لها الرسالة وأقف هناك حتى تقرأها. وكانت تمزّقها دائماً وتلقي بها في سلة المهملات، وتقول: «زبالة! هذا هراء!» ثمّ تبدأ تهاجمني وتقول: «آه – آه – آه. لا. يجب أن أكتب رسالة». فأذهب إلى غرفتي وأنتظر ردّها. في بعض الأحيان كان ذلك يستمر أياماً.

كنا نتبادل الرسائل حول الأمور البسيطة، أما إذا كانت المخالفات كبيرة، فكانت تضربني على مؤخرتي. ومثل معظم الآباء السود في جنوب أفريقيا، كانت أمّي تلجأ إلى الأسلوب القديم في معاقبتي. وإذا كان غضبها كبيراً، كانت تستخدم الحزام أو العصا. كانت الأمور تسير هكذا في تلك الأيام. فقد تعرّض جميع أصدقائي تقريباً لهذه المعاملة أيضاً.

كانت أمّي تُجلسني على حجرها وتضربني على مؤخرتي إذا تمكنت من الإمساك بي، لكنّها قد لا تتمكّن من الإمساك بي أبداً. وكانت جدّتي تسميني «الغزال الأفريقي»، ثاني أسرع حيوان ثديي على وجه الأرض، الأيل الذي يطارده الفهد. لذلك كان على أمّي أن تكون مقاتلة مغوارة، وكانت تضربني بأي شيء يقع تحت يدها، بالحزام أو ربما يكون حذاء يطير خلفي بسرعة كبيرة.

الشيء الوحيد الذي كنت أحترمه في أمّي هو أنها لم تكن تتركني في شكّ حول سبب معاقبتها لي. ولم يكن عقابها ناجماً عن ثورة غضب، وإنما عن تأديب نابع من حبّها لي. كانت أمّي وحيدة مع طفل مجنون. فقد كنت أعطّل البيانو، وأتغوّط على الأرض، ولا أتصرف بشكل جيد، فكانت تضربني ضرباً مبرحاً حتى أبكي، ثمّ تأتي إلى غرفتي على وجهها ابتسامة عريضة، وتقول: «هل أنت مستعد لتناول العشاء؟ يجب أن نستعجل ونأكل إذا أردنا أن نشاهد مسلسل «الإنقاذ ٩١١». هل ستأتي؟»

«ماذا؟ هل أنت مجنونة؟ لقد ضربتني منذ قليل».

«نعم. لأنك أخطأت. وهذا لا يعني أنني لم أعد أحبّك».

«ماذا؟»

«انظر، هل أخطأت أم لا؟»

«أخطأت».

«إذاً؟ كان عليّ أن أضربك. وقد انتهى ذلك الآن. لماذا تجلس هناك وتبكي؟ لقد حان وقت عرض مسلسل «الإنقاذ ٩١١». وليام شاتنير ينتظر. هل ستأتي أم لا؟»

لم يكن التأديب في المدرسة الكاثوليكية مزحة. فعندما كنت أرتكب خطأ كانت الراهبات في مدرسة ماريفال يضربنني على مفاصل أصابعي بحافة مسطرة معدنية. وإذا شتمتُ أو لعنتُ كنّ يغسلن فمي بالصابون. وإذا ارتكبت خطأ شنيعاً فكنّ يرسلنني إلى مكتب المدير؛ لأن المدير هو الوحيد المخوّل بضربك. كان عليك أن تنحني ويضربك على مؤخرتك بذلك الشيء المطاطيّ المسطّح الذي يشبه نعل حذاء.

عندما كان المدير يضربني، لم يكن يضربن بقوة. في أحد الأيام، عندما كان يعاقبني قلت في نفسي، كم أتمنى أن أمّي تضربني هكذا، وضحكت. لم أتمالك نفسي، فانزعج المدير كثيراً، وقال: إن كنت تضحك وأنا أضربك، فلا بد من أنك تعاني من مشكلة».

كانت تلك المرة الأولى من بين ثلاث مرات جعلت المدرسة

أمّي تأخذني إلى معالج نفساني لتقييم حالتي النفسية. وكان كلّ معالج نفساني يفحصني ويقول: «لا يعاني هذا الطفل من أي مشكلة». فلم أكن مصاباً باضطراب نقص الانتباه، ولم أكن مصاباً باضطراب اجتماعي، وإنما كنت طفلاً مبدعاً ومستقلاً مفعماً بالطاقة والحيوية. وكان المعالجون يجرون لي سلسلة من الاختبارات، وخلصوا إلى أنني إمّا سأصبح مجرماً عتيداً أو شرطياً ممتازاً أقبض على المجرمين، لأنني أستطيع دائماً أن أجد ثغرات في القانون. فكلما رأيت قاعدة غير منطقيّة، كنتُ ألتفّ من حولها.

فعلى سبيل المثال، لم تكن القواعد المتعلقة بتناول العشاء الرباني في قدّاس يوم الجمعة منطقية. فقد كنا نركع ونقف ونركع ونقف ونجلس ونركع ونقف ونجلس طوال ساعة، وفي نهاية ذلك كنت أجوع، لكنهم لم يكونوا يسمحون لي بأن أتناول لأنني لست كاثوليكياً، بينما كان بإمكان التلاميذ الآخرين أن يتناولوا جسد المسيح ويشربوا دم المسيح، أما أنا فلم يكونوا يسمحون لي بذلك. كان دم المسيح عصير العنب، وكنت أحبّ عصير العنب كثيراً. عصير عنب مع بسكويت -ما الذي يريد الطفل أكثر من ذلك؟ ولم يكونوا يسمحون لي بأن أتناولها. فكنت أجادل الراهبات والقسّ طوال الوقت.

«لا يستطيع أحد أن يتناول جسد المسيح ويشرب دم المسيح إلا الكاثوليك، صحيح؟»

«نعم».

«لكن المسيح لم يكن كاثوليكياً».

«لا».

«كان المسيح يهودياً».

«نعم».

«هذا يعني أنه إذا جاء المسيح إلى كنيستكم الآن، فلن تسمحوا له بأن يتناول جسد المسيح ودمه؟»

«حسناً... مممم... ممممم...»

لم يكن لديهم جواب مقنع قط.

في صباح أحد الأيام، قبل صلاة القداس، أردت أن أتناول دم المسيح وجسد المسيح، فتسللت من وراء المذبح وشربت قنينة عصير العنب كلّها وأكلت كيس بسكويت القربان المقدّس كلّه لأعوّض عن الأوقات الأخرى التي لم أتناولها فيها.

لم أكن أرى أنني أنتهك تلك القواعد، لأنها لم تكن منطقية. ولم يقبضوا عليّ إلاّ لأنهم انتهكوا القواعد التي وضعوها. فقد وشى بي طفل آخر عندما كان يعترف، وجاء القسّ ليوبخني.

«لا، لا»، قلت محتجاً، «لقد انتهكت القواعد. من المفروض أن تكون هذه المعلومات سرّية، ويجب ألاّ يكرر القسّ ما تقوله أثناء الاعتراف».

لم يهتمّوا بذلك. تستطيع المدرسة مخالفة القواعد كما تريد.

وبّخني المدير.

«أي شخص مريض يمكن أن يأكل جسد المسيح كلّه ويشرب دمّ المسيح كلّه؟»

«شخص جائع».

عاقبوني مرة أخرى وأرسلوني لرؤية المعالج النفسي للمرة الثانية لأنني فعلت ذلك. وقمت بالزيارة الثالثة إلى المعالج النفساني، القشّة الأخيرة، عندما كنت في الصفّ السادس. فقد كان أحد التلاميذ يتنمّر عليّ. عندما هددني بأنه سيضربني، أحضرت معي إحدى السكاكين التي كنت أجمعها إلى المدرسة. لم أكن أنوي أن أستخدمها. أردت فقط أن أحملها. لم تكن المدرسة تكترث بذلك. لكن تلك المرة كانت القشّة الأخيرة بالنسبة للمدرسة. لكنهم لم يطردوني. جلست أمام المدير الذي قال لي: «تريفور، بإمكاننا أن نطردك. يجب أن تفكّر جيداً إذا كنت تريد أن تبقى في مدرسة ماريفال السنة القادمة». يخيّل إليّ أنه كان يظن بأنّه يوجّه لي إنذاراً نهائياً حتى أصحح سلوكي. لكنّي شعرت بأنه يعرض عليّ أن أترك المدرسة، وقبلت عرضه فقلت له: «لا، لا أريد أن أبقى هنا». وكانت تلك نهاية المدرسة الكاثوليكية.

من الغريب أن أمّي لم تقل لي شيئاً عندما حدث ذلك. لم يكن بانتظاري في البيت ضرب على المؤخرة. وبما أن أمّي لم تعد تحصل على المنحة الدراسية بعد أن تركت عملها في شركة آي سي آي، فقد أصبح دفع رسوم مدرسة خاصّة عبئاً ثقيلاً عليها. لكن

الأهم من كلّ ذلك، رأت أنّ ردّة فعل المدرسة مبالغ فيها. كانت تقف بجانبي ضدّ مدرسة ماريفال في أحيان كثيرة. فقد وافقتني على موقفي من مسألة القربان المقدّس برمتها. «دعني أضع ذلك في إطاره الصحيح»، قالت للمدير، «إنك تعاقب طفلاً لأنه يريد أن يتناول جسد ودم المسيح؟ لماذا لا تسمحون له بأن يتناولها؟ بالطبع يجب أن يتناولها». عندما أرسلوني إلى معالجة نفسانية لأنني ضحكت عندما كان المدير يضربني، قالت في تقريرها إلى المدرسة إن هذا الأمر سخيف للغاية.

«السيدة نوا، كان ابنك يضحك عندما كنّا نضربه».

«حسناً، لا بد أنكم لا تعرفون كيف تضربون الصبي. هذه مشكلتكم، وليست مشكلتي. يمكنني أن أقول لك إنني عندما أضرب تريفور فإنه لا يضحك أبداً».

كان هذا هو الشيء الغريب والمدهش في أمّي. فإذا اقتنعت بأنّ قاعدة ما سخيفة، فهي لا تعاقبني لأنني خالفتها. وأجمع المعالجون النفسانيون بأنّ المشكلة تكمن في المدرسة لا فيّ. لذلك لم تكن المدرسة الكاثوليكية المكان المناسب لأن أكون خلاقاً ومستقلاً فيها.

كانت المدرسة الكاثوليكية تشبه نظام التمييز العنصري لأنها دكتاتورية وتقوم سلطتها على قواعد غير منطقية. وكانت أمّي قد تربت على هذه القواعد، وعندما لم تكن تقتنع بها، كانت تلتف حولها. كانت السلطة الوحيدة التي تعترف بها أمّي هي سلطة

الله. فالله المحبّة والإنجيل الحقيقة، وكلّ ما عداهما قابل للجدل. وكانت قد علّمتني أن أتحدى السلطة وأشكّ في النظام، وقد انعكس عليها ذلك سلباً لأنني كنت أعارضها وأجادلها باستمرار.

عندما كنت في السابعة من عمري، تعرّفت أمّي على صديقها الجديد، أبيل. كان قد مضى على ذلك سنة تقريباً، لكنني كنت صغيراً لا أعرف آنذاك من هما بالنسبة لبعضهما. كان الأمر بالنسبة لي مجرد «هيه، هذا صديق ماما الذي يزورنا غالباً». أحببت أبيل. كان رجلاً لطيفاً جداً.

في ذلك الوقت، إذا أراد شخص أسود أن يعيش في الضواحي كان عليه أن يجد عائلة بيضاء تؤجر للخدم الذين يعملون عندها غرفة أو الكراج في بيتهم، وهذا ما فعله أبيل. فقد كان يعيش في حيّ يدعى «أورانج غروف» في كراج بيت أسرة بيضاء، حوّله إلى شيء يشبه بيتاً ريفياً فيه موقد صغير وسرير. وفي بعض الأحيان كان يأتي وينام في بيتنا، وفي أحيان أخرى كنّا نذهب ونمكث عنده. لم تكن الإقامة في كراج، بينما يوجد عندنا بيت، شيئاً رائعاً، لكن أورانج غروف كانت قريبة من مدرستي ومن مكان عمل أمّي.

كانت تعمل عند هذه الأسرة البيضاء خادمة سوداء تقيم في القسم المخصص للخدم في الفناء الخلفي، وكنت ألعب مع ابنها عندما كنا نذهب إلى هناك. كان حبّي للنار في ذلك السن في أوجه. بعد ظهر أحد الأيام، كان الجميع في العمل -أمّي وأبيل وصاحبا

البيت- وكنت ألعب مع الطفل بينما كانت أمّه مشغولة في تنظيف البيت. كنت مولعاً باستخدام عدسة مكبّرة لأحرق اسمي الذي أكتبه على قطعة خشبية. كنت أوجّه العدسة وأركّزها جيداً فينبعث لهب ثمّ أحرّك العدسة ببطء فتحرق أشكالاً وحروفاً ورسوماً. كنت مغرماً بعمل ذلك.

بعد ظهر ذلك اليوم، كنت أعلّم الصبي كيف يفعل ذلك. كنّا داخل سكن الخدم الذي كان عبارة عن كوخ وراء البيت يضعون فيه بعض المعدات والأدوات، وكانت فيه سلالم خشبية، ودلاء طلاء قديمة، وزيت التربنتين. وكانت علبة الثقاب لا تزال معي -كلّ الأدوات اللازمة لإشعال حريق. كنّا جالسين على مرتبة قديمة كانوا ينامون عليها على الأرض، وهي في الأصل كيس محشو بقشّ جاف. كانت أشعة الشمس تتسلل من النافذة، وكنت أري الصبي كيف يحرق اسمه على قطعة خشب معاكس.

ثم خرجنا لنأكل شيئاً. وضعت العدسة المكبّرة وعلبة الثقاب فوق المرتبة وخرجنا. عندما عدنا بعد بضع دقائق وجدنا أن باب الكوخ قد أغلق من الداخل من تلقاء نفسه. لم يكن بوسعنا أن نعود إلى داخل الكوخ إلا إذا نادينا أمّه، فقرّرنا أن نركض ونلعب في باحة المنزل. بعد قليل لاحظت قليلاً من الدخّان ينبعث من شقوق إطار النافذة. فجريتُ ونظرتُ إلى الداخل. كانت هناك نار صغيرة مشتعلة وسط الفرشة المحشوة بالقشّ حيث تركنا الثقاب والعدسة المكبّرة. ركضنا ونادينا الخادمة. جاءت، لكنها لم تعرف ماذا تفعل. كان الباب مقفلاً، وقبل أن نعرف كيف يمكننا أن

ندخل إلى الكوخ كانت النار قد التهمت كل شيء: المرتبة، السلالم، الطلاء، زيت التربنتين، كلّ شيء.

انتشرت النيران بسرعة، وبدأ السقف يحترق، ثم امتدت النيران إلى البيت الرئيسي فاحترق كلّ شيء فيه. احترق واحترق واحترق. كانت ألسنة النار تتصاعد إلى السماء. استدعى أحد الجيران الإطفائية. عندما سمعنا صافرات سيارة الإطفاء خرجنا أنا والصبي والخادمة إلى الطريق ورحنا نراقب رجال الإطفاء وهم يحاولون إطفاء الحريق، لكن عندما انتهوا، كان الأوان قد فات. فلم يبق شيء سوى قرميد محترق وبلاط متفحّم، واختفى السقف، وخرجت أحشاؤه من الداخل.

عاد صاحبا البيت ووقفا في الشارع يحدّقان في أنقاض بيتهما. سألا الخادمة ماذا حدث فسألت ابنها الذي قال: «كان مع تريفور ثقاب. لم يقولا شيئاً. يخيّل إليّ أنهما لم يعرفا ماذا يمكن أن يقولاه لي. كانا مصعوقين تماماً. لم يتّصلا بالشرطة، ولم يهدّدا برفع دعوى ضدي. ماذا سيفعلان. هل سيلقون القبض على طفل في السابعة من عمره بتهمة إشعال حريق؟ بالإضافة إلى ذلك كنّا فقراء جداً لا يمكنك أن تقاضينا على شيء. عدا ذلك، كان عندهما تأمين، وانتهى الأمر هكذا.

طردا أبيل من الكراج. ومن المضحك أن الكراج هو الوحيد الذي لم تصل إليه النار لأنه كان منفصلاً عن البيت الرئيسي. لم أر سبباً لطرد أبيل، لكنّهما طرداه. حزمنا أغراضه ووضعناها في

سيارة أمّي، وعدنا إلى إيدن بارك. وأصبح أبيل يعيش معنا منذ ذلك الحين. ثم نشب شجار قوي بينه وبين أمّي. «لقد أحرق ابنك حياتي». لكن أمّي لم تعاقبني في ذلك اليوم. كانت أمّي مصدومة. صبي شقي يحرق بيت عائلة بيضاء لم يتبق منه شيء. لم تكن تعرف ما الذي يجب أن تفعله معي.

لم أشعر بالذنب على ما حدث آنذاك، ولا أزال لا أشعر بالذنب الآن. فالمحامي في داخلي يقول إنني بريء. فقد كان هناك ثقاب وكانت هناك عدسة مكبّرة وكانت هناك مرتبة، ثمّ حدثت تلك السلسلة من الأحداث المؤسفة. تحترق الأشياء أحياناً، لهذا السبب وجدت الإطفائية. لكن جميع أفراد عائلتي يقولون لك: «لقد أحرق تريفور بيتاً». فإذا كان الناس يرونني فتى شقياً من قبل، أصبحت بعد الحريق شخصاً سيئ السمعة. ولم يعد يناديني خالي تريفور، وإنما بدأ يناديني «إرهابي»، وكان يقول: «لا تتركوا هذا الصبي وحده في بيتكم، لأنه سيحرقه عن بكرة أبيه».

حتى اليوم لا يستطيع ابن خالتي ملانغيسي أن يفهم كيف نجوت من أعمالي تلك طوال تلك الفترة، وكيف تحملت كلّ تلك العقوبات، ويتساءل لماذا استمررت في سلوكي هذا؟ كيف لم أتعلّم درسي قط؟ فقد كان ابنا خالتي مهذبين. وربما عوقب ملانغيسي مرة واحدة طوال حياته، ثم قرر أنه لا يريد أن يُضرب مرة أخرى، فأصبح يلتزم بالقواعد باستمرار. أما أنا فكنت أتمتع بميزة أخرى ورثتها من أمّي وهي قدرتها على نسيان الألم في الحياة. أتذكّر الشيء الذي سبّب لي الألم، لكنّي لا أحتفظ به.

لا أدع ذكرى شيء مؤلم تمنعني من أن أجرّب شيئاً جديداً. فإذا فكّرت كثيراً بركلات أمّك على مؤخرتك، أو بركلات الحياة على مؤخرتك، فلن تتمكن من توسيع آفاقك وتخالف القواعد. لذلك من الأفضل أن تأخذها، تبكي قليلاً، ثمّ تستيقظ في اليوم التالي، وتواصل حياتك. ستصاب ببضع كدمات ستذكّرك بما حدث وهذا شيء جيد، لكن بعد فترة ستتلاشى هذه الكدمات، وستختفي لسبب واحد، هو أن الوقت قد حان للقيام بشيء آخر.

نشأتُ في أسرة سوداء في حيّ أسود في بلد أسود. وسافرت إلى مدن سوداء أخرى في بلدان سوداء في جميع أنحاء القارة السوداء. لم أجد طوال ذلك الوقت مكاناً يحبّ فيه السود القطط. أحد أهم أسباب ذلك، كما نعرف في جنوب أفريقيا، أن القطط لا توجد إلاّ لدى الساحرات، وأن كلّ القطط ساحرات.

منذ بضع سنوات وقعت حادثة مشهورة خلال مباراة لكرة القدم مع نادي أورلندو بايريتس. فقد تسللت قطّة إلى الملعب وراحت تجري بين الجمهور ثم خرجت إلى الملعب وراحت تجري بين اللاعبين أثناء المباراة. عندما رأى أحد الحراس القطّة، فعل ما يمكن أن يفعله أيّ شخص أسود عاقل. فقال لنفسه: «لا بد أن هذه القطّة ساحرة». وجرى وراءها وأمسك بها -وفي بث حيّ على التلفزيون- ركلها بقدمه ثم داس فوقها وضربها بالسجامبوك، سوط جلدي قاس، حتى ماتت.

انتشر الخبر في أرجاء البلد. وفقد البيض صوابهم. يا إلهي، هذا جنون. فأُلقي القبض على الحارس وقُدِّم إلى المحكمة ووجهت إليه تهمة الإساءة إلى حيوان. كان عليه أن يدفع غرامة ضخمة كي لا يمضي بضعة أشهر في السجن. لكن الشيء الذي يدعو إلى السخرية بالنسبة لي هو أن البيض أمضوا سنوات طويلة وهم يشاهدون أفلاماً عن أشخاص سود يُضربون حتى الموت على يد أشخاص بيض آخرين، أما هذا الشريط الذي يصوّر رجلاً أسود

بر كل قطّة، أفقدهم صوابهم. أما السود فقد أصيبوا بدهشة كبيرة لأنهم لم يروا أن الحارس ارتكب خطأ. كانوا يقولون: «لا بد أن تلك القطّة ساحرة، وإلاّ فكيف استطاعت أن تتسلل إلى الملعب أثناء مباراة كرة القدم؟ لا بد أن أحداً أرسلها لتجلب النحس على أحد الفريقين. لقد قتل الرجل القطّة لأنه كان يحمي اللاعبين».

في جنوب أفريقيا، يربي السود كلاباً.

(٧)

فوفي

بعد مضي شهر على انتقالنا إلى إيدن بارك، جلبت أمّي قطّتين إلى البيت، قطتين سوداوين، جميلتين. فقد ولدت قطة إحدى زميلاتها في العمل وأنجبت عدة قطط صغيرة وأرادت التخلّص منها، فأخذت أمّي منها قطتين. كنت سعيداً جداً لأنه لم يكن لدينا حيوان أليف من قبل. وكانت أمّي سعيدة لأنها تحبّ الحيوانات الأليفة أيضاً. لم تكن تؤمن بالهراء الذي يقال عن القطط. كانت هذه طريقة أخرى للتعبير عن تمرّدها، ترفض أن تؤمن بالأفكار التي يؤمن بها السود والأفكار التي لا يؤمنون بها.

في أحياء السود، لا تجرؤ على أن تربي قطّة، خصوصاً قطّة سوداء لأن ذلك كأنك تضع لافتة تقول: «أهلاً بكم، أنا ساحرة»، وسيكون هذا بمثابة انتحار. لكن عندما انتقلنا إلى حيّ الملوّنين، قررت أمّي أن تجلب القطتين. وعندما كبرتا قليلاً بدأنا نخرجهما من البيت في النهار لتتجولا في الحيّ. وذات مساء عدنا إلى البيت ووجدنا القطتين معلقتين من ذيليهما على بوّابتنا الأمامية. كانتا مذبوحتين ومسلوختين تنزفان دماً، وقد قُطع رأساهما. وكتب

أحدهم على جدار بيتنا الأمامي بالأفريكانية، «هيكس» أي «ساحرة».

من الواضح أن الملوّنين لم يكونوا أفضل حالاً من السود بالنسبة للقطط.

لم أحزن كثيراً على القطتين لأنني لا أظن أنهما أمضيتا وقتاً كافياً معنا كي أتعلق بهما، حتى إنني لا أذكر اسميهما. ولم تكن القطتان أليفتين في معظم الأحيان. ومهما حاولتُ لم تكونا أليفتين ولم تبديا لي قط أي مودّة ولم تتقبّلا مودتي لهما. لو كانت القطتان قد بذلتا جهداً أكبر، لربّما شعرتُ بأنني فقدتُ شيئاً. لكن حتّى عندما كنت طفلاً، عندما نظرت إلى هذين الحيوانين المشوّهين الميّتين، قلت: «حسناً، لقد نالتا جزاءهما، فلو كانتا ألطف، لربما لم يحدث لهما ما حدث».

بعد أن ذُبحت هاتان القطتان، لم نجلب إلى البيت حيوانات أليفة أخرى لفترة من الزمن. ثمّ أحضرت أمّي كلبتين جميلتين. يوجد لدى كلّ عائلة سوداء أعرفها كلب. مهما كنت فقيراً، يجب أن يكون عندك كلب. ويعامل البيض كلابهم كما يعاملون أطفالهم أو كأنها من أفراد العائلة، أما السود فهم يستخدمون الكلاب للحماية، جهاز إنذار الفقراء. فعندما تشتري كلباً فإنك تبقيه في باحة البيت. ويسمّي السود كلابهم بحسب خصائصها، فإذا كان للكلب خطوط على جسمه يسمونه «نمر»، وإذا كان شرساً يسمونه «خطير»، وإذا كان مبرقشاً يسمونه «أرقط». وبما أن هذه

الخصائص محدودة، فقد كانت أسماء الكلاب تكاد تكون نفسها، وتتكرر باستمرار.

في سويتو لم يكن عندنا كلاب. وفي أحد الأيام، أعطت إحدى زميلات أمّي في الشركة التي تعمل فيها جروين. لم يكن لهما خطوط. كان قد سافد الكلبة المالطية لدى تلك المرأة كلب جيرانها من فصيلة بول تيرير. أخذت أمّي الجروين وأحضرتهما إلى البيت. كنت أسعد طفل على وجه الأرض.

أطلقت عليهما أمّي اسمي فوفي وبانثر. لا أعرف من أين جاءت باسم فوفي. وكان لبانثر أنف وردي اللون، فأصبح اسمه بانثر «النمر الوردي» ينطبق عليه تماماً. كانت الكلبتان أختين تحبّان وتكرهان إحداهما الأخرى. كانتا إحداهما ترعى الأخرى، لكنهما كانتا تتقاتلان أيضاً طوال الوقت، قتالاً دموياً: عضّ، خمش. كانت العلاقة بينهما غريبة مرعبة.

أخذت أمّي بانثر، وأخذت أنا فوفي. كانت فوفي كلبة جميلة. لها خطوط أنيقة ووجه سعيد. كانت تشبه الكلاب من فصيلة بول تيرير، لكنها أنحف قليلاً بسبب العرق المالطي الذي يخالطها، أما بانثر فكانت تبدو غريبة الشكل وقذرة المظهر. كانت بانثر ذكية، وفوفي غبية. هذا ما كنّا نظنه طوال الوقت: أنها كلبة غبية. وعندما كنّا نناديهما، كانت بانثر تأتي على الفور، أما فوفي فتظل قابعة في مكانها، فتعود إليها بانثر وتجلبها معها. ثم اكتشفنا أن فوفي بكماء. بعد عدة سنوات ماتت فوفي عندما حاول لصّ أن يقتحم بيتنا،

دفع البوّابة وسقطت فوقها وكُسر عمودها الفقري. أخذناها إلى الطبيب البيطري. بعد أن فحصها، جاء الطبيب البيطري ونقل لنا الخبر.

قال: «من الغريب أن يكون لديكما كلبة لا تسمع»

«ماذا؟»

«ألا تعرفون أن كلبتكما لا تسمع؟»

«لا، كنّا نظن أنها غبية فقط».

عندها أدركنا أن إحدى الكلبتين كانت تخبر الأخرى بما يجب أن تفعله. الذكية التي تسمع تساعد الغبية التي لا تسمع.

أحببت فوفي كثيراً. كلبة جميلة لكنها غبية. ربّيتها، درّبتها على استعمال المبولة. كانت تنام في سريري. كان شيئاً عظيماً أن يكون لدى طفل كلب. كان ذلك أشبه بأن تكون لديك دراجة لكن لها مشاعر.

كان باستطاعة فوفي أن تؤدي أشياء كثيرة. فقد كان باستطاعتها أن تقفز عالياً جداً، أقصد أنه كان باستطاعة فوفي أن تقفز فوقي. كنت أضع قطعة طعام فوق رأسي فتقفز عالياً وتأخذها كما لو أنها لم تفعل شيئاً. لو كان اليوتيوب موجوداً في ذلك الوقت لأصبحت فوفي نجمة مشهورة.

وكانت فوفي شريرة أحياناً. في أثناء النهار كنّا نبقي الكلبتين في فناء البيت الخلفي المحاط بجدار لا يقل ارتفاعه عن خمسة أقدام.

وبعد فترة، بدأنا نرى فوفي تقعي خارج بوّابة البيت تنتظرنا عندما نعود إلى البيت. كنّا نتساءل دائماً من فتح لها البوّابة؟ كيف فعلت ذلك؟ لم يخطر لنا قط أنها تستطيع أن تقفز فوق جدار ارتفاعه خمسة أقدام، لكن هذا ما كان يحدث. ففي صباح كلّ يوم، كانت فوفي تنتظرنا حتى نخرج، ثم تقفز فوق الجدار وتطوف في أرجاء الحيّ.

رأيتها ذات يوم. كنت جالساً في البيت أثناء العطلة المدرسية. كانت أمّي قد ذهبت إلى عملها وكنت جالساً في غرفة الجلوس. لم تكن فوفي تعرف أنني كنت في البيت، وإنما ظنت أنني ذهبت أنا أيضاً لأن السيارة لم تكن موجودة. سمعتُ بانشر تنبح في فناء البيت. نظرت من النافذة ورأيت فوفي تتسلّق الجدار. قفزت، تسلقت بضعة أقدام، ثمّ ذهبت.

لم أصدّق ما حدث. جريت وركبت دراجتي ولحقت بها لأرى إلى أين ستذهب. قطعت مسافة طويلة، اجتازت شوارع عديدة، وذهبت إلى شطر آخر من الحيّ، ثمّ توجهت إلى أحد البيوت وقفزت فوق الجدار وهبطت إلى فناء البيت. ما الذي تفعله بحقّ الجحيم؟ توجهتُ إلى البوّابة وقرعت الجرس. خرج طفل ملوّن.

قال: «كيف يمكنني أن أساعدك؟»

«نعم. كلبي موجود في فناء بيتكم».

«ماذا؟»

«كلبي. إنه في فناء بيتكم».

جاءت فوفي ووقفت بيننا.

قلت لها: «فوفي، تعالي. لنذهب».

نظر الطفل إلى فوفي وأطلق عليها اسماً غبياً آخر، «رقطاء» أو شيئاً تافهاً من هذا القبيل.

«رقطاء، ادخلي إلى البيت».

فقلت له: «هييه، رقطاء؟ إنها فوفي».

«لا، هذه كلبتي، رقطاء».

«لا، هذه فوفي، صديقتي».

«لا، هذه رقطاء».

«كيف يمكن أن تكون رقطاء؟ فلا توجد في جسمها أي بقعة. إنك لا تعرف ماذا تقول».

«هذه رقطاء».

«فوفي».

«رقطاء»

«فوفي».

بطبيعة الحال لم تكن فوفي تستجيب لـ«رقطاء» أو «فوفي» لأنها

لم نكن تسمع. كانت تقف بيننا. بدأت أشتم الطفل.

«أعدلي كلبتي».

فقال: «لا أعرف من أنت» لكن من الأفضل لك أن تذهب من هنا».

ثمّ دخل إلى البيت وأحضر أمّه.

قالت: «ماذا تريد؟»

«هذه كلبتي».

«إنها كلبتنا. هيا اذهب من هنا».

بدأت أصرخ. «لماذا تسرقون كلبتي؟» ثم التفتُ إلى فوفي ورحتُ أتوسل إليها، «فوفي، لماذا تفعلين بي ذلك؟ لماذا يا فوفي؟ لماذا؟» ورجوتها أن تأتي معي، لكن فوفي لم تكن تسمع توسلاتي لها وكلّ الأشياء الأخرى.

قفزت فوق درّاجتي الهوائية وهرعت إلى البيت. كانت الدموع تسيل على وجهي. كنت مغرماً بفوفي. لقد حزنت كثيراً عندما رأيتها مع صبي آخر، وتظاهرت بأنها لم تعرفني، بعد أن ربيتها، بعد كلّ تلك الليالي التي أمضيناها معاً. كنت كسير القلب.

لم تعد فوفي إلى البيت مساء ذلك اليوم لأن تلك الأسرة ظنّت أنني كنت أنوي سرقة كلبهم، فحبسوها في البيت، فلم تستطع أن تعود من نفس الطريق الذي اعتادت أن تعود منه لتنتظرنا خارج

سور البيت. عندما عادت أمّي من العمل، رأتني أبكي. قلت لها إن فوفي قد خُطفت. ذهبنا إلى ذلك البيت. دقّت أمّي الجرس وخرجت الأمّ.

«انظري، هذه كلبتنا».

كذبت هذه السيدة في وجه أمّي، وقالت: «هذه ليست كلبتكم. لقد اشتريناها».

«لا، لم تشتروها. إنها كلبتنا».

ظلتا تتجادلان. لم تتراجع المرأة عن موقفها. عدنا إلى البيت لنجلب الدليل: صورنا مع الكلبتين وشهادات من الطبيب البيطري. لم أتوقف عن البكاء طوال الوقت، وكادت أمّي تفقد صبرها. «لا تبكِ! سنجلب الكلبة! اهدأ».

أخذنا الوثائق وعدنا إلى البيت، وأخذنا معنا بانثر، كدليل آخر. أرت أمّي الصور والوثائق من الطبيب البيطري للمرأة التي ظلت متشبثة بموقفها وأصرّت على أنها لن تعيد لنا فوفي. هدّدتها أمّي بأنها ستستدعي الشرطة، لكن المرأة لم تعرها أي اهتمام، فقالت لها أمّي أخيراً: «حسناً، سأعطيك مئة راند».

«اتفقنا»، قالت المرأة على الفور.

عندما أعطتها أمّي النقود أحضرت لنا فوفي. كان الصبي الآخر الذي كان يقول إن فوفي رقطاء، ينظر إلى أمّه وهي تبيع الكلبة التي ادّعى أنها له، فأخذ يبكي. «الرقطاء، لا يا أمّي، لا

يمكنك أن تبيعيها». لم أعره أي اهتمام، فقد كان كلّ ما أريده هو أن أستعيد فوفي.

ما إن رأت فوفي بانشر حتى جاءت على الفور. غادرنا مع الكلبتين. ظللت أبكي طوال الطريق إلى البيت. كنت لا أزال حزيناً. لكن أمّي لم تعد تحتمل بكائي.

«لماذا تبكي؟»

«لأن فوفي تحبّ ولداً آخر».

«وماذا في ذلك؟ لماذا يزعجك ذلك؟ لم يكلّفك ذلك شيئاً. فوفي هنا، وهي لا تزال تحبّك. إنها لا تزال كلبتك. اسكت الآن».

كانت فوفي أول شيء جعلني كسير القلب. لم يخذلني أحد أكثر من فوفي. كان درساً ثميناً بالنسبة لي. كان من الصعب أن أفهم أن فوفي خذلتني وذهبت إلى الصبي الآخر. كانت تعيش حياتها كما تحب حتى عرفت أنها تخرج وحدها أثناء النهار، وأدركت أخيراً أنه لم يكن لدى فوفي نية سيئة تجاهي.

كان يخيّل إليّ أنّ فوفي كلبتي أنا فقط، لكن ذلك لم يكن صحيحاً. فقد أدركت أن فوفي كلبة، وأنا صبي. كنا صديقين وصادف أنها تعيش في بيتي. لقد شكّلت تلك التجربة مشاعري تجاه العلاقات طوال حياتي: وهي أنك لا تملك الشيء الذي تحبّه. كنت محظوظاً لأنني تعلّمت هذا الدرس وأنا في هذا العمر. لا يزال الكثير من أصدقائي حتى الآن، مع أنهم أصبحوا بالغين،

يتصارعـون مـع مشـاعر الخـذلان. يأتـون إليّ غاضبـين، يبكـون ويتحدّثـون كيـف أنهـم خُدعـوا وكُـذب عليهـم، فأتعاطف معهـم. أتفهّـم مشـاعرهم. أجلـس معهـم وأشـتري لهـم شراباً، وأقـول لهـم: «يـا أصدقائـي، دعـوني أحكـي لكـم قصّـة فـوفي».

عندما كنت في الرابعة والعشرين من عمري، قالت لي أمّي ذات يوم فجأة: «يجب أن تبحث عن أبيك».

سألتها، «لماذا؟». لم أكن قد رأيته آنذاك منذ عشر سنوات، ولم أكن أظن أنني سأراه مرة أخرى.

فقالت: «لأنه قطعة منك، وإذا لم تجده فلن تجد نفسك».

فقلت لها: «لست بحاجة إلى ذلك، فأنا أعرف من أنا».

«ليس الأمر هو أن تعرف من أنت، وإنما هو الذي يجب أن يعرف من أنت، وأنت تعرف من هو. رجال كثيرون يكبرون بدون آبائهم، ويمضون حياتهم وهم يحملون انطباعاً خاطئاً عن من هو أبوهم وماذا يمكن أن يكون. يجب أن تجد أباك. يجب أن تُريه ماذا فعلت وماذا أصبحت. يجب أن تنهي تلك القصّة».

(٨)

روبرت

كان أبي لغزاً محيّراً. ثمة أسئلة كثيرة عن حياته لا أستطيع الإجابة عنها حتى الآن.

أين نشأ؟ في مكان ما في سويسرا.

في أي جامعة درس؟ حتى إنني لا أعرف إن كان قد درس أصلاً.

كيف انتهى به المطاف في جنوب أفريقيا؟ لا أعرف شيئاً.

لم ألتق بجدّي وجدّتي السويسريين على الإطلاق، ولا أعرف اسم أحد منهما أو أيّ شيء عنهما. أعرف أن لأبي أختاً أكبر منه، لكنني لم ألتق بها قط. أعرف أنّه عمل طاهياً في مونتريال وفي نيويورك لفترة من الزمن قبل أن يأتي إلى جنوب أفريقيا في أواخر سبعينات القرن العشرين، وأعرف أنّه كان يعمل في شركة صناعة للخدمات الغذائية وأنّه فتح حانتين ومطاعم هنا وهناك. هذا كلّ ما أعرفه عنه.

لم أقل لأبي قط كلمة «بابا». لم أخاطبه قط بكلمة «بابا» أو «أبي» أيضاً. لم أستطع أن أفعل ذلك. علّموني ألا أفعل ذلك. فإذا كنّا في مكان عام أو في أيّ مكان خارج البيت وسمعني أحد أناديه «بابا» فقد يبدأ ذلك الشخص يطرح أسئلة أو يتّصل بالشرطة. لذلك بقدر ما تسعفني به ذاكرتي، كنت أناديه دائماً روبرت.

على الرغم من أنني لا أعرف شيئاً عن حياة أبي قبل أن أولد، توجد لدي شذرات عنه هو كشخص، من أمّي خلال الفترة التي أمضيتها معه. فقد كان سويسرياً بكل معنى الكلمة، نظيفاً ومحدداً ودقيقاً. إنه الشخص الوحيد، الذي أعرفه، ينزل في غرفة في فندق ويغادرها وهي أنظف مما كانت عليه عندما نزل فيها، ولا يحبّ أن يخدمه أحد: لا خدم، لا مدبرات منزل لأنه ينظّف المكان بنفسه. يحبّ الفضاء الذي يعيش فيه. يعيش في عالمه الخاص ويفعل كلّ شيء بنفسه.

أعرف أنّه لم يتزوّج قط. كان يقول إن معظم الناس يتزوّجون لأنهم يريدون أن يتحكموا بشخص آخر، ولم يكن يرغب في أن يتحكم به أحد. وأعرف أنّه يحبّ السفر، ويحبّ التسلية، ويحبّ أن يمضي وقتاً ممتعاً مع أشخاص آخرين. لكن في الوقت نفسه، كانت خصوصيته أهم شيء بالنسبة له. وحيثما كان يقيم، لم يكن اسمه يرد في دليل الهاتف. أنا متأكّد بأنه كان من الممكن أن يقبض على والديَّ في ذلك الوقت لو لم يكن على تلك الدرجة من الخصوصية والسرية. وبينما كانت أمّي طائشة ومتهوّرة، كان أبي

متحفظاً وعقلانياً. كانت هي نار، وكان هو جليد. كانا شخصين متناقضين إلى درجة انجذاب أحدهما إلى الآخر، وأنا مزيج منهما.

ثمة شيء واحد أعرفه عن أبي وهو أنه يكره العنصرية أكثر من أيّ شيء آخر، ولا يعزى ذلك إلى الثقة بالنفس أو التفوق الأخلاقي، وإنما لأنه لم يكن يفهم كيف يمكن أن يكون البيض عنصريين إلى هذه الدرجة في جنوب أفريقيا. فقد كان يقول: «إن أفريقيا مليئة بالسود، فلماذا تأتي أصلاً إلى أفريقيا إن كنت تكره السود؟ إذا كنت تكره السود كثيراً، فلماذا أتيت لتسكن في بيتهم؟» بالنسبة له كان ذلك ضرباً من الجنون.

وبما أن العنصرية لم تكن تعني شيئاً لأبي، لم يكن يلتزم بالقواعد التي يفرضها نظام التمييز العنصري. ففي أوائل ثمانينات القرن العشرين، قبل أن أولد، فتح أبي أحد أوائل المطاعم المختلطة في جوهانسبرغ. فقد قدّم طلباً للحصول على ترخيص خاصّ يسمح له بخدمة الزبائن السود والبيض على حد سواء. كان يجب الحصول على رخصة كهذه كي تتمكن الفنادق والمطاعم من تقديم الخدمة للمسافرين والدبلوماسيين السود القادمين من بلدان أخرى الذين لا يخضعون، نظرياً، إلى القيود التي يخضع لها السود في جنوب أفريقيا. واستغّل السود الأغنياء في جنوب أفريقيا هذه الثغرة لارتياد تلك الفنادق والمطاعم.

أحرز مطعم أبي نجاحاً كبيراً على الفور. فقد بدأ السود يرتادونه لعدم وجود مطاعم أخرى يمكنهم أن يتناولوا الطعام

فيها، وكانوا يريدون أن يأتوا ويجلسوا في مطعم راق ويرون كيف يبدو ذلك. وكان البيض يأتون أيضاً ليروا كيف يمكن أن يكون الحال إذا جلسوا في مكان واحد مع السود. كان البيض يجلسون ويراقبون السود كيف يأكلون، وكان السود يجلسون ويأكلون ويراقبون البيض كيف يأكلون. لقد تغلب الفضول بأن يكونوا معاً على مشاعر العداء التي تفصل أحدهم عن الآخر. سادت مشاعر عظيمة لكلا الطرفين.

لكن المطعم أغلق لأن أشخاصاً في الحيّ تقدّموا بشكاوى ضده، وقدّموا عرائض، فبدأت الحكومة تبحث عن تبريرات لإغلاق مطعم أبي. في البدء جاء مفتشون وحاولوا النيل منه لانتهاكه قانون النظافة والصحة. لا بد أنهم لم يسمعوا عن السويسريين. وعندما فشلوا في إغلاقه قرّروا أن يفرضوا عليه قيوداً إضافية اعتباطية.

قالوا له: «بما أنه توجد لديك رخصة فبإمكانك أن تُبقي المطعم مفتوحاً، لكن يجب أنّ تبني دورات مياه منفصلة لكلّ فئة عرقية. يجب أن تخصص دورات مياه للبيض، وأخرى للسود، ودورات مياه للملوّنين، وأخرى للهنود».

«عندها سيصبح المطعم كلّه دورات مياه».

«إذا لم ترغب في أن تفعل ذلك، فخيارك الوَحيد هو أن تجعله مطعماً طبيعياً لخدمة البيض فقط».

فأغلق المطعم.

بعد سقوط نظام التميز العنصري، انتقل أبي من هيلبرو إلى يوفيل الذي كان حيّاً سكنياً هادئاً ثم تحوّل إلى بوتقة حيوية يمتزج فيها السود والبيض وجميع الألوان الأخرى. كان المهاجرون يتدفقون من نيجيريا وغانا ومن جميع أنحاء القارة، وجلبوا معهم طعاماً مختلفاً وموسيقى رائعة. وكان شارع روكي الشارع الرئيسي الذي كانت أرصفته تحتشد بالباعة والمطاعم والحانات. كان انفجاراً ثقافياً.

كان أبي يعيش على بعد شارعين من روكي، في شارع يو، بجانب تلك الحديقة الكبيرة الرائعة التي كنت أحبّ الذهاب إليها لأن الصبية من جميع الأجناس ومن مختلف البلدان يركضون فيها ويلعبون. كان بيت أبي بسيطاً، جميلاً، لكنه لم يكن فاخراً. كنت أعرف أن لدى أبي مالاً كافياً يجعله يعيش برغد ويسافر، لكنّه لم يكن ينفق بسخاء على الأشياء، وإنما كان مقتصداً جداً، ذلك النوع من الرجال الذي يقود السيارة نفسها عشرين عاماً.

عشنا أنا وأبي وفق جدول زمني. فقد كنت أزوره بعد ظهر كلّ يوم أحد. وعلى الرغم من انتهاء نظام التمييز العنصري، فقد اتّخذت أمّي قرارها: لم تشأ أن تتزوج. كنت أنا وأمّي نعيش في بيتنا، وكان هو يعيش في بيته. كنت قد اتفقت مع أمّي على أنني إذا رافقتها إلى الكنيسة المختلطة وكنيسة البيض في الصباح، فلن أذهب معها إلى كنيسة السود وإنما أذهب لأزور أبي، لنشاهد معاً سباق السيارات فورمولا وان بدلاً من أن أشاهد طرد الشياطين من أجساد أولئك المساكين.

كنت أحتفل سنوياً بعيد ميلادي مع أبي، وكنت أمضي عيد الميلاد معه أيضاً. كنت أحبّ أن أمضي عيد الميلاد مع أبي لأنه كان يحتفل بعيد الميلاد الأوروبي الذي كان أفضل عيد ميلاد على الإطلاق. فقد كان أبي يزين البيت كلّه، ويضع أضواء عيد الميلاد وشجرة عيد الميلاد. ويضع ثلجاً اصطناعياً وكرات ثلجية وجوارب طويلة تتدلى من الموقد وهدايا كثيرة من سانتا كلوز. أما عيد الميلاد الأفريقي فكان عملياً أكثر. فقد كنّا نذهب إلى الكنيسة، ثم نعود إلى البيت، ونتناول وجبة طعام جيدة فيها لحم بالإضافة إلى الكاسترد والجيلي. ولم تكن هناك شجرة عيد ميلاد. تأخذ هديتك التي تكون عادة ثياباً فقط، ثياباً جديدة. وقد تحصل على لعبة، لكنّها لا تكون ملفوفة وليست من سانتا كلوز. كانت مسألة سانتا كلوز معقّدة. فقد كان عيد الميلاد الأفريقي مسألة كبرياء بالنسبة للأفريقيين. فعندما يشتري أب أفريقي هديّة لابنه، فإن آخر شيء يمكن أن يفعله هو أن يعترف لرجل أبيض بهذا الفضل، وسيقول لابنه: «لا، لا، لا. أنا الذي اشتريت لك هذه الهدية».

خارج أعياد الميلاد والمناسبات الخاصّة، كان كلّ ما نفعله عندما أزوره بعد ظهر أيام الأحد، هو أنه كان يعدّ لي وجبة طعام. كان يسألني ماذا أريد أن آكل، وكنت أطلب دائماً الوجبة نفسها، طبق ألماني يُدعى روستي وهو عبارة عن فطيرة من البطاطا فيها نوع من اللحم ومرق. كنت أتناول ذلك وأشرب قنينة سبرايت، وأتناول طبق حلوى الكاسترد عليه كراميل.

كانت معظم تلك الأوقات تمرّ بصمت. لم يكن أبي يتكلّم كثيراً. كان حنوناً ومحباً، يهتم بالتفاصيل، يرسل لي دائماً بطاقة بمناسبة عيد ميلادي، وكان يعدّ لي الطعام الذي أحبّه ويجهّز لي الألعاب التي أحبّها عندما أزوره. لكنه كان في الوقت نفسه كتاباً مغلقاً. كان يتحدّث عن الطعام الذي يعدّه، ويتحدّث عن سباق السيارات الذي نشاهده. ومن حين لآخر، كان يحكي لي عن مكان زاره أو عن مطعم يقدّم شرائح لحم لذيذة. كان ذلك كل شيء. كان وجودي مع أبي أشبه بمشاهدة مسلسل على التلفزيون. تشاهد حلقة ثم تنتظر أسبوعاً كاملاً لتشاهد الحلقة التالية.

عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري انتقل أبي إلى كيب تاون، وفقد أحدنا الاتصال بالآخر. وكنا قد فقدنا الاتصال ببعضنا لفترة من الزمن لسببين اثنين: فقد كنت مراهقاً، وكان لديّ عالم آخر كامل أصبح عليّ أن أتعامل معه الآن. فقد أصبحت ألعاب الفيديو وأجهزة الكمبيوتر تعني لي أكثر بكثير مما يعنيه لي قضاء وقت مع والديَّ. وكانت أمّي قد تزوّجت أبيل الذي كان يغضب من مجرد فكرة أن تكون أمّي على تواصل مع حبيبها السابق، فآثرت ألاّ تثير غضبه. وبدلاً من أن أرى أبي بعد ظهر كلّ يوم أحد، بدأت أراه بين كلّ يوم أحد وآخر، وربما مرة كلّ شهر، عندما تتمكن أمّي أن توصلني إلى بيته سراً، كما كانت تفعل في هيلبرو. لقد انتقلنا من العيش في ظل نظام التمييز العنصري إلى نوع آخر من الاستبداد، أعني الحياة مع رجل مدمن على شرب الخمر شرير أحياناً.

في ذلك الوقت، بدأت يوفيل تشهد هروب البيض منها ومن الإهمال، والتدهور العام. فقد غادر معظم أصدقاء أبي الألمان إلى كيب تاون. وعندما لم يعد يراني، لم يبق عنده مبرر للبقاء، فغادر أيضاً. لم تكن مغادرته مؤلمة بالنسبة لي، لأنها لم تكن تعني أن أحدنا سيفقد الاتصال بالآخر، ولن يرى أحدنا الآخر ثانية. ظننت أن أبي سينتقل إلى كيب تاون لفترة من الزمن.

عندما ذهب بقيت منهمكاً بحياتي. كنت قد تجاوزت المدرسة الثانوية، وتجاوزت السنوات الأولى من العشرينات من عمري، وكنت قد أصبحت كوميدياً. حققت نجاحاً سريعاً في مهنتي، وبدأت أقيم برامج دي جي في الإذاعة وأستضيف برنامج الواقع للأطفال في التلفزيون. وقد أصبحت نجماً في النوادي في أنحاء البلد. ومع أنني بدأت أحرز تقدّماً في حياتي، كانت الأسئلة عن أبي لا تزال تشغلني دائماً، تطفو على السطح بين حين وآخر. «أتساءل أين هو. هل يفكّر بي؟ هل يعرف ماذا أفعل؟ هل هو فخور بي؟» عندما يكون والدك غائباً، تظل تدور في دوامة عدم المعرفة، ومن السهل أن تملأ هذا الفراغ بالأفكار السلبية. «إنه لا يبالي». «إنه أناني». وأحد الأشياء الرائعة التي أنقذتني هي أن أمي لم تذكر كلمة سيئة واحدة عنه، وإنما كانت تمتدحه باستمرار. «أصبح لديك نقود كافية بفضل والدك». «ابتسامتك تشبه ابتسامة والدك». «إنك نظيف ومرتّب مثل أبيك». لم أشعر بالمرارة تجاهه قط، لأنها جعلتني أعرف أن غيابه كان بسبب الظروف لا لعدم حبّه لي. كانت تحكي لي دائماً تلك القصّة عندما عادت إلى البيت

من المستشفى وسألها أبي، «أين ابني؟ أريد أن يكون هذا الطفل في حياتي». كانت تقول لي: «لا تنسَ أبداً: لقد اختارك». وعندما بلغت الرابعة والعشرين، كانت أمّي هي التي دفعتني لأن أبحث عنه.

بما أن أبي يحبّ الخصوصية فقد كان العثور عليه أمراً في غاية الصعوبة. فلم نكن نعرف عنوان إقامته، ولم يكن اسمه وارداً في دليل الهاتف. بدأت أتواصل مع رفاقه القدامى، المغتربين الألمان في جوهانسبرغ. امرأة صديقة أحد أصدقائه تعرف أحداً يعرف آخر مكان أقام فيه. لكنني لم أفلح في ذلك. ثم اقترحت عليّ أمّي أن أتصل بالسفارة السويسرية، وقالت: «لا بد أنهم يعرفون مكانه لأنه لا بد أن يكون على اتصال بهم».

كتبتُ إلى السفارة السويسرية سألتهم عن مكان إقامة أبي، لكن بما أن أبي لم يكن مسجلاً في شهادة ميلادي لم يكن عندي دليل بأنّ أبي هو أبي. فردّت السفارة وقالت إنها لا تستطيع إعطائي أيّ معلومات عنه لأنها لا تعرف من أنا. اتصلت بها عدة مرات وكنت أتلقى الردّ نفسه. قالوا: «انظر أيها الفتى، لا نستطيع مساعدتك. إننا السفارة السويسرية، ألا تعرف شيئاً عن السويسريين؟ السرّية إحدى خصائصنا. هذا ما نفعله. نأسف على ذلك». لكني لم أتوقف عن إلحاحي، فقالوا أخيراً: «حسناً، سنأخذ رسالتك، وإذا كان يوجد رجل بالأوصاف التي تذكرها، فقد نرسل له رسالتك، وإذا لم يكن هناك شخص بهذه الأوصاف، فقد لا نفعل ذلك. دعنا نرى ما الذي يمكن أن يحدث».

بعد بضعة أشهر، تلقيت رسالة بالبريد تقول: «عظيم أن أسمع منك. كيف حالك؟ حبّي، أبوك»، وأعطاني عنوانه في كيب تاون، في حيّ يدعى كامبس باي. بعد بضعة أشهر ذهبت لزيارته.

لن أنسى ما حييت ذلك اليوم. ربما كان واحداً من أغرب الأيام في حياتي، فأنا ذاهب للقاء شخص أعرفه ولا أعرفه في الوقت نفسه. شعرت بأن ذكرياتي عنه أصبحت بعيدة جداً. حاولت أن أتذكّر كيف كان يتكلّم، كيف يضحك، طريقته وأسلوبه. ركنتُ السيارة في الشارع الذي يقطن فيه، وبدأت أبحث عن عنوانه. كان شارع كامبس باي يعجّ بأناس بيض مسنين نصف متقاعدين. عندما كنت أمشي في ذلك الشارع كان جميع أولئك الرجال البيض المسنين يسيرون نحوي ثم يتجاوزونني. كان أبي في طريقه إلى السبعين من العمر آنذاك، وكنت أخشى أن أكون قد نسيت شكله. كنت أتفرس في وجه كلّ رجل أبيض عجوز يمرّ بجانبي، وكنت أريد أن أسأله، هل أنت أبي؟ كان يبدو لي أنني أسير في وسط رجال بيض مسنين متقاعدين يتمشون على شاطئ البحر. وصلت أخيراً إلى العنوان المطلوب وقرعت الجرس، ما إن فتح الباب حتى عرفته. إنه أنت، قلت في نفسي. طبعاً أنت. أنت هو ذلك الرجل. إني أعرفك.

بدأنا من حيث تركنا، فقد بدأ يعاملني كما كان يعاملني عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري. وعاد أبي على الفور إلى شخصيته المألوفة. «حسناً! أين كنّا؟ هنا، لديّ كلّ الأشياء التي تحبّها. روستي بالبطاطا. قنينة سبرايت. كاسترد بالكراميل». لحسن الحظ

أن ذائقتي لم تنضج كثيراً منذ أن كنت في الثالثة عشرة، فبدأت آكل على الفور.

بينما كنت أتناول الطعام نهض والتقط كتاباً، ألبوم صور مكبرة جداً، ووضعه على الطاولة. قال: «إنني أتتبع أخبارك»، وفتحه. كان كتاباً فيه قصاصات عن كلّ ما فعلته، وكلّ خبر ذُكر فيه اسمي في صحيفة، كلّ شيء من أغلفة مجلات حتى إعلان أصغر ناد، منذ أن بدأت عملي حتى ذلك الأسبوع. كانت ترتسم على وجهه ابتسامة كبيرة وهو يقلّب صفحات الكتاب، وينظر إلى العناوين الرئيسية: «تريفور نوا سيقدم عرضاً يوم السبت في بلوز رووم». «تريفور نوا يستضيف برنامجاً تلفزيونياً جديداً».

غمرني سيل من المشاعر الجياشة. بذلت جهدي لأحبس دمعتي. أحسست أن فجوة العشر سنوات من حياتي قد أُغلقت بلحظة واحدة، كأن يوماً واحداً قد انقضى منذ أن رأيته آخر مرة.

لسنوات عديدة كانت تدور في رأسي أسئلة كثيرة. هل يفكّر بي؟ هل يعرف ما الذي أفعله؟ هل هو فخور بي؟ لكن لو كان معي طوال الوقت، لكان فخوراً بي دائماً. لقد فرّقتنا الظروف، لكنه كان أبي دائماً.

خرجت من بيته في ذلك اليوم وقد طالت قامتي بوصة. أكّدت لي رؤيته من جديد أنه اختارني. اختار أن أكون في حياته. اختار أن يردّ على رسالتي. إنه يريدني. أن تُختار هي أعظم هدية يمكنك أن تقدمها لإنسان آخر.

عندما تواصلنا مرة أخرى، غمرني شعور بالرغبة في أن أعوّض عن جميع السنوات التي افتقدناها. قلت إن أفضل وسيلة لعمل ذلك هي أن أجري معه مقابلة. لكنني سرعان ما أدركت خطأ ذلك؛ لأن المقابلات تقدم لك حقائق ومعلومات، أما أنا فلم أكن أسعى إلى الحصول على حقائق ومعلومات. الشيء الذي كنت أريده هو أن أقيم معه علاقة، والمقابلة ليست علاقة. فالعلاقات تُبنى بصمت. تُمضي وقتاً مع شخص، تلاحظه وتتفاعل معه، ثم تبدأ تعرفه، وهذا تماماً ما سلبه منّا نظام التميز العنصري: الزمن. ولا يمكنك أن تعوّض عنه بإجراء مقابلة، لكن كان عليّ أن أفكّر بذلك لنفسي.

ذهبت لأمضي مع أبي بضعة أيام. قلت في نفسي: في عطلة نهاية هذا الأسبوع سأتعرّف على أبي. عندما رأيته أمطرته بالأسئلة. «من أين أنت؟ في أي مدرسة درست؟ لماذا فعلت هذا؟ كيف فعلت ذلك؟» بدأت علامات الانزعاج تظهر على وجهه.

قال: «ما هذا؟ لماذا تستجوبني؟ ما الذي يجري هنا؟»

«أريد أن أعرفك».

«أهكذا تتعرّف على الناس عادة، باستجوابهم؟»

«لا، ليس تماماً».

«إذاً كيف تتعرّف على الناس؟»

«لا أعرف. بقضاء وقت معهم، كما أظن».

«حسناً. إذاً أمضِ وقتاً معي، وانظر ما الذي ستجده».

وهكـذا أمضينـا عطلـة نهايـة الأسـبوع معـاً. تناولنـا العشـاء وتحدّثنـا عــن السياسـة. شـاهدنا سـباق السـيارات فورميلا وان وتحدّثنا عـن الرياضـة. جلسـنا صامتين في فناء بيتـه الخلفي واستمعنا إلى اسـطوانات ألفيـس بريسـلي القديمـة. وطـوال ذلـك الوقـت لم يقـل كلمـة واحـدة عـن نفسـه. وعندمـا بـدأت أحـزم أغـراضي، جـاء إليّ وجلـس.

قـال: «إذاً، خـلال الفـترة التـي أمضيناهـا معـاً، ألا تقـول لي مـاذا عرفـت عـن أبيـك؟»

«لا شيء. كلّ ما عرفته هو أنك شخص كتوم جداً».

«أترى؟ بدأت تعرفني».

الجزء الثاني

عندما رست سفن المستعمرين الهولنديين في الطرف الجنوبي من أفريقيا منذ أكثر من ثلاثمائة سنة، صادفوا السكان الأصليين الذين يُعرفون باسم خويسان. والخويسان هم مثل الهنود الحمر الأمريكيين لكن في جنوب أفريقيا، قبيلة تائهة من البوشمن (سكان الأدغال)، أناس بدائيّون، صيادون، يتميّزون عن الشعوب الأكثر سواداً التي تتكلم البانتو والتي هاجرت لاحقاً جنوباً لتصبح لاحقاً قبائل الزولو والإكسهوزا والسوثو في جنوب أفريقيا الحديثة. وعندما بدأ المستعمرون البيض يستقرّون في كيب تاون والمناطق المحيطة بها، استباحوا نساء خويسان، وولد أوائل الأشخاص المختلطين في جنوب أفريقيا.

ومن أجل العمل في مزارع المستعمرين، جُلب العبيد من مختلف أصقاع الإمبراطورية الهولندية: غرب أفريقيا، ومدغشقر، وجزر الهند الشرقية. وتزاوج العبيد والخويسان معاً، وظل المستعمرون البيض يستبيحون نساءهم، ومع الزمن، اختفى الخويسان من جنوب أفريقيا. وبينما لقي معظمهم حتفهم بسبب المرض والمجاعة والحروب، اختفى ما تبقى من سلالتهم من الوجود، واختلطت مع أحفاد البيض والعبيد فنشأ عرق جديد تماماً من البشر وهم الملوّنون. والملوّنون أناس هجينون، مزيج تام. بعضهم فاتح البشرة، وبعضهم الآخر داكن البشرة. ويحمل بعضهم سمات آسيوية، ويحمل بعضهم الآخر سمات البيض،

والبعض الآخر سمات السود. وليس من النادر أن ينجب رجل ملوّن وامرأة ملوّنة طفلاً لا يشبه أياً من والديه.

إن اللعنة التي يحملها الملوّنون هي أنه لا يوجد لديهم تراث محدد ينتسبون إليه، فإذا تتبّعوا نسبهم إلى مرحلة ما، فإنه ينقسم عند نقطة محدّدة إلى السكان البيض وإلى السكان الأصليين وإلى شبكة متداخلة من «آخرين». وبما أن أمهاتهم الأصليات قد اختفين، فإن صلاتهم الأقوى تظل مع آبائهم البيض، الأفريكان. ولا يتكلّم معظم الملوّنين اللغات الأفريقية، وإنما يتكلّمون اللغة الأفريكانية، واستمدّوا دينهم ومؤسساتهم، وكلّ ما شكّل ثقافتهم من الأفريكان.

" إن تاريخ الملوّنين في جنوب أفريقيا هو أسوأ من تاريخ السود في جنوب أفريقيا. فعلى الرغم من كلّ ما عاناه السود، فهم يعرفون من هم، أما الملوّنون فلا يعرفون. "

(٩)

شجرة التوت

عند نهاية الشارع الذي نقطن فيه في إيدن بارك، وعند منعطف نهاية الطريق، تنتصب شجرة توت عملاقة تمتد من الحديقة الأمامية لبيت أحدهم. وعندما تثمر هذه الشجرة في كلّ سنة، يأتي أطفال الحيّ ويقطفون منها حبات التوت، يأكلون ما يستطيعون منها ويملأون ما تبقى في أكياس ويأخذونها إلى بيوتهم. وكان جميع الأولاد يلعبون تحت الشجرة معاً، أما أنا فكنت ألعب تحت الشجرة وحدي لأنه لم يكن عندي أصدقاء في إيدن بارك.

في جميع الأماكن التي كنّا نقيم فيها كنت دائماً الشخص غير الطبيعي. ففي هيلبرو، أقمنا في منطقة يقطنها البيض، ولم يكن فيها أحد يشبهني، وفي سويتو، عشنا في منطقة يقطنها السود، ولم يكن فيها أحد يشبهني، أما إيدن بارك فهي منطقة يقطنها الملوّنون، ومع أن جميع السكان في إيدن بارك يشبهونني، فقد بقينا مختلفين. كانت تلك أسوأ تجربة أواجهها في حياتي.

كانت مشاعر العداء التي يكنّها لي الملوّنون الذي كنت

أصادفهم من أصعب الأشياء التي كان عليّ التعامل معها. فإذا أبدى رجل أبيض اهتماماً بثقافة الهيب هوب وصادق أشخاصاً سوداً فقط، فإن السود يقولون: «جيد، إنه رجل أبيض. وهذا شيء جيد»، أما إذا قرر رجل أسود أن ينسى أنه أسود ويعيش بين البيض ويلعب معهم الغولف، فإن البيض سيقولون: «حسناً، أنا أحبّ براين، فهو شخص غير خطير». لكن حاول أن تكون شخصاً أسود وتبدي اهتماماً بثقافة البيض وأنت لا تزال تعيش في مجتمع السود. حاول أن تكون شخصاً أبيض يحبّ ثقافة السود وأنت لا تزال تعيش في مجتمع البيض، فإنك ستواجه الكراهية والسخرية والمقاطعة إلى درجة لا يمكنك أن تصورها. فالناس مستعدّون لأن يتقبلّوك إذا اعتبروك شخصاً غريباً يحاول أن يستوعب عالمهم، أما إذا اعتبروا أنك تنتمي إلى عشيرتهم وتحاول أن تتنكر للعشيرة، فهذا أمر لن يغفروه لك، وهذا ما حدث لي في إيدن بارك.

عندما جاء نظام التميز العنصري، تحدّى الملوّنون هذا التصنيف السهل، فاستخدمهم النظام -بذكاء شديد- لبث التفرقة والكراهية والشك. ومن أجل تحقيق أهداف النظام، كاد الملوّنون أن يصبحوا من البيض. كانوا مواطنين من الدرجة الثانية، حُرموا من حقوق البيض لكنهم مُنحوا امتيازات خاصة لم يحصل عليها السود، كي يظلوا يأملون في الحصول على مزيد من الامتيازات. وكان الأفريكان يطلقون عليهم amperbaas أي «رئيس

تقريباً»، «سيّد تقريباً». لقد اقتربت كثيراً، وعلى وشك أن تصبح مثل الرجل الأبيض. مع الأسف لم يستطع جدك أن يمنع نفسه عن تناول الشوكولاتة، إيه؟ لكن ليس ذنبك أن تكون ملوّناً، فواصل المحاولة، لأنك إذا بذلت جهداً كافياً فقد تتمكن من محو هذا العيب من سلالتك. استمرّ في الزواج من الأشخاص ذوي البشرة الفاتحة والأكثر بياضاً ولا تلمس الشوكولاتة وربما، ربما، ذات يوم، إن كنت محظوظاً، يمكن أن تصبح أبيض».

قد يبدو الأمر سخيفاً، لكنه يمكن أن يحدث. ففي كلّ سنة، في ظل نظام التفرقة العنصرية، كان بعض الملوّنين يرتقون إلى مرتبة البيض. هذه ليست أسطورة، وإنما حقيقة. بإمكان الشخص أن يقدّم طلباً إلى الحكومة، فربما يكون شعرك مستوياً وأملس بما يكفي، وقد يكون لون بشرتك فاتحاً بما يكفي، وقد تُصقل لكنتك بما يكفي -عندها يمكن أن تُصنّف من جديد وتصبح أبيض. كلّ ما عليك أن تفعله هو أن تشجب شعبك، وتتنكر لتاريخك، وتترك أصدقاءك من ذوي البشرة الداكنة وعائلتك.

إن التعريف القانوني للشخص الأبيض في ظلّ نظام التمييز العنصري هو «الشخص الذي يبدو أنه شخص أبيض من حيث المظهر الذي لا يُقبل عموماً بأنه شخص ملوّن، أو الذي يُقبل عموماً بأنه شخص أبيض ولا يبدو أنه أبيض من حيث المظهر». كان الأمر اعتباطياً بكل معنى الكلمة. وهكذا استنبطت الحكومة اختبارات معينة مثل اختبار قلم الرصاص، فإذا تقدّمت بطلب لأن تصبح أبيض، يُدخل الموظف المسؤول قلم رصاص في ثنايا

شعرك، فإذا سقط القلم بسهولة فإنك تعتبر أبيض، وإذا لم يسقط وبقي في شعرك، فإنك ملوّن. إنك ما تقوله الحكومة من أنت. ويتوقف كلّ ذلك أحياناً على موظف عادي يحدّق في وجهك ويتخذ قراراً يحدد من أنت، ويتوقف ذلك أيضاً على ارتفاع عظام خدّك أو على عرض أنفك. يستطيع أن يختار أي شيء يبدو له معقولاً، فيقرّر أين يمكنك أن تعيش، ومن تستطيع أن تتزوّج، وما هي الوظائف والميزات التي يمكن أن تُمنح لك.

لم يكن الملوّنون يترقّون إلى فئة البيض فحسب، وإنما قد يصبحون هنوداً أيضاً أحياناً، وفي أحيان أخرى يمكن أن يصبح الهنود ملوّنين. ويترقّى السود أحياناً إلى مرتبة الملوّنين، ويمكن أن تخفّض مرتبة الملوّنين أحياناً إلى مرتبة السود. وبطبيعة الحال، يمكن أن تخفض مرتبة البيض أيضاً إلى مرتبة الملوّنين. فقد كانت تلك السلالات المختلطة كامنة دائماً، تنتظر حتى تخرج خلسة. وخوفاً من أن يخسر البيض مكانتهم كانوا يقفون دائماً في صف واحد معاً. فإذا أنجب والدان أبيضان طفلاً وقررت الحكومة أنّ الطفل أسمر جداً، حتى لو أبرز الوالدان وثائق تثبت أنّهما أبيضان، فمن الممكن أن يعتبر الطفل ملوّناً، وعلى الأبوين أن يتخّذا قرارهما: إما أن يتخلّيا عن مكانتهما كبيض ويذهبا ويعيشا كشخصين ملوّنين في منطقة يقطنها الملوّنون، أم ينفصلا، فتأخذ الأمّ الطفل الملوّن لتعيش في الغيتو بينما يظل الأب أبيض ليكسب عيشه ويعيلهما؟

عاش الكثير من الملوّنين في هذا العالم عذاباً حقيقياً، يحنّون دائماً إلى آبائهم البيض الذين تبرّؤوا منهم وتخلّوا عنهم، وقد

يصبحـون نتيجـة ذلـك أشـخاصاً عنصريـين تجاه أحدهـم الآخر إلى درجـة لا يمكـن تصورهـا. وكانـت وصمـة العـار الأكثر شيوعاً بالنسـبة للملوّنـين هـي أن يُطلـق عليهـم اسـم «بوزمان»، «بوشـمان»، «بـوشي»، لأن ذلـك يذكّرهـم بسـوادهم، ببدائيتهـم. وكانـت أسـوأ طريقـة لإهانـة شـخص ملـوّن هـي أن تشـير إليه بأنـه كان أسـود على نحـو مـا. وكان أحـد الأشـياء الحقـيرة التـي تمارسـها سياسـة التمييز العنـصري أنهـا كانـت تعلّـم الملوّنـين أن السـود هـم الذيـن يقفـون حجـر عثرة في طريقهـم. فقـد كانـت تقـول إن السـبب الوحيد الـذي يحـول دون حصـول الملوّنـين عـلى مرتبـة أولى هـو لأن السـود قـد يسـتخدمون الملوّنـين حتـى يتسـللوا مـن الأبـواب لكـي يحصلوا على الامتيـازات التـي يتمتـع بهـا البيـض.

"هـذا مـا كانـت حكومـة التمييـز العنـصري تفعلـه: فقـد كانـت تقنـع كلّ فئـة بأنهـا لا تسـتطيع أن تنضـم إلى النـادي بسـبب العـرق الآخـر. كـما لـو أن حـارس الملهـى الـذي يقـف عنـد البـاب يقـول لـك: «لا يمكننـا أن نسـمح لـك بالدخـول بسـبب صديقـك داريـن وحذائه البشـع»، فتلتفـت إلى داريـن وتقـول لـه: «تبـاً لـك يـا داريـن الأسـود، إنـك تعيـق دخـولي». وعندمـا يذهـب داريـن، يقـول لـك الحـارس: «لا، مـن يعيـق دخولـك في الواقـع هـو صديقـك سيزو بشـعره الغريب الشـكل»، فيقـول داريـن: «اللعنـة عليـك ياسيزو»، وهكـذا أصبـح الجميـع يكرهـون بعضهـم. والحقيقـة هـي أنّ أحـداً منكـم لـن يدخـل ذلـك النـادي أبـداً. "

"تعلّـم الملوّنـون ذلـك بصعوبـة كبيرة. تخيّـل أنـه تـم غسـل دماغـك

حتى بدأت تؤمن أنّ دمك ملوّث، وأمضيت كلّ وقتك وأنت تتطلّع للانضمام إلى نادي البيض، وعندما تشعر بأنك بدأت تقترب من خطّ النهاية، يأتي رجل يدعى نيلسون مانديلا ويقلب البلد رأساً على عقب، فيعود خطّ النهاية ويصبح خطّ البداية، وأصبح المعيار هو الأسود. أصبح الأسود يمسك بزمام البلد. الأسود جميل. الأسود قوي. منذ قرون كان يُقال للملوّنين إن السود قرود، لا تتأرجح مثلهم على أغصان الأشجار. تعلّم أن تمشي منتصباً كالرجل الأبيض. وبغتة، أصبحت تعيش في كوكب القرود، وتسلّمت القرود مقاليد الحكم فيه. "

لكي تتخيّل كم كان الأمر غريباً بالنسبة لي، فقد كانوا يقولون: إنه ليس خليطاً وإنما ملوّن -ملوّن البشرة لكن ليس بالثقافة، لذلك كنت أُعتبر شخصاً ملوّناً لا يريد أن يكون ملوّناً.

" في إيدن بارك، صادفتُ نوعين من الملوّنين. فقد كان بعض الملوّنين يكرهونني بسبب سوادي. لأن شعري مجعّد ولأنني كنت فخوراً بأفريقيتي، وكنت أتحدّث اللغات الأفريقية وكنت أحبّ أن أتحدّث بها. وعندما كان الناس يسمعونني أتحدّث بالإكسهوزا أو بالزولو، كانوا يقولون: «Wat is jy?'n Boesman?» (من أنت، بوشمان؟» لماذا تحاول أن تكون أسود؟ لماذا تتحدّث بهذه اللغة؟ انظر إلى بشرتك الفاتحة. تكاد أن تصل ويجب أن تلقي كلّ ذلك جانباً.

وكان بعض الملوّنين الآخرون يكرهونني لأنني أبيض. فعلى

الرغم من أنني أُعتبر أسود، فقد كان أبي أبيض، وتعلّمت في مدرسة إنكليزية خاصة، وتعلّمت كيف أنسجم مع البيض في الكنيسة، وكنت أتقن اللغة الإنكليزية، ولا أكاد أتكلّم الأفريكانية، اللغة التي كان يفترض بجميع الملونين أن يتكلّموا بها. لذلك كان الملوّنون يظنون أنني أرى نفسي أفضل منهم، فيسخرون من لكنتي، كما لو كنت أتصنّع ذلك. «Dink jy, jy is grênd» «أتظن أنك من الطبقة الراقية؟» -مغرور، كما يقول الناس في أمريكا.

حتّى عندما كنت أظن أنني محبوب، لم أكن كذلك. ففي إحدى السنوات، حصلت على درّاجة هوائية جديدة في العطلة الصيفية. كنت أنا وابن خالتي ملانغيسي نتناوب على ركوب الدراجة. كنت أقودها في شارعنا عندما خرجت هذه الفتاة الملوّنة الجميلة إلى الطريق وأوقفتني. ابتسمتْ ولوّحت لي بلطف.

قالت: «هيه، هل يمكنني أن أقود درّاجتك؟»

صُدمت تماماً. أوه، يا إلهي، قلت لنفسي، أصبح لي الآن صديقة. فقلت: «نعم، طبعاً».

نزلتُ وركبتْ الدراجة وسارت حوالى عشرين أو ثلاثين قدماً. ثم جاء صبي أكبر مني سناً يركض في الشارع، فتوقّفت الفتاة ونزلت من الدراجة وصعد إليها الصبي وقادها واختفى. كنت سعيداً جداً لأن فتاة كلمتني ولم أكن قد استوعبت تماماً أنهما سرقا دراجتي. عدت أجري إلى البيت، أبتسم وأقفز. سألني ابن خالتي أين الدراجة، فحكيت له ما جرى.

فقال: «تريفور، لقد سُرقت. لماذا لم تلحق بها؟»

«ظننت أنها لطيفان. كنت أظن أنني وجدت صديقة».

" كان ملانغيسي يكبرني سناً، وكان يدافع عني باستمرار. فجرى ووجد الطفلين، وعاد بعد ثلاثين دقيقة ومعه درّاجتي. "

كانت أشياء كهذه تحدث لي كثيراً. كنت أتعرّض للتنمّر طوال الوقت. ربما كانت الحادثة التي جرت عند شجرة التوت أسوأها. ففي مساء أحد الأيام كنت ألعب وحدي كما كنت أفعل دائماً، أجري حول الحيّ. كانت تلك المجموعة المؤلفة من خمسة أو ستة صبية ملوّنين يقفون في الشارع يلتقطون حبات التوت من شجرة التوت ويأكلونها. ذهبت إلى الشجرة وبدأت أقطف بعض حبات التوت لأتناولها في البيت. كان الصبية يكبرونني ببضع سنوات، في حوالى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. لم يكلّموني، ولم أكلّمهم. كانوا يتحدّثون باللغة الأفريكانية وكنت أفهم ما يقولونه. ثمّ جاء إليّ أحدهم، الصبي الذي يرأس العصابة، وقال: «Mag ek jou moerbeie sien؟» «هل أستطيع أن أرى حبات التوت التي قطفتها؟» أول ما خطر ببالي، مرة أخرى، أنه أصبح عندي صديق. رفعت يدي وأريته حبات التوت التي قطفتها، فأخذها من يدي ورماها على الأرض. بدأ الصبية الآخرون يضحكون. وقفت في مكاني ونظرت إليه للحظة. كان جلدي قد أصبح سميكاً في ذلك الوقت. فقد تعوّدت على أن يُتنمّر عليّ. فعدت أقطف التوت.

لا بد أن الصبي لم يكن يتوقع ردّة فعلي هذه، فراح يشتمني: «Fok weg, jou onnosele Boesman» «اذهب من هنا! هيا اذهب أيها البوشي الغبي! أيها البوشمان». تجاهلته وواصلت قطف حبات التوت. ثمّ أحسست بشيء يلامس مؤخرة رأسي. لقد ألقى عليّ حبة توت. لم تكن مؤلمة، لكنها كانت مفاجئة. استدرت نحوه ونظرت إليه، فرمى حبة أخرى، أصابتني هذه المرة في وجهي.

وفي جزء من الثانية، حتى قبل أن أتمكن من الردّ عليه، بدأ جميع الصبية يرمون عليّ حبات التوت. لم تكن بعض حبات التوت ناضجة، فكانت تلسعني كأنها حجارة. حاولت أن أغطي وجهي بيدي، لكن كان هناك وابل منها ينهال عليّ من جميع الجوانب. كانوا يضحكون ويرجمونني ويشتمونني. «بوشي! بوشمان!» كنت خائفاً من المفاجأة التي حدثت لي، لم أعرف ما الذي يجب أن أفعله. فرحت أبكي، وجريت. ركضت لأنجو بنفسي، طول الطريق وأنا عائد إلى بيتنا.

عندما جريت إلى داخل البيت كنت أبدو كما لو كنت قد ضُربت بقوة لأنني كنت أصرخ وكانت عيناي متورمتين وعصير التوت الأحمر الأرجواني يملأ ثيابي. نظرت أمّي إليّ برعب.

«ماذا حدث؟»

في وسط الدموع التي كانت تسيل مني حكيت لها ما حدث. «هؤلاء الصبية... شجرة التوت... ألقوا عليّ حبات التوت...» عندما انتهيت، انفجرت ضاحكة. فقلت لها: «هذا ليس شيئاً مضحكاً».

فقالت: «لا، لا، تريفور. إني لا أضحك لأنه شيء مضحك، وإنما أضحك لأخفف عن نفسي. ظننت أنك ضُربت. ظننت أن هذا دماً. إني أضحك لأنه عصير توت فقط».

كانت أمّي ترى كلّ شيء مضحكاً. لم يكن هناك موضوع قاتم أو مؤلم بالنسبة لها، فكانت تواجه الأمور بخفة. فقالت: «انظر إلى الجانب المشرق»، وهي تضحك وتشير إلى نصفي المغطّى بعصير التوت الداكن، «الآن أنت نصف أسود ونصف أبيض».

«هذا ليس شيئاً مضحكاً».

فقالت: «تريفور، أنت على ما يرام. اذهب واغتسل. لم تصب بأذى. لقد جُرحت عاطفياً. لكنّك لم تصب بأذى».

بعد نصف ساعة، عاد أبيل إلى البيت. في ذلك الوقت كان أبيل لا يزال صديق أمّي، ولم يكن يحاول أن يكون أبي أو حتى زوج أمّي. كان يعاملني كأخ أكبر. كان يمازحني وكنا نمضي وقتاً ممتعاً. لم أكن أعرفه جيداً، لكن شيئاً واحداً كنت أعرفه عنه هو أنه عصبي المزاج. كان شخصاً جيداً عندما يريد أن يكون، مرحاً، لكنه يمكن أن يكون حقيراً أيضاً. فقد تربى في «الوطن» البانتوستان حيث يتعين عليك أن تحارب حتى يعيش. كان أبيل ضخم الجثة أيضاً، وكان طوله يقارب المترين، طويل القامة ونحيفاً. في ذلك الحين لم يضرب أمّي بعد، ولم يضربني أيضاً، لكنني عرفت أنه رجل عنيف. لقد رأيت ذلك. ففي إحدى المرات، قطع سائق سيارة الطريق عليه فراح أبيل يصرخ به من النافذة. وعندما أطلق

الرجل الآخر بوق سيارته وبدأ يصرخ، ترجّل أبيل من سيارتنا بلمح البصر واتجه إلى سيارة الرجل الآخر، وأمسك بتلابيبه من النافذة وبدأ يصرخ، رافعاً قبضته في وجهه. فارتعب الرجل وقال: «واوا، واو، أنا آسف، أنا آسف».

عندما جاء أبيل إلى البيت في تلك الليلة، جلس على الأريكة ورآني أبكي.

«ماذا حدث؟» قال.

عندما بدأت أحكي له ما جرى، قاطعتني أمّي وقالت: «لا تخبره»، لأنها تعرف ما الذي سيحدث. كانت تعرف أكثر مني.

«لا تخبرني بماذا؟» قال أبيل.

«لا شيء»، قالت.

«إنها ليست لا شيء»، قلت.

فحدقت بي وقالت: «لا تخبره».

بدأ أبيل يشعر بالإحباط. «ماذا؟ لا يخبرني بماذا؟»

كان ثملاً. لم يكن يعود إلى البيت من العمل وهو غير سكران قط، وكان الشرب يزيد مزاجه سوءاً باستمرار. كان ذلك غريباً، لكن في تلك اللحظة أدركت أنني إذا قلت له ما حدث فقد يتدخل ويفعل شيئاً. كنّا على وشك أن نصبح أسرة، وكنت أعرف أنني إذا جعلته يشعر بأن أسرته قد أهينت، فإنه سيساعدني على

الانتقام من الصبية. "كنت أعرف أن شيطاناً يقبع في داخله، وكنت أكره ذلك. كان عنفه يرعبني عندما يغضب. لكنني كنت أعرف ما الذي يجب أن أقوله له في تلك اللحظة لأجعل الوحش يقف إلى جانبي."

حكيت له القصّة، وقلت له الأسماء التي نعتوني بها، وكيف ضربوني. وظلّت أمّي تقلل من أهمية ما حدث وتطلب مني أن أنسى الأمر، وتقول إن الأولاد يظلون أولاداً، وأن لا شيء مهم في كل ذلك. كانت تحاول أن تنزع فتيل المشكلة، لكنّني لم أكن أساعدها على ذلك. كنت غاضباً منها. «أتظنين أنّها مزحة، الأمر ليس مضحكاً! إنه ليس مضحكاً».

لم يضحك أبيل عندما حكيت له ماذا فعل بي الصبية الأشقياء. رأيت الغضب يستعر في داخله. عندما غضب أبيل لم يبد أي أمارات الغضب ولم يحكم قبضته، وإنّما جلس على الأريكة ينصت إلى ما أقوله. لم يقل كلمة واحدة، ثمّ بهدوء شديد، نهض واقفاً.

قال: «خذني إلى هؤلاء الصبية».

نعم، قلت في نفسي، هذا ما أريده. الأخ الأكبر سينتقم من أجلي. صعدنا إلى سيارته وانطلق في الشارع، ثم توقّف على مسافة بضعة بيوت قريبة من الشجرة. كان قد خيم الظلام، ولم يكن ينير المكان سوى الضوء المنبعث من أضواء الشارع، لكنّنا رأينا الصبية لا يزالون هناك، يلعبون تحت الشجرة. أشرت إلى رئيس العصابة، وقلت له: «هذا هو. إنه رئيسهم». فضغط أبيل بقدمه على دواسة

البنزين وصعد بقوة فوق العشب واتجه مباشرة إلى أسفل الشجرة. قفز من السيارة. قفزت أنا أيضاً. عندما رآني الصبية عرفوا ما الذي سيحدث، فتشتتوا وراحوا يركضون بسرعة جنونية في كلّ اتجاه.

كان أبيل سريعاً. يا إلهي كان سريعاً. كان رئيس العصابة يحاول أن يتسلّق أحد الجدران. لكن أبيل أمسك به وشدّه إلى الأسفل، ثم أخذ يجرّه. ثمّ عرّى غصناً من الشجرة وراح يضربه به. ضربه بقوة، وقد أحببت ذلك. لم أشعر بمتعة كما شعرت بها في تلك اللحظة. الانتقام جميل. إنه يأخذك إلى مكان مظلم، لكنه يروي عطشاناً.

ثمّ جاءت أغرب لحظة. فقد لمحتُ نظرة الرعب على وجه الصبي، وأدركت أن أبيل قد تجاوز الحدود في الانتقام من أجلي. فلم يكن يفعل ذلك ليلقّن الطفل درساً، وإنما كان يفعل ذلك لكي يضربه فقط. كان رجلاً بالغاً ينفّس عن غضبه في صبي لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره. وفي لحظة تحوّلت من نعم لأنك تنتقم من أجلي إلى لا، لا، لا. هذا كثير. كثير جداً. يا للهول. يا إلهي، ماذا فعلت؟"

"عندما ضرب أبيل الفتى ضرباً مبرحاً، جرّه إلى السيارة وجعله يقف أمامي، وقال له: «اعتذر منه». كان الفتى ينشج، يرتجف. نظر في عينيَّ مباشرة. لم أر رعباً في عينيْ أحد كما رأيت في عينيه. لقد ضربه شخص غريب بطريقة لا أظن أن أحداً ضربه ضرباً

مبرحاً هكذا. قال إنّه آسف، لكنّه بدا لي أنه لم يكن يعتذر على سلوكه معي، وإنما كان يعتذر على كلّ شيء سيئ فعله في حياته، لأنه لم يكن يعرف أنه قد يكون هناك عقاب كهذا.

عندما نظرتُ في عيني الصبي، أدركت مدى الأشياء المشتركة بيننا. فقد كان طفلاً، وأنا طفل. كان يبكي. وكنت أبكي. كان صبياً ملوّناً يعيش في جنوب أفريقيا، تعلّم كيف يكره وكيف يكره نفسه. إن من تنمّر عليه جعله يتنمّر عليّ؟ جعلني أشعر بالخوف، ولكي أنتقم أطلقت جهنمي على عالمه. لكنني عرفت أنني ارتكبت شيئاً فظيعاً.

عندما اعتذر الفتى، دفعه أبيل بعيداً وركله وقال له: «هيا اذهب»، فجرى الفتى وابتعد. ثم عدنا إلى البيت صامتين. في البيت وقع شجار شديد بين أبيل وأمّي. كانت تؤنبه دائماً بسبب سوء مزاجه. «لا يمكنك أن تذهب وتضرب أطفال أناس آخرين! أنت لست القانون! هذا الغضب، هذه ليست طريقة للعيش».

بعد ساعتين جاء والد الصبي إلى بيتنا لمواجهة أبيل. خرج أبيل إلى البوّابة، ورحت أراقبهما من داخل البيت. في تلك الأثناء، كان أبيل قد سكر أكثر. لم يكن والد الطفل يعرف إلى أين قادته قدماه. كان رجلاً متوسط العمر، هادئ الطبع. لا أتذكّر عنه أشياء كثيرة، لأنني كنت أراقب أبيل طوال الوقت. لم أرفع عينيّ عنه. كنت أعرف أين يكمن الخطر.

لم يكن أبيل قد اشترى مسدساً بعد. لكن أبيل لم يكن بحاجة

إلى مسدس ليضع خوف الله فيك. كنت أراقبه عندما وقف أمام الرجل تماماً. لم أسمع ما الذي قاله الرجل الآخر، لكنني سمعت أبيل يقول: «لا تعبث معي، يمكنني أن أقتلك». فاستدار الرجل بسرعة وعاد وركب سيارته وابتعد. كان يظن أنه جاء ليدافع عن شرف أسرته، لكنه غادر سعيداً لأنه نجا بحياته.

عندما بدأت أكبر قليلاً، أمضت أمّي وقتاً طويلاً وهي تحاول أن تعلّمني أشياء عن النساء. كانت تعطيني دروساً باستمرار، أحاديث صغيرة متناثرة، نصائح. لم تكن محاضرات كاملة عن العلاقات بين الرجل والمرأة. كانت تقول ذلك دائماً في شكل حكايات، ولم أكن أفهم سبب ذلك، لأنني كنت لا أزال طفلاً. وكانت النساء الوحيدات في حياتي هن أمّي وجدتي وخالتي وابنة خالتي. ومع أنني لم أكن أبدي أي اهتمام بالحبّ، كانت أمّي تصرّ على ذلك. كانت تتحدّث عن مجموعة كاملة من الأمور.

«تريفور، تذكّر أن الرجل لا يُعتبر رجلاً بمقدار ما يكسبه من نقود. يمكنك أن تظل رجل البيت وتكسب نقوداً أقل مما تكسبه زوجتك. ليس ما تملكه هو الذي يجعلك رجلاً، وإنما ما يجعلك رجلاً هو أنت نفسك. وأن تكون رجلاً لا يعني أن امرأتك يجب تكون أدنى مرتبة منك».

«تريفور، يجب أن تكون امرأتك هي المرأة الوحيدة في حياتك. لا تكن من أولئك الرجال الذي يجعل زوجته تتنافس مع أمّه. فالرجل الذي لديه زوجة لا يمكن أن يكون مديناً لأمّه طوال الوقت».

كان أدنى شيء يمكن أن يشجعها على تعليمي. فإذا كنت متجهاً إلى غرفتي، وقلت لها: «مرحباً يا أمّي»، ولم أرفع عيني، فإنها تقول: «لا، يا تريفور، انظر إليّ. اعترف بوجودي. أرني أنني

موجـودة بالنسـبة لـك، لأنـك كـما تعاملنـي ستعامل زوجتـك. إن النسـاء يحببـن أن يُلاحظـن. تعـال وأقـرّ بوجـودي ودعنـي أعـرف أنّك رأيتني. لا تجعلني أشعر أنك تراني فقط عندما تحتاج إلى شيء منـي».

كانـت تلـك الـدروس الصغيرة تتمحور دائـماً حـول العلاقات بين البالغين. كانت تحرص دائماً على تعليمي كيف أكون رجلاً ولم تعلّمني قط كيف أكون فتى، أو كيف أكلّم فتاة أو كيف أمرّر رسالة لفتاة في الصفّ -لم تكن تفعل ذلك أبداً. لم تكن تحدّثني إلاّ عن أشياء تتعلق بالكبار. حتى إنها كانت تعطيني محاضرات عن الجنس. وأنا طفل، كان ذلك يبدو شيئاً غريباً جداً.

«تريفور، لا تنس: إنك تمارس الجنس مع امرأة في عقلها قبل أن تمارسه في فرجها».

«تريفور، المداعبة تبدأ خلال النهار، إنها لا تبدأ في غرفة النـوم».

وكنت أقول: «ماذا؟ ما هي المداعبة؟ ماذا يعني ذلك؟»

(١٠)

تعليم أخرق، طويل، مأساوي أحياناً، ومهين غالباً لشابّ في الأمور المتعلقة بالقلب، الجزء الأول: عيد الحبّ

كان ذلك في أول سنة أمضيها في مدرسة ه. أ. جاك، المدرسة الابتدائية التي انتقلت إليها بعد أن تركت مدرسة ماريفال. كان يوم عيد الحبّ (فالنتاين) يقترب بسرعة. كنت في الثانية عشرة من عمري، ولم أكن قد احتفلت بعيد الحبّ بعد. لأننا لم نكن نحتفل به في المدرسة الكاثوليكية. كنت أعرف عيد الحبّ بأنه فكرة. ذلك الطفل الصغير العاري يرميك بسهم فتقع صريعاً في الحبّ. فهمت هذا الجزء، لكنني عرفت لأول مرة أنه نشاط. ففي مدرسة ه. أ. جاك، كانت تُجمع تبرعات في عيد الحبّ، فقد كان بعض التلاميذ يطوفون على التلاميذ الآخرين يبيعون أزهاراً وبطاقات معايدة. ذهبت لأسأل صديقة في الصفّ ماذا يجري.

سألتها: «ما هذا؟ ما الذي نفعله؟»

فقالت: «أوه، إنه عيد الحبّ. تختار شخصاً خاصاً وتقول له إنك تحبّه، وهو يبادلك الحبّ».

فقلت لنفسي، تبدو فكرة قوية. لكن كيوبيد (إله الحبّ) لم يصبني بسهمه بعد، ولا أعرف أحداً أصابه سهم من أجلي. لم أكن أعرف شيئاً عمّا يجري. وظلت الفتيات في المدرسة يسألنني طوال الأسبوع، «من هي حبيبتك؟ من هي حبيبتك؟» لم أكن أعرف كيف أجيبهن. قالت لي أخيراً فتاة، فتاة بيضاء: «يجب أن تسأل مايلين». ووافق التلاميذ الآخرون على ما قالته. «نعم، مايلين، يجب أن تسأل مايلين، يجب أن تسأل مايلين. إنكما تناسبان بعضكما».

كانت مايلين الفتاة التي أرافقها إلى البيت عندما نخرج من المدرسة. نحن نعيش الآن في المدينة، أنا وأمّي وأبيل الذي أصبح زوج أمّي الآن، وأخي الصغير الجديد، أندرو. كنّا قد بعنا بيتنا في إيدن بارك لنستثمر النقود في ورشة تصليح السيارات الجديدة التي يديرها أبيل. ثمّ انهار كلّ ذلك فانتقلنا إلى حيّ يدعى هايلندز نورث، يبعد عن مدرسة ه. أ. جاك حوالى ثلاثين دقيقة سيراً على الأقدام. كنا نغادر المدرسة كمجموعة بعد ظهر كلّ يوم، ثم يغادر كلّ تلميذ عندما يصل إلى بيته. كنت أنا ومايلين نسكن في أبعد منطقة، فكنّا نبقى معاً دائماً آخر شخصين، وكنا نمشي معاً حتى نصل إلى المكان الذي يجب أن ننفصل عنده، ويذهب كلّ واحد منّا في طريقه.

كانت مايلين فتاة لطيفة، تلعب التنس، ذكية، جميلة. كنت معجباً بها كثيراً. لم أكن مغرماً بها لأنني لم أكن أفكر بالفتيات بتلك الطريقة. كنت أحبّ مرافقتها، وكانت مايلين كذلك الفتاة الملوّنة الوحيدة في المدرسة، وكنت أنا الفتى المختلط الوحيد في المدرسة. كنّا الشخصين الوحيدين المتشابهين. كانت الفتيات البيض يلححن على أن أطلب من مايلين أن تكون حبيبتي، فكنّ يقلن: «تريفور، يجب أن تسألها. أنتما الاثنان الوحيدان. إنها مسؤوليتك». كانوا يقولون ذلك كأن نوعنا سينقرض إذا لم نتزاوج ونحافظ على النوع. وهذا ما عرفته في الحياة أن البيض يفعلونه حتى من دون أن يدركوا ذلك. «أنتما الاثنان متشابهان، لذلك يجب أن نرتّب لكما لقاء». صدقاً لم يخطر ببالي أن أسأل مايلين، لكن إصرار الفتيات الأخريات على ذلك جعلني أفكّر بالأمر. وهذا الشيء يحدث عندما يزرع أحدهم الفكرة في رأسك فتضطر إلى تغيير مفاهيمك.

«يوجد لدى مايلين شيء لك».

«صحيح؟»

«نعم، أنتما تناسبان بعضكما كثيراً».

«صحيح؟»

«تماماً».

«حسناً، إذا كان هذا ما ترونه».

كنت أحبّ مايلين بقدر ما كنت أحبّ أي شخص آخر.

أظن أنني كنت أحبّ فكرة أن أكون محبوباً. فقرّرت أن أسألها أن تكون حبيبتي في عيد الحبّ لكنني لم أكن أعرف كيف أفعل ذلك. لم أكن أعرف شيئاً عن كيف يمكن أن تكون عندي صديقة. كان يجب أن أتعلّم بيروقراطية الحبّ كلها في المدرسة. كان هناك الشيء الذي لا تتكلّم فيه مباشرة مع الشخص. فلديك شلة أصدقائك ولديها شلة صديقاتها، وكان على أصدقائك أن يذهبوا إلى صديقاتها ويقولون لهن: «إن تريفور يحبّ مايلين. إنه يريد أن تكون حبيبته في عيد الحب، ونحن نؤيد ذلك. إننا مستعدون للقيام بذلك بعد موافقتكن»، فتقول صديقاتها: «حسناً، هذا جيد. يجب أن نخبر مايلين». فيذهبن إلى مايلين، ويتشاورن معها، ويقلن لها رأيهن. «يقول تريفور إنه يحبّك. وإننا نؤيد ذلك. نظن أن أحدكما يناسب الآخر. ماذا تقولين؟» فتقول مايلين: «أحبّ تريفور»، فيقلن لها: «حسناً. لنأخذ خطوة إلى الأمام». فيعدن إلينا ويقلن: «تقول مايلين إنها موافقة وإنها تنتظر أن يقول لها تريفور ذلك في عيد الحبّ».

أخبرتني الفتيات بأن كلّ ذلك يجب أن يحدث. فقلت: «حسناً، لنفعل ذلك». رتّب الأصدقاء الأمر، وهذا ما جرى.

قبل عيد الحبّ بأسبوع، كنت أسير مع مايلين في طريقنا إلى البيت، وكنت أحاول أن أستجمع شجاعتي لأسألها. كنت متوتراً جداً. فلم أفعل ذلك من قبل. كنت أعرف الردّ. فقد أخبرتني صديقاتها بأنها ستقول لي نعم. "كان ذلك أشبه بما يجري في الكونغرس. تعرف أن لديك الأصوات قبل أن تذهب للتصويت،

لكنّ لا يزال الأمر صعباً لأن أيّ شيء قد يحدث. لم أكن أعرف كيف يمكنني أن أفعل ذلك، كان كلّ ما أعرفه هو أنني أريد أن يتم كلّ شيء بصورة صحيحة، فانتظرت حتى أصبحنا نقف خارج مطعم ماكدونالد، واستجمعت كلّ ما أملك من شجاعة والتفت إليها.

«إن عيد الحبّ يقترب وإني أتساءل، هل تريدين أن تكوني محبوبتي في عيد الحبّ؟»

«نعم. سأكون محبوبتك».

وتحت الأقواس الذهبية، قبّلنا بعضنا. كانت أول مرّة أقبّل فيها فتاة في حياتي. كانت مجرد نقرة خفيفة، تلامست فيها شفتانا لبضع ثوان فقط، لكنّها أحدثت انفجارات هائلة في رأسي. نعم! أوه، نعم. هذا. لا أعرف ما هو، لكنني أحببته. ثمة شيء استيقظ في داخلي. وكان ذلك خارج مطعم ماكدونالد، لذلك كان شيئاً خاصاً إضافياً.

أصبحت متحمساً جداً الآن. لقد أصبح عندي صديقة. أصبح عندي حبيبة. أمضيت الأسبوع كلّه وأنا أفكّر بمايلين، كنت أريد أن أجعل يوم الحبّ يوماً لا يُنسى. وفّرت مصروفي واشتريت أزهاراً ودبدوباً وبطاقة معايدة. كتبت قصيدة باسمها على البطاقة، وكان ذلك أمراً في غاية الصعوبة لأنه لا توجد كلمات جيّدة كثيرة على القافية تناسب اسم مايلين. (ماشين؟ رافين؟ سردين؟) ثمّ جاء اليوم المشهود. جهزت بطاقة عيد الحبّ والأزهار والدبدوب وأخذتها معي إلى المدرسة. كنت أسعد صبي على وجه الأرض.

خصص المعلمون فترة ما قبل الاستراحة لكي يتبادل الجميع بطاقات عيد الحبّ. كان يوجد بهو خارج الصفّ كنت أعرف أن مايلين ستأتي إليه، فانتظرتها هناك. كانت مظاهر الحبّ تحيط بي من كل جانب. فقد كان جميع الفتيان والفتيات يتبادلون البطاقات والهدايا، يضحكون ويقهقهون ويختلسون القبلات. انتظرت وانتظرت. ثم ظهرت مايلين أخيراً وسارت نحوي. كنت على وشك أن أقول لها «عيد حبّ سعيد»، عندما أوقفتني وقالت: «مرحباً تريفور. مممم، اسمع، لا أستطيع أن أكون صديقتك بعد الآن، لأن لورنزو طلب أن أكون محبوبته ولا يمكن أن يكون عندي محبوبان، لذلك فأنا صديقته الآن ولست صديقتك».

قالت ذلك كأنه أمر واقع فلم أعرف ماذا أفعل.

كانت تلك أول مرة يصبح عندي صديقة، فخيّل إليّ في البداية أن الأمور تسير هكذا.

فقلت: «حسناً، ممم، عيد حبّ سعيد».

مددت لها البطاقة والزهور والدبدوب. أخذتها وشكرتني، وذهبت.

أحسست أن أحداً أخذ مسدساً وأطلق عليّ النار وأحدث ثقوباً في كلّ بقعة من جسدي. لكن في الوقت نفسه، قال لي جزء منّي، «حسناً، هذا يبدو معقولاً»، لأن لورينزو كان كلّ شيء أما أنا فلا شيء. كان فتى يتمتع بشعبية وهو أبيض، وهو يقلب موازين كلّ شيء عندما يُطلب من الفتاة الملوّنة الوحيدة في المدرسة أن تخرج

معها. كان محبوباً لدى الفتيات مع أنه كان غبياً مثل صخرة. كان فتى ظريفاً لكنه سيئ. كانت الفتيات يكتبن له واجباته المدرسية. كان من ذلك النوع من الأشخاص. كان وسيماً أيضاً. يبدو أنه عندما كانت شخصيته تتشكل، استبدل كلّ نقاط ذكائه بنقاط الجمال. لذلك لم تكن لدي فرصة.

على الرغم من أنني كنت كسير القلب، فقد فهمت لماذا اتخذت مايلين خيارها هذا. فلو كنت في مكانها لاخترت لورينزو بدلاً مني. كان الجميع يركضون في الممرات وفي الملعب، يضحكون ويتسمون حاملين بطاقاتهم الحمراء والوردية والأزهار، وعدت إلى قاعة الصفّ وجلست وحدي وانتظرت حتى يرنّ الجرس.

كان البنزين بالنسبة للسيارة، مثل الطعام، مصروفاً لا يمكننا تجنّبه، لكن كان باستطاعة أمّي أن تقطع مسافة بالسيارة بخزّان بنزين أكثر من أيّ شخص قاد سيارة في تاريخ السيارات. فقد كانت تعرف كلّ الأساليب لتوفير البنزين. فعندما كانت تقود سيارتها الفولكسفاغن القديمة، الصدئة، في جوهانسبرغ، كانت تطفئ محرك السيارة عندما تتوقّف عند إشارة المرور، وعندما تسير الحركة من جديد، كانت تشغّل السيارة. تقنية التوقّف والتشغيل التي يستخدمونها حالياً في السيارات الهجينة؟ كانت تلك هي أمّي. كانت تقود سيارة هجينة قبل أن تُخترع السيارات الهجينة. كانت تعرف كيف تقود السيارة من دون أن تستهلك كمية كبيرة من البنزين. كانت تعرف أين توجد المنحدرات بين العمل والمدرسة، وبين المدرسة والبيت. كانت تعرف متى تضع ناقل الحركة في وضعية محايد. كانت تستطيع أن توقّت إشارات المرور كي تسير عبر التقاطعات دون أن تستخدم فرامل أو تفقد زخم الحركة.

في بعض الأحيان كانت تقود السيارة ولا توجد معنا نقود كافية لشراء لملء السيارة بالبنزين، فكنت اضطر إلى أن أنزل من السيارة وأدفعها، وإذا علقنا في زحمة المرور، كانت أمّي تطفئ المحرك وأنزل أمن السيارة وأدفعها ستّ بوصات في كل مرّة، ثم يأتي أشخاص آخرون ويعرضون علينا المساعدة.

«هل علقتما في المرور؟»

«لا. إننا على ما يرام».

«متأكدان؟»

«نعم».

«هل نستطيع مساعدتكما؟»

«لا».

«هل تحتاجين إلى سحب السيارة؟»

وماذا تقول؟ الحقيقة؟ «شكراً، لكنّنا مجرد شخصين فقيرين تطلب أمّ من ابنها أن يدفع السيارة؟»

كانت تلك من بين أكثر المواقف إحراجاً في حياتي، أدفع السيارة إلى المدرسة كما يفعل فلنتستونيس في أفلام الرسوم المتحركة. وبما أن التلاميذ الآخرين كانوا يسيرون في نفس الطريق إلى المدرسة، كنت أخلع سترتي حتى لا يعرف أحد من أي مدرسة أنا، وأدفن رأسي وأدفع السيارة، راجياً ألاّ يراني أحد.

(١١)

الغريب

بعد أن أنهيت الدراسة الابتدائية في مدرسة ه. أ. جاك، بدأت الصفّ الثامن في ثانوية ساندرينغهام. حتى بعد انتهاء نظام التميز العنصري، ظلّ معظم السود يعيشون في البلدات والمناطق التي خُصصت لهم في الماضي، حيث كانت المدارس الحكومية الوحيدة هي المدارس المتبقية من نظام البانتو. فقد كان الأطفال البيض الأثرياء -مع حفنة من الأطفال السود والملوّنين والهنود الذين يملكون مالاً أو الذين تمكنوا من الحصول على منح دراسية- يدرسون في مدارس خاصّة، باهظة التكاليف، لكنها تكفل لهم الذهاب إلى الجامعة. وكانت ثانوية ساندرينغهام من المدارس التي ندعوها «المدرسة النموذجية C» التي تعني مزيجاً من المدارس الحكومية والخاصة، تشبه المدارس المستقلة في أمريكا. كانت المدرسة ضخمة، تضم ألف تلميذ فيها مساحات واسعة تضم ملاعب تنس وملاعب رياضية أخرى ومسبحاً.

وبما أنها مدرسة نموذجية C وليست مدرسة حكومية، كانت تجذب الطلاب من جميع المناطق، فأصبحت عالماً صغيراً شب

متكامل في جنوب أفريقيا بعد نظام التفرقة العنصرية -مثالاً نموذجياً عمّا توجد في جنوب أفريقيا من إمكانات. وكان فيها طلاب بيض من الطبقة الغنية، وحفنة من الطلاب البيض من الطبقة المتوسطة، وعدد من الطلاب البيض من أبناء الطبقة العاملة. وكان فيها طلاب سود أصبحوا أغنياء حديثاً، وطلاب سود من أبناء الطبقة الوسطى، وطلاب سود من البلدات. وكانت تضم أيضاً طلاباً ملوّنين وأبناء هنود، لا بل يوجد فيها كذلك حفنة من الطلاب الصينيين. كان الطلاب فيها متكاملين كما لو كان نظام التفرقة العنصرية قد انتهى للتو. أما في مدرسة ه. أ. جاك، فقد كان العرق مقسّماً إلى كتل منفصلة. أما مدرسة ساندرينغهام فكانت أشبه بطيف من الألوان.

لا توجد كافيتريا في مدارس جنوب أفريقيا. وفي مدرسة ساندرينغهام كنّا نشتري طعام الغداء من كشك صغير، نأخذه ونذهب إلى أي مكان نريد في المدرسة لنتناوله -في الباحة، في الفناء، في الملعب، في أي مكان- وكان الطلاب ينفصلون ويتجمّعون ضمن الفئات التي ينتمون إليها. فقد ظلّ الناس يتجمّعون ويتقوقعون بحسب لونهم في أحيان كثيرة، وكان بإمكانك رؤية كيف يمتزجون ويتظلّ أحدهم في فيء الآخر. فقد كان معظم الطلاب الذين يلعبون كرة القدم من السود، ومعظم الطلاب الذين يلعبون التنس من البيض. وكان الطلاب الذين يلعبون الكريكت مزيجاً من كلّ هؤلاء. أما الطلاب الصينيون فكانوا يستندون عادة إلى حائط المبنى. وكان الطلاب المتقدمون يتسكعون في الباحة

حيث تتسكع الفتيات الجميلات أيضاً، بالإضافة إلى المهووسين بالكمبيوتر. إن ما يجعل هذه التجمّعات عرقية هو الطرق التي تتداخل فيها الطبقة والجغرافيا في العالم الخارجي الحقيقي. إذ يصادق الطلاب من الضواحي الطلاب من الضواحي، ويصادق الطلاب من البلدات أقرانهم من البلدات.

خلال فترة الاستراحة، بما أنني الفتى المختلط الوحيد بين ألف طالب آخر، كنت أواجه نفس المشكلة التي كنت أواجهها في ساحة الملعب في مدرسة ه. أ جاك: إلى أي جانب يجب أن أذهب؟ ومع أنه كانت هناك مجموعات مختلفة متعددة يمكنني أن أختار واحدة منها، فلم أكن مرشحاً طبيعياً لأيّ واحدة منها. فأنا لست هندياً ولا صينياً. وكان الطلاب الملوّنون لا يقبلوني بينهم لأنني داكن السواد، فلم يكن مُرحباً بي معهم. ولم أكن أستطيع الانضمام إلى الطلاب البيض لأنهم كانوا يذهبون دائماً للتسوّق، وإلى السينما، ويذهبون في رحلات -أشياء تحتاج إلى نقود. وبما أنني لم أكن أمتلك نقوداً كافية، فقد كنت خارج إطار هذه المجموعة أيضاً. أما المجموعة التي كنت أشعر بتقارب شديد معها فهي مجموعة الطلاب السود الفقراء. كنت أرافقهم وأنسجم معهم، لكن معظمهم كانوا يأتون إلى المدرسة بحافلات الميني باص من البلدات ومن سويتو ومن تيمبيسا ومن ألكساندرا. كانوا يأتون إلى المدرسة بتلك الحافلات كأصدقاء ويعودون إلى بيوتهم كأصدقاء. كانت لديهم مجموعاتهم الخاصّة بهم. وكانوا يلتقون في عطلة نهاية الأسبوع وخلال العطل المدرسية، ولم يكن باستطاعتي

أن أزورهم. فقد كانت سويتو تبعد عن بيتي أربعين دقيقة بالسيارة، ولم نكن نملك نقوداً لشراء البنزين. لذلك كنت أمضي الوقت بعد المدرسة وحدي، وأمضي عطل نهاية الأسبوع وحدي، فخلقت عالمي الصغير الغريب. فعلت ذلك بدافع الضرورة. فقد كنت بحاجة إلى أن أجد طريقة تناسبني، وكنت بحاجة إلى نقود أيضاً لشراء الوجبات الخفيفة والأشياء الأخرى التي يشتريها الطلاب الآخرون عادة. وهكذا أصبحت رجل الكشك الصغير.

بما أنني كنت أقطع مسافة طويلة إلى المدرسة، كنت أتأخر كلّ يوم. وكان يتعين عليّ أن أتوقّف عند مكتب المشرف لأسجّل اسمي في سجل الطلاب الذين سيُحتجزون بعد انتهاء الدوام. كنت زبوناً دائماً في هذا الاحتجاز. وكنت أجري لألحق بصفوفي الصباحية -الرياضيات، اللغة الإنكليزية، علم الأحياء، والمواد الأخرى. وكانت آخر حصة قبل الاستراحة مخصصة للاجتماع. فقد كان على الطلاب الاجتماع في قاعة الاجتماعات، حيث يجلس طلاب كلّ صفّ معاً، ثم يصعد المعلمون والمشرفون إلى المنبر ويتحدّثون عن الأنشطة الجارية في المدرسة -إعلانات، جوائز، أشياء من هذا القبيل- ثم يعلنون عن أسماء الطلاب الذين سيبقون بعد انتهاء الدوام، وكنت دائماً واحداً من هؤلاء. دائماً. كلّ يوم. كانت نكتة مستمرة. عندما كان المشرف يقول: «الطلاب الذين سيبقون للاحتجاز اليوم...» كنت أنهض واقفاً من تلقاء نفسي. كان ذلك أشبه بتوزيع جوائز الأوسكار وكنت أنا ميريل ستريب. في إحدى المرات نهضت واقفاً لكن المشرف نادى أسماء

التلاميذ الخمسة ولم يكن اسمي من بينهم، فانفجر الجميع في الضحك. صاح أحدهم، «أين اسم تريفور؟» فأخذ المشرف يدقق في الورقة ثم هزّ رأسه وقال: «لا، إنه غير موجود». فانفجرت القاعة كلّها بالصياح والتصفيق، «نعم».

فور انتهاء الاجتماع كان الطلاب يجرون في سباق إلى الكشك الصغير قبل أن يصبح الطابور طويلاً جداً لشراء الطعام. وكلّ دقيقة تمضيها وأنت تنتظر في الطابور ليست في صالح فترة استراحتك. فكلّما حصلت على طعامك أسرع، أمضيت وقتاً أطول في تناول الطعام، أو في اللعب بكرة القدم، أو في التسكع مع الآخرين. وإذا وصلت إلى الكشك متأخراً، يكون الطعام الجيد قد نفد.

"عندما كنت في ذلك السن، كنت أتميّز بشيئين حقيقيين، أولهما، أنني كنت لا أزال أسرع فتى في المدرسة؛ وثانيهما، أنني لم أكن متغطرساً." فما إن نخرج من ذلك الاجتماع، حتى أركض بسرعة كبيرة إلى الكشك كي أكون أول الواقفين أمامه. كنت دائماً الأول في الطابور، واشتُهرت بذلك، فبدأ التلاميذ الآخرون يأتون إليّ ويقولون: «هيه، هل تستطيع أن تشتري لي هذا؟» وكان الطلاب الواقفون ورائي يمتعضون لأن ذلك يُعتبر تجاوزاً للطابور، وهذا ما جعل الآخرين يتقربون مني أثناء الاجتماع ويقولون لي: «هيه، معي عشرة راند. وإذا اشتريت لي طعامي فإني سأعطيك رندين!». هنا عرفت أن الوقت يساوي نقوداً، وأدركت أن الطلاب الآخرين مستعدون ليدفعوا لي نقوداً لكي أشتري لهم طعامهم لأنني كنت أستطيع أن أركض بسرعة. فبدأت أقول للطلاب في الاجتماع:

«ما هي طلباتك. أعطني قائمة بما تريد، أعطني نسبة مئوية مما ستنفقه، وسأشتري لك الطعام».

بين عشية وضحاها حققت نجاحاً كبيراً. وأصبح الطلاب البدينون أهم زبائن لي. فقد كانوا يحبّون الطعام، لكنهم لا يستطيعون أن يركضوا. وهكذا أصبح جميع الطلاب البيض البدينين الأغنياء يقولون: «هذا رائع! لقد دللّني والديّ، معي نقود، وأصبحت لديّ الآن طريقة أستطيع أن أحصل من خلالها على الطعام من دون أن أبذل جهداً وأظل أستمتع بفترة استراحتي». وأصبح عندي عدد من الزبائن وبدأت أرفض طلبات طلاب آخرين. ووضعت قاعدة لنفسي: أن أقبل خمس طلبات في اليوم فقط، والأفضلية لمن يدفع أكثر. بدأت أكسب نقوداً حتى أصبح بإمكاني أن أشتري الطعام من النقود التي أكسبها من الطلاب الآخرين وبدأت أحتفظ بالنقود التي كانت تعطيني إياها أمّي كمصروف جيب. وأصبح بإمكاني أن أذهب إلى البيت بالحافلة بدلاً من أن أقطع الطريق مشياً أو أوفّر مبلغاً لشراء أي شيء أريده. كنت آخذ طلبات كلّ يوم، وما إن ينتهي الاجتماع، حتى أنطلق بسرعة جنونية وأشتري نقانق مقلية وعلبة كوك وكيك لكلّ شخص. وإذا دفعت مبلغاً إضافياً، يمكنك أن تخبرني أين تكون جالساً حتى أوصل لك طلبك.

وجدت مكاني. بما أنني لا أنتمي إلى أي مجموعة، تعلّمت أن أتنقل بسهولة كبيرة بين تلك المجموعات. كنت أطوف. كنت حرباء، لكن حرباء مثقفة. تعلّمت كيف أمتزج. أصبح بإمكاني

أن ألعب ألعاباً رياضية مع اللاعبين الآخرين. وأصبح بإمكاني أن أناقش المختصين في أمور الكمبيوتر. وأصبح بإمكاني أن أقفز إلى داخل الدائرة وأرقص مع التلاميذ القادمين من البلدات. بدأت أتنقل بين الجميع، أعمل، أدردش، أمزح، أوصل الطعام.

كنت مثل تاجر حشيش، لكن بفارق أنني تاجر طعام. فتاجر الحشيش يجد ترحيباً في المجموعة، لكنه لا يكون جزءاً من تلك المجموعة، وإنما يُدعى إليها مؤقتاً بسبب ما يستطيع أن يقدّمه. هكذا كنت. غريباً دائماً. عندما تكون غريباً، يمكنك أن تتقوقع داخل قوقعة، تستطيع أن تكون غير معروف، مخفياً، أو يمكنك أن تذهب في الاتجاه الآخر. تحمي نفسك بالانفتاح. لا تطلب أن تكون مقبولاً لكلّ ما هو أنت، وإنما الجزء من نفسك الذي تكون على استعداد أن تتقاسمه مع الآخرين. وكان هذا الجزء مني هو روح الدعابة. فمع أنني لم أكن أنتمي إلى مجموعة بعينها، تعلّمت أنني أستطيع أن أكون جزءاً من أيّ مجموعة تحبّ أن تضحك. فقد كنت آتي إليها وأوزع الطعام عليها وألقي بعض النكات. أمثّل لهم. أسمع قليلاً من أحاديثهم، أتعلّم المزيد عن مجموعتهم، ثم أغادر. لم أتجاوز قط حدود الترحيب بي. لم أكن شعبياً بينهم، لكنني في الوقت نفسه لم أكن مرفوضاً. كنت في كل مكان مع كل شخص، وفي الوقت نفسه، كنت وحيداً.

لا أندم على أيّ شيء فعلته في الحياة، وأيّ اختيار لم أتخذه. لكن أندم كثيراً على الأشياء التي لم أفعلها، والاختيارات التي لم أخترها، والأشياء التي لم أقلها. نمضي وقتاً طويلاً في الخوف من الفشل، الخوف من أن نُرفض. لكن الندم هو الشيء الذي يجب أن نخاف منه أكثر من أي شيء آخر. الفشل جواب. الرفض جواب. أما الندم فهو سؤال أبدي لن يكون لديك جواب عليه. «ماذا لو...» «لو أنني فقط...» «أتساءل ما الذي كان يمكن أن يكون...» لن تعرف أبداً، أبداً كيف، وسوف يلازمك طوال حياتك.

(١٢)

تعليم أخرق، طويل، مأساوي أحياناً، ومهين غالباً لشابّ في الأمور المتعلقة بالقلب، الجزء الثاني: الولع

في المدرسة الثانوية، لم يكن الاهتمام بالفتيات مأساة عانيت منها لأنني لم أكن ذلك الفتى المثير للانتباه في الصّف. حتى إنني لم أكن ذلك الفتى الوسيم، وإنما كنت فتى قبيحاً، ولم يكن سن البلوغ لطيفاً بي. فقد ملأ حبّ الشباب وجهي وكان الناس يسألونني ما هي المشكلة، وهل أعاني من حساسية إزاء شيء ما. كان ذلك النوع من حبّ الشباب الذي يعتبر حالة طبية، أطلق عليه الطبيب اسم «حبّ الشباب الشائع». لكننا لا نتحدّث هنا عن بثور، وإنما نتحدّث عن بثرات كبيرة مليئة بالقيح لها رؤوس سوداء كبيرة ورؤوس بيضاء. بدأت تظهر على جبيني، ثم انتشرت على جانبيْ وجهي وغطّت خديّ ورقبتي ثم تفشت في كل مكان.

لم أكن أحلق شعري الأجعد الكثيف المنفلت لأنه لم يكن لديّ

ثمن حلاقة، وكانت أمّي مستاءة أيضاً لأن ثيابي المدرسية تضيق عليّ بسرعة، ولكي توفر نقوداً، كانت تشتري لي ثياباً يبلغ قياسها ثلاثة أضعاف قياسي الحالي. فكانت سترتي طويلة جداً وبنطالي فضفاضاً وعريضاً جداً وحذائي واسعاً يخفق عندما أمشي. كنت أبدو مثل مهرّج. وبالطبع، لا ننسى قانون ميرفي، ففي السنة التي بدأت أمّي تشتري لي فيها ثياباً بمقاسات كبيرة كانت هي السنة التي توقّفتُ فيها عن النمو، فلم أعد أنمو لتصبح ثياب المهرّج التي أرتديها تلائمني، فبقيت أبدو كالمهرّج. وكان الشيء الوحيد الذي يميّزني هو طول قامتي، لكنني كنت أبدو طويلاً جداً سيئ المظهر: قدمان عريضتان، مؤخرة عالية. لم يكن ينفعني شيء.

بعد أن أصبحت كسير القلب في عيد الحبّ بسبب ما فعلته لي مايلين ولورينزو الوسيم، تعلّمت درساً ثميناً حول مصادقة الفتيات. وكان ما تعلّمته هو أنّ الفتيان الوسيمين يصادقون الفتيات الجميلات، والفتيان الذين يلقون نكاتاً ويُضحكون الآخرين يصادقون الفتيان الوسيمين مع صديقاتهم. وبما أنني لم أكن فتى وسيماً فلم يكن عندي صديقات. لقد فهمت هذه المعادلة بسرعة وعرفت مكانتي جيداً. فلم أعد أطلب من أي فتاة أن تخرج معي. لم تكن عندي صديقة، لا بل إنني لم أحاول.

كانت محاولة مصادقة فتاة ستحدث لي خللاً في النظام الطبيعي للأشياء. وكان جزء من نجاحي كفتى يوصل طلبات الطعام إلى الطلاب الآخرين يجعلني ألقى ترحيباً في كل مكان. كنت ألقى ترحيباً في كل مكان لأنني كنت نكرة. المهرّج الذي يكسو وجهه

حبّ الشباب والذي له قدمان كبيرتان وينتعل حذاء واسعاً. بالإضافة إلى ذلك لم أكن أشكّل تهديداً للفتيان الآخرين ولا حتى للفتيات. وعندما أصبحت معروفاً، لم أعد أجازف بأن يُرحّب بي لكوني نكرة. فقد كان الفتيان الذين يتمتعون بشعبية يحددون الفتيات الجميلات اللاتي يرغبون بهن. فعندما يقول أحدهم: «أحبّ زوليكا»، فإنك تعرف على الفور أن معركة كبيرة ستنشب إذا حاولت الاقتراب من زوليكا. وتلمساً للأمان، كانت أفضل وسيلة لي هي أن أبقى جانباً، أن أبتعد عن المشكلات.

في مدرسة ساندرينغهام، كانت المرات الوحيدة التي تنظر فيها الفتيات إليّ في الصّفّ عندما يرغبن في أن أمرر لهن رسالة إلى الفتى الوسيم في الصّفّ. وكانت هناك فتاة اسمها يوهنا. كنت أنا ويوهنا نذهب إلى نفس المدرسة بشكل متقطّع طوال حياتنا، فقد كنّا معاً في الروضة في ماريفال، ثمّ انتقلت إلى مدرسة أخرى، ثمّ التقينا في مدرسة ه. أ. جاك الابتدائية، ثمّ انتقلت إلى مدرسة أخرى. وأخيراً التقينا معاً في ثانوية ساندرينغهام. لذلك أصبحنا صديقين.

كانت يوهنا فتاة محبوبة من جميع الفتيات. وكانت زاهيرا أعزّ صديقاتها. كانت يوهنا جميلة. وكانت زاهيرا فاتنة. كانت زاهيرا فتاة ملوّنة من كاب مالاي، وكانت تشبه الممثلة سلمى حايك. كانت يوهنا تخرج مع الصبية الذين كانوا يتنافسون على مصادقتها. وبقدر ما كانت زاهيرا جميلة، كانت خجولة جداً، فلم يكن يجري وراءها فتيان كثيرون.

لم تكن يوهنا وزاهيرا تنفصلان عن بعضهما طوال الوقت. كانتا كلتاهما في الصفّ الأدنى مني مباشرة، لكن من حيث الشعبية كانتا تتقدمانني بثلاثة صفوف. كنت أمشي معهما لأنني أعرف يوهنا منذ زمن. ربما كانت مواعدة فتيات شيئاً مستبعداً بالنسبة لي، لكن التكلّم إليهن لم يكن كذلك، لأنني كنت أستطيع إضحاكهن. البشر يحبّون أن يضحكوا، ومن حسن حظي أن الفتيات الجميلات بشر. لذلك كنت أصادقهن بهذه الطريقة، لكن ليس بالطرق الأخرى. عرفت ذلك لأنه عندما كنّ يتوقّفن عن الضحك من النكات التي ألقيها والقصص التي أحكيها كنّ يقلن: «إذاً كيف تظن أنني أستطيع أن أجعل دانيال يطلب مني أن أخرج معه؟» كنت أعرف جدياً متى وأين أتوقف.

في الظاهر، حددت مكانتي بعناية بأنني فتى يسلّي الآخرين لا أشكل أي تهديد لهم، وفي السرّ كنت أشعر بحبّ جارف تجاه زاهيرا. فقد كانت فتاة في غاية الجمال ومسلية جداً. كنّا نترافق معاً وتدور بيننا أحاديث كثيرة. لم تكن تبارح تفكيري، لكن بسبب الحياة التي أعيشها لم أكن أعتبر نفسي جديراً بمصادقتها والخروج معها. فقلت لنفسي إنني سأحبّها طوال عمري، وأن هذا ما حدث.

في أحد الأيام قرّرت أن أضع خطة. فقرّرت أن أصادق زاهيرا وأظل صديقها كي أطلب منها أن ترقص معي في حفل التخرج. انتبه، كنّا آنذاك في الصفّ التاسع، وكان لا يزال أمامنا ثلاث سنوات حتى يحين موعد حفل التخرج. لكنّني قرّرت أن ألعب هذه اللعبة الطويلة. قررت أن آخذ وقتي، لأن هذا ما يحدث في

الأفلام، أليس كذلك؟ فقد شاهدت أفلاماً عن طلاب مدرسة ثانوية أمريكية. تظلّ تحوم حول الفتاة التي تريدها لفترة طويلة وتظهر لها أنك الشاب اللطيف بينما تصادق هي فتياناً آخرين، وفي النهاية تأتي إليك ذات يوم وتقول لك: «أوه، إنه أنت. إنه دائماً أنت. أنت هو الفتى الذي يجب أن أكون معه دائماً».

كانت هذه هي خطتي. خطة محكمة.

بدأت أرافق زاهيرا كلّما سنحت لي الفرصة. كنّا نتحدّث عن الفتيان، الفتيان الذين أحبّتهم والفتيان الذين أحبّوها. كنت أنصحها. ثم بدأت تخرج مع فتى اسمه غاري. بدآ يخرجان معاً. كان غاري يرافق مجموعة من الفتيان الذين يتمتعون بشعبية كبيرة، لكنه كان خجولاً، وكانت زاهيرا ترافق مجموعة الفتيات اللاتي يتمتعن بشعبية كبيرة لكنها كانت خجولة أيضاً، فرتب لهما أصدقاؤه وصديقاتها ذلك، مثل زواج مرتّب. لكن زاهيرا لم تحبّ غاري. قالت لي ذلك. كنّا نتحدّث عن كلّ شيء.

في أحد الأيام، لا أعرف كيف حدث ذلك، لكنني استجمعت شجاعتي وسألت زاهيرا عن رقم هاتفها. كان تلك قضية كبيرة في تلك الأيام عندما لم يكن الهاتف الخلوي قد وجد بعد، ولم يكن بإمكان أي شخص أن يخزّن رقم الآخرين أو يرسل لهم رسائل نصية وما إلى ذلك. لقد أعطتني رقم الهاتف الأرضي، هاتف بيتها الذي يمكن أن يردّ عليك أحد والديها. عندما كنّا نتحدّث بعد ظهر أحد الأيام في المدرسة، سألتها، «هل يمكنني أن أحصل

على رقم هاتفك؟ فقد أستطيع أن أتصل بك ونتكلّم في البيت أحياناً». عندما وافقت، انفجر دماغي. ماذا؟؟؟!!!! فتاة تعطيني رقم هاتفها؟؟؟!!! هذا جنون!!! ماذا أفعل؟؟!! كنت متوتراً جداً. لن أنسى ما حييت تلك اللحظة عندما كانت تقول لي رقم الهاتف رقماً رقماً وأنا أدوّنه، أحاول أن أثبّت يدي كي لا ترتعش. ودّع أحدنا الآخر وعاد كلّ منا إلى صفّه. قلت لنفسي، تريفور، تظاهر بأنك غير مهتم. لا تتصل بها فوراً. لكنني اتصلت بها في تلك الليلة، الساعة السابعة. كانت قد أعطتني رقمها في الساعة الثانية ظهراً. هكذا تظاهرت بعدم الاهتمام. يا فتى لا تتصل بها في الساعة الخامسة. هذا واضح جداً. اتصل بها في السابعة.

اتصلت بها في بيتها في تلك الليلة. ردّت عليّ أمّها. قلت لها: «هل لي أن أكلّم زاهيرا من فضلك؟» فنادتها أمّها وجاءت إلى الهاتف وتحدّثنا قرابة ساعة. ثم بدأنا نتكلم أكثر، في المدرسة، على الهاتف. لم أحدّثها قط عن مشاعري. ماذا يجيش في نفسي. لم أحرك ساكناً. لم أفعل شيئاً. كنت دائماً خائفاً أيضاً.

انفصلت زاهيرا عن غاري. ثمّ عاد أحدهما إلى الآخر، ثمّ انفصلا ثانية، ثمّ عادا. قبّلها ذات مرة، لكنّها لم تحبّ ذلك، فلم يقبّل أحدهما الآخر ثانية، ثمّ انفصلا تماماً. كنت أتحيّن فرصتي طوال الوقت. كنت أشاهد غاري ذا الشعبية وهو يحترق، وأنا لا أزال صديقها الجيد. نعم، كانت الخطة تسير على ما يرام. الرقص في حفل التخرج. بقي على ذلك سنتان ونصف فقط...

ثمّ جاءت العطلة المدرسية في منتصف السنة. عندما عدنا إلى المدرسة بعد انتهاء العطلة، لم أر زاهيرا في المدرسة، ثمّ لم تأت في اليوم الذي تلاه، ولم تأت إلى المدرسة في اليوم الذي أعقبه. ذهبت أخيراً أبحث عن يوهنا في الباحة لأسألها عنها.

سألتها، «هيه، أين زاهيرا؟ لم تأت إلى المدرسة منذ مدة. هل هي مريضة؟»

فقالت: «لا، ألم يخبرك أحد؟ لقد تركت المدرسة. لن تأتي إلى المدرسة بعد الآن».

«ماذا؟»

«نعم، تركت المدرسة».

كانت أول شيء يخطر لي هو، حسناً. هذا خبر. يجب أن أتصل بها لأعرف السبب.

سألتها، «إلى أي مدرسة انتقلت؟»

«لم تنتقل إلى أي مدرسة. لقد حصل والدها على عمل في أمريكا، وانتقلوا إلى أمريكا خلال العطلة. لقد هاجروا».

«ماذا؟»

«نعم. لقد ذهبت. كانت صديقة رائعة أيضاً. أنا حزينة جداً، ألست حزيناً مثلي؟»

«آه... نعم»، قلت، وأنا لا أزال أحاول أن أتمالك نفسي، «لقد أحببت زاهيرا. كانت فتاة لطيفة جداً».

«نعم، كانت حزينة جداً أيضاً لأنها كانت مغرمة بك. كانت تنتظر دائماً أن تطلب منها أن تخرج معها. حسناً، يجب أن أعود إلى الصف! إلى اللقاء».

ذهبت وتركتني واقفاً هناك، منهولاً. لقد صُدمت بالمعلومات الكثيرة التي انهالت عليّ في وقت واحد، أولاً أن زاهيرا ذهبت، ثمّ إنها ذهبت إلى أمريكا، ثم إنها كانت مغرمة بي. كان كما لو أنني أصبت بثلاث موجات متعاقبة من تحطّم القلب، كلّ موجة أضخم من الأخرى. تذكّرت الساعات التي أمضيناها ونحن نتكلّم في الباحة وعلى الهاتف، كلّ الأوقات التي كان من الممكن أن أقول لها: «زاهيرا، أنا أحبّك، هل تريدين أن تكوني صديقتي؟» عشر كلمات ربّما غيّرت حياتي لو كنت أمتلك الشجاعة لأقولها. لكنّ لم تواتني الشجاعة، وها قد ذهبت الآن.

في كلّ حيّ راقٍ توجد عائلة بيضاء واحدة لا تكترث بكل ذلك. إنك تعرف العائلة التي أتحدّث عنها. فهي لا تقصّ عشب حديقة بيتها، ولا تطلي السياج بالدهان، ولا تصلح السقف. بيتهم في حالة يرثى لها. وجدت أمّي ذلك البيت واشترته، وهكذا تسللت أسرة سوداء إلى حيّ يقطنه البيض، مثل هاي لاندز نورث.

كان معظم السود الذين ينتقلون إلى الضواحي التي يسكنها البيض ينتقلون إلى أحياء مثل براملي ولومباردي إيست، لكن لسبب ما اختارت أمّي حيّ هاي لاندز نورث الذي يقع في الضاحية، فيه أسواق كثيرة، معظم سكانه من العمال. ليس حيّاً غنياً لكنه هادئ تقيم فيه الطبقة المتوسطة. ومع أنه البيوت فيه قديمة كان مكاناً جميلاً للعيش فيه. في سويتو كنت الطفل الأبيض الوحيد في البلدة السوداء، وفي إيدن بارك، كنت الطفل المختلط الوحيد في الحيّ الملوّن، وفي هاي لاندز نورث كنت الطفل الأسود الوحيد في الضاحية البيضاء -بكلمة «الوحيد» أعني الوحيد- ففي هاي لاندز نورث، لم يهرب البيض، وكان معظم سكانه من اليهود، واليهود لا يهربون. فقد هربوا بما يكفي. لقد هربوا للتو. فما إن يصلوا إلى مكان، حتى يبنوا معبدهم، ويهيمنوا على ذلك المكان. وبما أن البيض الذين يعيشون حولنا لن يغادروا، فلن تأتي وراءنا عائلات كثيرة مثلنا.

لم يكن عندي أصدقاء في هاي لاندز نورث في معظم الأحيان. ولكي أكون صادقاً، كان اتخاذ أصدقاء في إيدن بارك أسهل بكثير. أما في الضواحي، فالجميع يعيشون وراء الجدران. فقد بُنيت أحياء البيض في جوهانسبرغ استناداً إلى خوف البيض -الخوف من جرائم السود، الخوف من انتفاضات السود والأعمال الانتقامية- لذلك يقبع كلّ بيت وراء جدار طوله ستّة أقدام، ويمتّد فوق ذلك الجدار سلك كهربائي. الجميع هنا يعيشون في سجن راقٍ عليه حراسة مشدّدة. فلا ترى أحداً يجلس على الشرفة الأمامية، ولا يلقي أحد السلام على جاره، ولا ترى أطفالاً يركضون بين المنازل. أقود درّاجتي في الحيّ طوال ساعات من دون أن أرى طفلاً واحداً، مع أنني أسمع أصواتهم. يلتقون كلّهم وراء جدران ليلعبوا ولم أكن أدعى للعب معهم. كنت أسمع أصوات أشخاص يضحكون ويلعبون فأنزل من على درّاجتي وأتسلل لأسترق النظر من شقوق الجدار فأرى حفنة من الأطفال البيض يسبحون في مسبح بيت أحدهم. كنت مختلس نظر، لكن بحثاً عن الصداقة.

بعد سنة فهمت سرّ اتخاذ أصدقاء سود في الضواحي: أبناء الخادمات. ففي جنوب أفريقيا، عندما تحمل خادمة فإنها تُطرد من البيت الذي تخدم فيه، وإذا كانت تلك الخادمة محظوظة، فإن العائلة التي تعمل عندها تبقيها عندها لكن الطفل الذي تنجبه يُرسل ليعيش مع أقاربه في مناطق السود، وتربّي هذه الأمّ

السوداء أطفال العائلة البيض، ولا ترى ابنها إلا مرة في السنة في أثناء العطل. لكن قلة قليلة من العائلات تسمح للخادمات اللاتي يعملن عندها بأن يبقى أطفالهن معهن ويعيشون في قسم الخادمات أو في شقق صغيرة تخصص لهن في باحة البيت الخلفية.

لفترة طويلة، كان هؤلاء الأطفال أصدقائي الوحيدين.

(١٣)

عمى الألوان

في مدرسة ساندرينغهام تعرّفت على هذا الصبي، تيدي. كان فتى ظريفاً، خفيف الروح، رائعاً. وكانت أمّي تسميه الأرنب باغز باني لأن لديه ابتسامة ماكرة وله سنّان كبيران بارزان بين أسنانه الأمامية. كنت أنا وتيدي مثل بيت يحترق، واحد من أولئك الأصدقاء الذين ما إن تتعرف عليهم حتى لا يعود بإمكانك أن تفترق عنهم. كنّا كلانا صبيين شقيين أيضاً. تعرّفي على تيدي جعلني أشعر بأنني فتى طبيعي. كنت أمثّل الرعب في داخل أسرتي، وكان هو يمثّل الرعب في داخل أسرته. وإذا جمعتنا معاً يتحوّل كلّ شيء إلى فوضى عارمة. في طريق عودتنا إلى البيت من المدرسة كنا نرمي حجارة على نوافذ البيوت، ونستمتع برؤيتها وهي تتهشم، ثم نهرب. كما نُحتجز في المدرسة بعد الدوام معاً دائماً. كان جميع من في المدرسة: المعلمون، التلاميذ، المدير، يعرفون أن تيدي وتريفور صديقان لا يفترقان.

كانت أمّ تيدي تعمل خادمة عند عائلة في لينكس فيلد، وهي ضاحية غنية قريبة من المدرسة. كانت المسافة من لينكس فيلد إلى

بيتي طويلة، حوالى أربعين دقيقة مشياً على الأقدام. كان بإمكاني أن أفعل ذلك. كان المشي كلّ ما كنت أفعله في ذلك الوقت تقريباً. لم يكن باستطاعتي أن أفعل شيئاً آخر. إذا كنت تحبّ المشي كثيراً، فأنت صديقي. تجولت أنا وتيدي في أرجاء جوهانسبرغ معاً سيراً على الأقدام. كنت أذهب مشياً إلى بيت تيدي ونتسكع هناك، ثمّ نعود إلى بيتي مشياً ونتسكع هناك، ثم نمشي من بيتي إلى وسط المدينة، وهي مسافة تستغرق أكثر من ثلاث ساعات مشياً لنتسكع هناك، ثم نعود أدراجنا ونقطع كلّ تلك المسافة مشياً مرة أخرى.

في ليلتيْ الجمعة والسبت، كنا نذهب إلى مركز التسوّق ونمضي فيه بعض الوقت. كان «مركز بلفور بارك للتسوق» قريباً من بيتي، ولم يكن مركزاً كبيراً، لكن تجد فيه كلّ شيء -رواق مقنطر، دار سينما، مطاعم، محلات تارغيت بنسخة جنوب أفريقيا، ومحلات غاب بنسخة جنوب أفريقيا. وبما أننا لا نملك نقوداً، لم نكن نذهب إلى مركز التسوّق لنشتري شيئاً أو لنشاهد فيلماً في السينما أو لنشتري طعاماً، وإنما كنا نذهب لنتسكع فيه فقط.

في إحدى الليالي، كنّا لا نزال نتسكع في مركز التسوّق الذي كان لا يزال مفتوحاً حتى بعد أن أُغلقت معظم المحلات فيه، لأن السينما كانت لا تزال تعرض أفلاماً. لم يكن يوجد لكشك القرطاسية الذي يبيع بطاقات معايدة ومجلات باب، وإنما كان له باب معدني مثل شبكة، يُسحب عبر المدخل ويُقفل بقفل. عندما مررنا أمام الكشك، أدركت أنا وتيدي أننا إذا مددنا ذراعينا عبر فتحات الباب، كنّا نستطيع أن نصل إلى ذلك الرف

المليء بالشوكولاتة. لم تكن تلك الشوكولاتة عادية -وإنما كانت شوكولاتة محشية بالكحول- كنت أحبّ الكحول. كنت أحبّه احبّه أحبّه. كنت طوال الوقت أسرق رشفات من كؤوس الكبار عندما كنت أستطيع ذلك.

عندما مددنا ذراعينا، تمكنّا من إمساك بعض حبات الشوكولاتة، أخذناها وشربنا الكحول الذي بداخلها ثم التهمنا الشوكولاتة. لقد نجحنا. ثم عدنا مرات ومرات وسرقنا المزيد والمزيد. كنا ننتظر حتى تبدأ المحلات تغلق، ثم نذهب ونجلس أمام البوابة، نتظاهر بأننا نتسكع هناك. كنا نراقب المكان جيداً لنتأكد من عدم وجود أحد، ثم يمدّ أحدنا يده ويأخذ قطعة شكولاتة، ونشرب الويسكي، ثم قطعة أخرى، ونشرب شراب الروم، ثم قطعة أخرى ونشرب البراندي. كنا نفعل ذلك في عطلة نهاية كلّ أسبوع لمدة شهر تقريباً، وكنا نجد متعة كبيرة في ذلك. ثمّ دفعنا حظّنا إلى اقصى حدّ ممكن.

كانت ليلة يوم السبت. كنّا نتسكع عند مدخل كشك القرطاسية ذاك، نستند إلى البوابة. عندما مددت ذراعي لأتناول قطعة شوكولاتة، ظهر حارس مركز التسوّق من الزاوية ورأى ذراعي ممدودة حتى كتفي. سحبت يدي وفيها حفنة من حبات الشوكولاتة. كان ذلك أشبه بفيلم. رأيته. رآني. جحظت عيناه. حاولت أن أبتعد، أن أتصرف بشكل طبيعي، ثمّ سمعته يصيح، «هيه! قف».

وهنا بدأت المطاردة. ركضنا باتجاه الباب الرئيسي. كنت أعرف أنه إذا قطع علينا حارس آخر الطريق عند بوابة الخروج فإننا سنُحاصر داخل المركز. أطلقنا ساقينا للريح. خرجنا من البوابة. عندما وصلنا إلى باحة وقوف السيارات، كانت شرطة مركز التسوّق تحاصرنا من جميع الاتجاهات، لا أقل من اثني عشر شرطياً. رحت أركض مطرقاً برأسي إلى الأسفل لأن هؤلاء الحرّاس يعرفونني. فقد كنت آتي إلى مركز التسوّق كثيراً، وكان الحرّاس يعرفون أمّي أيضاً لأنها كانت تأتي إلى مركز التسوّق هذا في أحيان كثيرة. وإذا عرفوني فقد قُضي عليّ.

رحنا نركض في باحة وقوف السيارات، نجري بين السيارات المركونة، وكان الحرّاس يجرون وراءنا مباشرة وهم يصيحون. عندما وصلنا إلى محطة البنزين على الطريق انعطفنا يساراً إلى الطريق الرئيسي. طاردونا، وطاردونا، وركضنا، وركضنا. كان ذلك فظيعاً. لكوني فتى شقياً كان خطر القبض عليّ نصف المتعة، والآن تأتي المطاردة. أحببت ذلك كثيراً. مع أنني كنت خائفاً فقد أحببت ذلك أيضاً. فهذه أرضي. هذا الحيّ حيّي. لا تستطيع أن تمسك بي في الحيّ الذي أعيش فيه لأنني أعرف كلّ زقاق وكلّ شارع فيه، وكلّ جدار حديقة خلفية يمكنني أن أتسلقه. أعرف كلّ سياج فيه فتحة يمكنني أن أنسلّ منها. أعرف كلّ شبر فيه وكل درب مختصر يمكن أن تتخيّله. منذ طفولتي كنت أدرس جميع الأماكن التي أذهب إليها، والمباني التي أوجد فيها، أرسم مخططات للمنافذ التي يمكنني أن أهرب منها دائماً. في حال حدث

شيء ما. في واقع الأمر، كنت فتى غريب الأطوار يكاد يكون دون أصدقاء، لكنني كنت أشعر دائماً بأنني رجل مهم وخطير يريد أن يعرف أين تكمن جميع كاميرات التصوير وأين توجد جميع منافذ الخروج.

كنت أعرف أننا لا نستطيع أن نركض إلى الأبد. كان علينا أن نضع خطة. عندما اجتزنا أنا وتيدي محطّة الإطفاء، كان هناك طريق ينعطف يساراً فيه نهاية مسدودة تنتهي بسياج معدني. كنت أعرف أنه توجد في السياج فتحة يمكننا أن نتسلل منها، وعلى الطرف الآخر يمتد حقل فارغ خلف مركز التسوّق يعيدك إلى الطريق العام ثمّ إلى بيتي. لا يستطيع شخص بالغ أن يتسلل من هذه الفتحة، لكن فتى مثلي يستطيع أن يفعل ذلك بسهولة. طوال السنوات التي كنت أتخيّل فيها أنني أعيش حياة عميل سري تحققت أخيراً. كلّ ما كنت أحتاج إليه الآن هو أن أجد منفذاً أستطيع أن أهرب منه، وقد وجدته الآن.

«تيدي، تعال من هنا»، صرخت به.

«لا، إنه طريق مسدود».

«نستطيع أن نجتازه! اتبعني».

لم يفعل ما قلته له. استدرتُ وجريتُ نحو الطريق المسدود، أما تيدي فراح يجري من الطريق الآخر. لحق به نصف شرطة مركز التسوّق، ولحق بي النصف الآخر. عندما صلت إلى السياج كنت أعرف جيداً كيف أتسلل من الفتحة فيه: الرأس، ثمّ الكتفين،

ساق واحدة، ثمّ أثنيها، ثمّ الساق الأخرى. فعلت ذلك. عندما وصل الحرّاس إلى السياج خلفي كنا قد أصبحت في الجانب الآخر ولم يعد بإمكانهم اللحاق بي. ركضت عبر الحقل نحو السياج في الجانب الآخر، خرجت من الحقل ووجدت نفسي على الطريق، على مسافة ثلاثة شوارع من بيتي. وضعت يديَّ في جيبي ومشيت إلى البيت. شخص آخر مهذب يتجوّل في الشارع.

عندما عدت إلى بيتي انتظرتُ تيدي. لم يأت. انتظرت ثلاثين دقيقة، أربعين دقيقة، ساعة. لم يظهر تيدي.

اللعنة.

جريت إلى بيت تيدي في لينكسفيلد. لم أجد تيدي هناك. ذهبت صباح يوم الإثنين إلى المدرسة، لكن تيدي لم يأت إلى المدرسة.

اللعنة.

قلقت. بعد المدرسة عدت إلى البيت ودقّقت في بيتي مرة أخرى، لا شيء. ثم في بيت تيدي، لا شيء. ثمّ جريت إلى البيت.

بعد ساعة جاء والدا تيدي. استقبلتهما أمّي عند الباب.

قالا لها: «لقد اعتُقل تيدي بتهمة السرقة من مركز التسوق».

اللعنة.

تنصّت على حديثهم كله من الغرفة الأخرى. منذ اللحظة الأولى كانت أمّي متيقنة بأنني متورط معه.

«حسناً، أين كان تريفور؟» سألتها.

قالا: «يقول تيدي إنه لم يكن مع تريفور».

شكّت أمّي في الأمر، وقالت: «ممم. هل أنتما متأكدان أنه لم يكن معه؟»

«لا، يبدو لا. تقول الشرطة إنه كان هناك طفل آخر، لكنّه هرب».

«إذن هو تريفور».

«لا، سألنا تيدي، وقال إنه لم يكن تريفور. قال إنه صبي آخر».

«ها... حسناً»، نادتني أمّي، وسألتني، «هل تعرف شيئاً عن هذا الأمر؟»

«أيّ أمر؟»

«قبضوا على تيدي بتهمة السرقة».

«ماذا!!؟» تظاهرت بالغباء، «لالا.... هذا جنون. لا أستطيع أن أصدق ذلك. تيدي؟ لا».

«أين كنت؟» سألتني أمّي.

«كنت في البيت».

«لكنك تكون دائماً مع تيدي».

هززت كتفي بلا مبالاة، وقلت: «لم أكن معه هذه المرة».

للحظة ظنت أمي أنها أمسكتني متلبّساً بالجريمة، لكن تيدي منحني حجة قوية. فعدت إلى غرفتي، معتقداً أنني بريء.

في اليوم التالي كنت في الصّفّ عندما نودي على اسمي في مكبر الصوت. «تريفور نوا، مطلوب إلى مكتب المدير». جميع التلاميذ صاحوا، «أووووه»، فقد كانت النداءات تُسمع في جميع الصفوف، لذلك أصبحت المدرسة كلها تعرف أنني في ورطة. نهضت وذهبت إلى مكتب المدير وانتظرت بقلق على مقعد خشبي غير مريح خارج الباب.

أخيراً خرج المدير، السّيد فريدمان، وقال: «تريفور، تعال». كان ينتظر داخل مكتبه رئيس أمن مركز التسوّق، وشرطيان في لباسهما الرسمي، ومعلّمتي أنا وتيدي، السّيدة فورستر. غرفة مليئة بهيئات صامتة متجهّمة الوجوه من رجال السلطة البيض تقف فوقي، الفتى الأسود المذنب. كان قلبي يخفق بقوة. جلست.

«تريفور، لا أعرف إن كنت تعرف ذلك»، قال السّيد فريدمان، «لكن تيدي اعتُقل منذ أيام».

«ماذا؟» تظاهرت بأنني لا أعرف شيئاً، «تيدي؟ أوه، لا، لماذا؟»

«بسبب السرقة. لقد طُرد من المدرسة، ولن يعود إلى المدرسة ثانية. نعرف أنه كان معه صبي آخر، وهؤلاء الشرطة يبحثون في

مدارس المنطقة للتحقيق في ذلك. لقد دعوناك إلى هنا لأن السّيدة فورستر قالت لنا إنك أعزّ صديق لتيدي، ونريد أن نعرف: هل تعرف أيّ شيء عن ذلك؟»

هززت رأسي وقلت: «لا، لا أعرف شيئاً».

«هل تعرف من كان مع تيدي؟»

«لا»

«حسناً». نهض واقفاً وسار نحو جهاز التلفزيون في زاوية الغرفة، ثم قال: «تريفور، يوجد لدى الشرطة شريط فيديو مسجلٌ فيه كل شيء. نريد أن تلقي عليه نظرة».

اللعنة.

بدأ قلبي يخفق بقوة في صدري. حسناً، كم الحياة مضحكة، قلت لنفسي. سأُطرد. سأدخل السجن. هذا ما سيحدث.

ضغط السّيد فريدمان على زر التشغيل في جهاز تشغيل الفيديو. بدأ الشريط. كان فيلماً صوّرته كاميرا الأمن بالأبيض والأسود، لكنّ بإمكانك أن ترى كل ما كان يجري مثل ضوء النهار. حتى أنه كان مصوراً من زوايا متعدّدة: أنا وتيدي نجري نحو الباب. كان لديهم كل شيء. بعد بضع ثوان، مدّ السّيد فريدمان يده وأوقف الشريط وأنا واقف على بعد بضعة أمتار، مجمّد في وسط الشاشة. خيّل إليّ أنه سيلتفت إليّ ويقول: «الآن، هل تريد أن تعترف؟» لكنه لم يفعل.

قال: «تريفور، هل تعرف أيّ فتيان بيض يرافقون تيدي؟»

كدت أتغوط على نفسي. «ماذا؟»

نظرت إلى الشاشة وأدركت: كان تيدي داكن البشرة، وأنا فاتح البشرة. بشرتي بلون الزيتون. لكن الكاميرا لم تستطع أن تلتقط اللون الفاتح والداكن في الوقت نفسه. فعندما تضعني على شاشة بالأبيض والأسود بجانب شخص أسود، لن تتعرف الكاميرا عليّ. وإذا كان على الكاميرا أن تختار، فقد اختارتني كأبيض. كان لوناً مضخماً. في هذا الفيديو، كان هناك شخص أسود وشخص أبيض. لكنه أنا. كانت الصورة مغبشة، ولم تكن ملامح وجهي واضحة، لكنك إذا أمعنت النظر إليها فهو أنا، أعزّ أصدقاء تيدي. فأنا صديق تيدي الوحيد. أنا المتواطئ المحتمل الوحيد. كان عليك أن تشكّ على الأقل بأنه أنا. لكنهم لم يفعلوا ذلك. استجوبوني لمدة عشر دقائق لأنهم كانوا متيقنين بأنني أعرف ذلك الصبي الأبيض.

«تريفور، أنت أعزّ أصدقاء تيدي. قل لنا الحقيقة. من هو هذا الصبي؟»

«لا أعرف».

«ألا تميّزه أبداً؟»

«لا».

«ألم يذكره تيدي لك أبداً؟»

«أبداً».

في لحظة محددة بدأت السّيدة فورستر تدرس قائمة بجميع الصبية البيض الذين تظن أنهم ربما كانوا هم.

«هل هو ديفيد؟»

«لا».

«ريان؟»

«لا».

«فريدريك؟»

«لا».

ظننت أنها خدعة، وانتظرت حتى يلتفتوا إليّ ويقولوا لي: «إنه أنت». لكنهم لم يفعلوا. في لحظة ما، شعرت بأنني غير مرئي. أردت أن أقفز وأشير إلى شاشة التلفزيون وأقول: «هل أنتم عميان؟ هذا أنا. ألا تستطيعون أن تروا إنه أنا؟» لكن بالطبع لم أفعل ذلك. ولم يستطيعوا أن يروا ذلك. كان هؤلاء الناس مهووسين بعرقهم إلى حد أنهم لم يستطيعوا أن يروا أنّ الشخص الأبيض الذي يبحثون عنه جالس أمامهم تماماً.

أخيراً أعادوني إلى الصّف. أمضيت بقيّة اليوم والأسبوعين التاليين بانتظار أن يسقط الحذاء الآخر، أنتظر حتى تأتي مكالمة لأمّي تقول: «لقد وجدناه»، لكن تلك المخابرة لم تأت.

توجد في جنوب أفريقيا إحدى عشرة لغة رسمية. وبعد مجيء النظام الديمقراطي، قالوا: «حسناً، كيف يمكننا أن نحافظ على النظام دون أن تشعر الفئات المختلفة الأخرى بأنها ظلت خارج السلطة مرة أخرى؟» فاللغة الإنكليزية لغة عالمية وهي لغة المال ووسائط الإعلام، لذلك يجب أن نحافظ عليها. وقد أرغم الكثيرون على تعلّم بعض اللغات الأفريقية، فمن المفيد الإبقاء عليها أيضاً. بالإضافة إلى كلّ ذلك، فإننا لا نريد أن تشعر الأقلية البيضاء بأنها منبوذة في جنوب أفريقيا الجديدة، حتى لا يأخذوا أموالهم ويغادروا البلد.

من بين اللغات الأفريقية، فإن أكبر عدد من السكان المحليين يتكلّمون لغة الزولو، لكنّنا لا نستطيع أن نحافظ عليها من دون أن نحافظ أيضاً على لغات الإكسهوزا والتسوانا والنديبيل، وهناك السوازي، والتسونغا، والفيندا، والسوثو، والبيدي. يجب إرضاء جميع الفئات الرئيسية، وكان نتيجة ذلك أنّنا جعلنا إحدى عشرة لغة لغة رسمية. ما هذه إلاّ اللغات الرئيسية التي يجب الاعتراف بها لكن هناك عشرات اللغات الأخرى.

في جنوب أفريقيا يوجد برج بابل. ففي كلّ يوم ترى أشخاصاً ضائعين في اللغة، يحاولون أن يفهموا الأحاديث التي تدور ويعرفوا ما الذي يقوله الشخص الآخر. وتكاد تكون الزولو والتسوانا أكثر لغتين شيوعاً، أما التسونغا والبيدي فهما

هامشيتان. وكلما كانت لغتك شائعة أكثر، قلّت إمكانية تعلمك لغات أخرى. وكلما كانت لغتك هامشية أكثر، من المرجح أن يتعلم لغتين أو ثلاث لغات. ففي المدن يتكلّم معظم الناس، على الأقل، شيئاً من الإنكليزية وقليلاً من الأفريكانية لتسيير أمورهم. يصادف أن تكون موجوداً في حفلة مع عشرة أشخاص آخرين يدور الحديث بينهم بعبارات من لغتين أو ثلاث لغات مختلفة، فلن تفهم جزءاً من الحديث الدائر، وقد يقوم أحد بترجمتها لك بسرعة كي تفهم فحوى الحديث، ثم تفهم باقي الحديث من السياق. الشيء المجنون في كلّ ذلك هو أن هذا ينجح، على نحو ما. المجتمع مستمر.

(١٤)

تعليم أخرق، طويل، مأساوي أحياناً، ومهين غالباً لشابّ في الأمور المتعلقة بالقلب، الجزء الثالث: الرقص

عندما انتهت المدرسة الثانوية أصبحت رجل أعمال. فقد تطور عملي في توصيل الطعام للتلاميذ الآخرين وأصبح إمبراطورية صغيرة شملت بيع الأقراص المدمجة (سي دي) المقرصنة التي كنت أنسخها في البيت. فقد أقنعت أمّي، المقتصدة جداً، بأنّني بحاجة إلى جهاز كمبيوتر من أجل المدرسة. لم يكن ذلك صحيحاً، وإنما كنت أريده لكي أتصفّح الإنترنت وألعب لعبة ليشر سوت لاري. لكنني تمكنت من إقناعها، فرضخت واشترته لي. وبفضل الكمبيوتر والإنترنت والهدية التي قدّمها لي أحد الأصدقاء وهي مسجّل أقراص سي دي، دخلت إلى دنيا الأعمال.

كنت قد حددت طريقي، وكنت أمضي وقتاً رائعاً. كنت سعيداً بحياتي حتى إنني لم أكن أفكّر بمصادقة الفتيات. كانت

الفتيات الوحيدات في حياتي هن الفتيات العاريات اللاتي كنّ يظهرن على شاشة الكمبيوتر. فعندما كنت أحمّل موسيقى على أقراص السي دي، كنت أدخل إلى غرف الدردشة، ثم أتصفح مواقع البورنو هنا وهناك. لم يكن هناك فيديو آنذاك، وإنما صور فقط. كانت مواقع البورنو على الإنترنت تجعلك تفقد صوابك اليوم، لأن تحميل الصور كان يستغرق وقتاً طويلاً جداً آنذاك. لا يمكن مقارنته بالسرعة الآن. فقد كان عليك أن تمضي خمس دقائق كاملة وأنت تحدّق في وجهها حتى تميّزها كشخص، ثم يظهر الثديان بعد بضع دقائق، وعندما تصل إلى باقي أعضاء جسمها، تكون قد أهدرت وقتاً طويلاً.

في شهر أيلول (سبتمبر) في الصفّ الثاني عشر، كان موعد حفلة التخرج قد بدأ يقترب. الحفلة الراقصة الكبيرة في حفل التخرج. إنها الحفلة الكبيرة. ومرة أخرى واجهتني نفس المشكلة التي واجهتني في عيد الحبّ، طقوس غريبة أخرى لم أفهمها. كلّ ما أكنت أعرفه هو، حسب الأفلام الأمريكية التي شاهدتها، أنك تفقد عذريتك في تلك الحفلة. تستقل سيارة ليموزين ثم تفعل ذلك الشيء مع الفتاة التي ترافقك. كان هذا مرجعي الوحيد عن حفلة التخرج. لكنّي كنت أعرف القاعدة: الفتيان الوسيمون يصادقون الفتيات الجميلات، والفتيان الذين يتمتعون بحس الفكاهة يصادقون الفتيان الوسيمين مع صديقاتهم. لذلك قررت ألا أذهب إلى الحفلة، وإذا ذهبت فإني سأكون وحدي.

كان هناك وسيطان يعملان معي لتوزيع أقراص السي دي،

هما: بونغاني وتوم. كانا يبيعان الأقراص التي أنسخها لقاء نسبة يحصلان عليها. كنت قد التقيت بتوم في الرواق المقنطر في مركز التسوّق بلفور بارك. ومثل تيدي، كان يقيم في مكان قريب من بيتي لأن أمّه كانت تعمل خادمة، وكان توم في نفس الصفّ الذي كنت فيه لكنه كان يذهب إلى مدرسة حكومية، نورثفيو، وهي مدرسة للغيتو بكل معنى الكلمة، وكان توم يبيع أقراص السي دي هناك.

كان توم ثرثاراً، مفعماً بالنشاط، وكان ماكراً ومخادعاً أيضاً، يحاول دائماً أن يعقد صفقة مع أحد، يستطيع أن يقنع الآخرين بأن يفعلوا أيّ شيء. كان شاباً رائعاً، لكنه مجنون وكذاب أشر أيضاً. ذهبت معه ذات يوم إلى هامانسكرال، المستوطنة التي يقطنها السود. وكما يوحي اسمها بالأفريكانية، فإن هامانسكرال تعني حظيرة (كرال) هامان، وكانت مزرعة يملكها رجل أبيض. كانت المناطق الاصلية، فيندا وغازانكولو وترانسكي هي المناطق التي يسكنها السود فعلياً، ورسمت الحكومة حدوداً حولهم، وقالت: «ابقوا هناك». كانت هامانسكرال ومستوطنات مشابهة أخرى مناطق خاوية على الخريطة أعيد توطين السود فيها. هذا ما كانت الحكومة تفعله: تجد رقعة أرض قاحلة، متربة، عديمة الفائدة، فتحفر فيها صفّا وراء صفّ من الحفر في الأرض -ألف مرحاض لتخدم أربعة آلاف عائلة، ثمّ يُجلون الناس بالقوّة من المنطقة التي يحتلها البيض بصورة غير قانونية ويلقون بهم في بقعة مهجورة ويقدمون لهم ألواحاً من الخشب المعاكس والحديد

المتموّج، ويقولون لهم: «هنا، هذا هو بلدكم الجديد. ابنوا بيوتاً لكم. حظاً سعيداً». كنا نشاهد ذلك في نشرات الأخبار. كان ذلك يشبه أحد برامج الواقع التلفزيونية العديمة الرحمة للتصارع على البقاء، ولم يكن أحد منهم يكسب أي نقود. [11]

بعد ظهر أحد الأيام، عندما كنا في هامانسكرال، قال لي توم إنه سيأخذني إلى عرض للمواهب. في ذلك الوقت، كنت قد اشتريت حذاء ماركة تيمبرلاند. كان هذا الشيء الوحيد الجيد الذي أملكه. في ذلك الحين، لم يكن لدى أحد في جنوب أفريقيا تقريباً حذاء من ماركة تيمبرلاند. كان من المستحيل الحصول عليه، وكان الجميع يريدون أن ينتعلوا واحداً مثله لأن مغني الراب الأمريكيين كانوا ينتعلونه. كنت قد وفرّت مبلغاً من المال من عملي في توصيل الطعام وبيع أقراص السي دي التي أنسخها. عندما كنا نستعد للذهاب، قال لي توم: «لا تنس أن تنتعل حذاء التيمبرلاند».

كان برنامج المواهب الذي يقام في قاعة الحيّ الصغيرة منفصلاً عن الواقع من حوله. عندما وصلنا، بدأ توم يصافح جميع الحاضرين ويتبادل الحديث معهم. كان هناك غناء، رقص، قليل من الشعر. ثمّ صعد المضيف إلى المسرح وقال:

« Re na le modiragatsi yo o kgethegileng. Ka kopo amogelang

... Spliff Star»

- (يوجد معنا فنان خاصّ، مغني الراب الذي جاء خصيصاً من أمريكا. أرجو أن ترحبّوا بـ..... سبليف ستار).

كان سبليف ستار يغني الراب مع بوستا رايمز في ذلك الوقت. جلست هناك، مضطرباً. ماذا؟ سبليف ستار؟ في هامانسكرال؟ فالتفت جميع الحاضرين إليّ وراحوا ينظرون إليّ. اقترب مني توم وهمس في أذني.

«يا رجل، اصعد إلى المسرح».

«ماذا؟»

«هيا اصعد إلى المسرح».

«يا رجل، عمَّ تتحدّث؟»

«يا رجل، أرجوك، ستضعني في ورطة كبيرة. لقد دفعوا لي نقوداً للتو».

«نقود؟ أيّ نقود؟»

بالطبع، لم يكن توم قد أخبرني ما الذي قاله لهؤلاء الناس الذين أحضر لهم مغني راب مشهور من أمريكا ليغني في برنامج المواهب. وكان قد طلب منهم أن يدفعوا سلفاً لقاء مشاهدة هذا العرض، وكنت أنا، في حذائي التيمبرلاند، مغني الراب الأمريكي المشهور ذاك.

«عليك اللعنة»، قلت، «لن أتحرك من هنا».

«أرجوك يا رجل، أتوسل إليك. أرجو أن تصنع لي هذا المعروف. أرجوك. توجد هذه الفتاة هناك، وأريد أن أصادقها،

وقلت لها إنني أعرف جميع مغني الراب هؤلاء... أرجوك. أتوسل إليك».

«يا رجل، أنا لست سبليف ستار. ماذا سأفعل؟»

«غني أغاني الراب لبوستا رايمز».

«لكني لا أعرف كلمات تلك الأغاني».

«لا يهمّ. هؤلاء الناس لا يعرفون الانكليزية».

«اللعنة».

صعدت إلى المسرح وكان توم يؤدي بعض حركات الملاكمة «بف با، بف بف با -بف با» عندما أتعثّر ببعض كلمات أغاني بوستا رايمز التي كنت أختلقها وأنا أغني. انفجر الجمهور بالهتافات والتصفيق. مغني راب أمريكي جاء إلى هامانسكرال، وكان ذلك أكثر شيء ملحمي رأيته في حياتي.

هذا هو توم.

بعد ظهر أحد الأيام، جاء توم إلى بيتي وبدأنا نتحدّث عن حفلة التخرج. قلت له إنه لا توجد عندي صديقة، ولا أستطيع أن أحصل على صديقة، ولن أحصل على صديقة.

قال: «يمكنني أن أدّبر لك فتاة ترافقك إلى حفلة التخرج».

«لا، لا تستطيع».

«نعم، أستطيع. لنعقد صفقة».

«لا أريد أياً من صفقاتك يا توم».

«لا، اسمع، ها هي الصفقة. إذا أعطيتني نسبة أفضل من بيع أقراص السي دي التي أبيعها، بالإضافة إلى بعض الموسيقى المجّانية، سأعرّفك على أجمل فتاة رأيتها في حياتك، وسترافقك إلى الحفلة».

«حسناً، سأوافق على هذه الصفقة لأنها لن تحدث أبداً».

«اتفقنا؟»

«اتفقنا، لكنّ ذلك لن يحدث».

«لكن هل اتفقنا؟»

«اتفقنا».

«حسناً، سأجد لك صديقة. ستكون أجمل فتاة رأيتها في حياتك، وستأخذها إلى حفلة التخرج وستكون السوبر ستار هناك».

كانت الحفلة ستقام بعد شهرين. وسرعان ما نسيت توم وصفقته السخية. ثمّ جاء إلى بيتي بعد ظهر أحد الأيام ومدّ رأسه في غرفتي.

«وجدت الفتاة».

«حقاً؟»

«نعم. يجب ان تأتي وتقابلها».

'' كنت أعرف أن توم يكذب كثيراً، لكن الشيء الذي يجعل رجلاً مخادعاً ناجحاً هو أنه لا يعطيك شيئاً على الإطلاق. إنه يملك فقط حتى تظل تصدّقه. '' كان توم قد عرّفني على عدة نساء جيلات، لم يكن يخرج معهن، لكنّه كان يقول لهن أشياء كثيرة وكنّ يصدقنه، وكان دائماً يوجد بينهن. فعندما قال إن سيعرّفني على فتاة، لم أشك في كلامه. صعدنا إلى الحافلة وتوجّهنا إلى المدينة.

كانت الفتاة تسكن في بناية خربة ذات طوابق في وسط المدينة. عندما وصلنا إلى البناية رأينا فتاة تتكئ على درابزين الشرفة ولوّحت لنا بأن ندخل. قال لي توم هذه ليراتو أخت الفتاة التي سيعرفني عليها. هيا. كان يريد أن يصادق ليراتو، ويرّتب لي موعداً مع أختها - هذا ما كان يخطط له - طبعاً كان توم يتلاعب بنا.

كان مدخل البناية معتماً، وكان المصعد معطلاً، فصعدنا الدرج طوابق عدة. استقبلتنا الفتاة ليراتو ودعتنا إلى الدخول إلى الشقّة. في غرفة الجلوس كانت تجلس تلك المرأة العملاق، أقصد حقاً، امرأة بدينة جداً. قلت، أوه، يا توم، بدأت أفهم مزحتك. لقد لعبتها جيداً. كان توم يحب المزاح كثيراً.

«هل هذه هي الفتاة؟» سألته.

فقال: «لا، لا، لا، ليست هذه صديقتك. هذه أختها الكبيرة.

صديقتك هي بابيكي. لدى بابيكي ثلاث أخوات أكبر منها، وليراتو أختها الأصغر. لقد ذهبت بابيكي إلى المخزن لشراء بعض المواد وستعود بعد قليل».

انتظرنا، تحدّثنا مع الأخت الكبرى. وبعد عشر دقائق فُتح الباب ودخلت أجمل فتاة رأيتها في حياتي. كانت... يا إلهي. عينان جميلتان، بشرة بنيّة ذهبية رائعة كأنها تلمع. لم أر فتاة في مدرستي الثانوية في جمالها.

«هاي»، قالت.

«هاي»، أجبت.

صُعقت. لم أكن أعرف كيف أتكلّم مع فتاة بهذا الجمال. كانت خجولة ولم تتكلّم كثيراً أيضاً. مرت فترة من الصمت المحرج. من حسن الحظ أن توم لم يتوقف عن الكلام. تدّخل على الفور وسوّى الأمور. قال: «تريفور، هذه بابيكي. بابيكي هذا تريفور»، وتحدّث باستفاضة وراح يمتدحني ويقول كم أنا شاب عظيم، وقال إنها تتطلّع لمرافقتي إلى حفلة التخرج لنرقص، وكلّ تلك التفاصيل. مكثنا قليلاً، ثم قال توم إنه مضطر لأن يذهب. عندما أصبحنا عند الباب، التفتت بابيكي وابتسمت ولوّحت لي.

«باي».

«باي».

عندما خرجنا من البناية كنت أسعد رجل على وجه الأرض.

لم أصدق ما جرى. أنا ذلك الفتى الذي لا يستطيع أن تكون عنده صديقة في المدرسة، وقد أقنعت نفسي بأنه لن تكون عندي صديقة أبداً، ولم أكن أعتبر نفسي أنني جدير بأن تكون عندي صديقة. أما الآن فإنني سأذهب إلى حفلة التخرج بصحبة أجمل فتاة في العالم.

في الأسابيع التالية ذهبنا إلى هيلبرو مرات عدة لزيارة بابيكي وأخواتها وصديقاتها. كانت عائلة بابيكي تنتمي إلى قبيلة بيدي، إحدى أصغر القبائل في جنوب أفريقيا. كنت أحبّ أن أتعرّف على أناس من خلفيات متعددة، وكنت أستمتع بذلك كثيراً. كانت بابيكي وصديقاتها ما نطلق عليهم أمابهوجوا. فقد كانوا فقراء مثل معظم السود الآخرين، لكنّهم كانوا يتصرّفون كما لو كانوا غير ذلك. فقد كانوا يرتدون آخر صرعة في الثياب ويتصرّفون كأنهم أغنياء. والأمابهوجوا مستعد لأن يشتري قميصاً بالدين ويسدّد ثمنه طوال سبعة شهور. وهم يعيشون في أكواخ وينتعلون أحذية جلدية إيطالية تكلّف الآلاف. مجموعة مثيرة للاهتمام.

لم نخرج أنا وبابيكي وحدنا قط. كنا دائماً معاً في صحبة آخرين. كانت فتاة خجولة، وكنت أشعر بالتوتر في حضورها معظم الوقت، لكنّنا كنا نمضي وقتاً ممتعاً. كان توم يجعل الجميع يمضون وقتاً جيلاً. وعندما كنت أودعها كانت بابيكي تعانقني، حتى أنها طبعت على خدي قبلة صغيرة ذات مرة. شعرت أنني في الجنة. وكنت أردد لنفسي، نعم، لقد أصبحت عندي صديقة. يا له من شيء رائع.

عندما اقترب موعد الحفلة، بدأت ازداد توتراً. فلم تكن عندي سيارة، ولا توجد عندي ثياب أنيقة لائقة. وكانت هذه أول مرّة أخرج فيها مع فتاة جميلة، وكنت أريد أن يكون ذلك شيئاً مثالياً.

كنا قد انتقلنا إلى حيّ هايلندز نورث عندما لم تعد ورشة زوج أمّي تعمل جيداً، ونقل ورشته إلى البيت. حوّل باحة بيتنا الكبيرة والكراج في الخلف إلى ورشة. وكنت ترى دائماً ما لا يقل عن عشر أو خمس عشرة سيارة مركونة في الممر وفي الباحة وفي الشارع، سيارات الزبائن التي كان أيبل يصلحها والسيارات القديمة التي يحتفظ بها. بعد ظهر أحد الأيام، كان توم عندي في البيت، وراح يحكي لأبيل عن صديقتي، فقرّر أبيل أن يكون سخياً معي، وقال إنني أستطيع أن آخذ إحدى سياراته إلى الحفلة.

كانت توجد سيارة مازدا حمراء مركونة منذ فترة طويلة، قطعة خردة مهترئة لكنّها كانت تعمل. استعرتها منه عدة مرات، لكن السيارة التي كنت أريد أن آخذها هي سيارة بي إم دبليو التي يستخدمها أبيل. كانت قديمة ومهترئة مثل سيارة الـ مازدا، لكن سيارة بي إم دبليو تظل بي إم دبليو. فتوسلت إليه بأن يسمح لي بأن آخذ هذه السيارة.

«أرجوك، أرجوك، هل يمكنني أن آخذ سيارة بي إم دبليو؟»

«لا تحلم بذلك».

«أرجوك. هذه أعظم لحظة في حياتي. أرجوك، أتوسل إليك».

«لا».

«أرجوك».

«لا. يمكنك أن تأخذ الـ مازدا».

هنا تدّخل توم الذي كان دائماً مفاوضاً جيداً.

قال له: «أخي أيبل، أظن أنك لم تفهم. لو رأيت الفتاة التي سيرافقها تريفور إلى الحفلة، لفهمت لماذا هذه السيارة هامة جداً بالنسبة لتريفور. لنعقد اتفاقاً. إذا أحضرناها إلى هنا ورأيت أنها أجمل فتاة تراها في حياتك، فإنك ستعطيه سيارة بي إم دبليو».

فكّر أيبل قليلاً، ثم قال: «حسناً. اتفقنا».

ذهبنا إلى شقّة بابيكي، وقلنا لها إن والديّ يريدان أن يتعرّفا عليها، وأخذناها إلى بيتي. ثمّ أخذناها إلى الكراج وراء البيت حيث كان أيبل ورجاله يعملون. بدأنا نعرفها عليهم.

«أيبل، هذه بابيكي. بابيكي، هذا أيبل». ابتسم أيبل ابتسامة عريضة، جذابة وقال لها: «يسعدني أن أراكِ».

تبادلا الحديث لبضع دقائق. عندما غادر توم مع بابيكي، التفت أيبل إليّ.

«هل هذه هي الفتاة؟»

«نعم».

«يمكنك أن تأخذ سيارة. بي إم دبليو».

عندما ضمنت السيارة، شعرت بأنني بحاجة ماسة لشراء ثياب لائقة أرتديها لأنني سأرافق هذه الفتاة التي ترتدي ثياباً عصرية، وماعدا حذاء التيمبرلاند الذي أنتعله، كانت ثيابي كلها سيئة. كانت ثيابي محدودة جداً لأنني كنت أشتريها من المحلات التي تدعني أمّي أن أشتري منها، وكانت أمّي لا تؤمن بإنفاق نقود كثيرة على شراء الثياب. فقد كانت تأخذني إلى محلات بيع الألبسة الرخيصة وتحدد لي ميزانيتنا، فكان عليّ أن أجد شيئاً أرتديه بهذا المبلغ المحدود.

في تلك الفترة، لم أكن أعرف شيئاً عن الثياب. وكان كلّ ما أعرفه عن الموضة هو ارتداء ماركة معينة من الثياب تُدعى «باورهاوس». كانت من نوع الثياب التي يرتديها رافعو الأثقال في ميامي أو الرياضيون الذين يتمشّون على شاطئ فينيسيا بيتش، بناطيل فضفاضة وبلوزات عريضة، مرسوم عليها صورة كلب بولدوغ من أفلام الرسوم المتحركة العملاق الذي يلعب كمال الأجسام ويضع نظارات شمسية ويدخّن سيجاراً ويبرز عضلاته، وتظهر عضلاته على طول ساق البنطلون، وتبرز عضلاته على امتداد صدرك على القميص. أما في الثياب الداخلية، فإنه يبرز عضلاته في مقدمة سروالك. قلت لنفسي إن «باورهاوس» أسوأ شيء في العالم. لم يكن عندي صديقات، وكنت أحبّ الكلاب، ولا بأس بإبراز هذه العضلات - كانت هذه نقطة انطلاقي. كانت كلّ ثيابي من ماركة «باورهاوس»، خمس قطع من نفس الثياب بخمسة

ألوان مختلفة. كان ذلك سهلاً. البنطال يتماشى مع القميص.

عندما عرف بونغاني، الوسيط الآخر الذي يقوم بتوزيع أقراص السي دي بأنه أصبح لديّ صديقة، بدأ يقدم لي نصائحه. فقال: «يجب أن تجعل هيئتك جميلة، لا يمكنك أن تذهب إلى الحفلة بهذه الهيئة - من أجلها هي، لا من أجلك أنت. دعنا نذهب ونشتري شيئاً».

ذهبت إلى أمّي ورجوتها أن تعطيني نقوداً لأشتري شيئاً ارتديه في الحفلة. لانت أخيراً وأعطتني ٢٠٠٠ راند لأشتري بدلة واحدة. كان هذا أكبر مبلغ تعطيني إياه طوال حياتي. عندما أخبرت بونغاني عن المبلغ الذي أعطتني إياه أمّي قال إننا ستدبّر أمرنا به. وقال لي إن الحيلة في أن يبدو المرء غنياً هي أن يشتري قطعة غالية الثمن وتكون باقي من نوعية جيدة، لأن قطعة الثياب الجميلة هي التي تجذب جميع العيون، وسيظن الناس أنك أنفقت أكثر مما تملك.

لم أكن أرى أن هناك شيئاً أجمل من ارتداء المعاطف الجلدية التي يرتديها جميع الممثلين في فيلم الماتريكس الذي كان يعُرض في دور السينما عندما كنت في المدرسة الثانوية وكان فيلمي المفضّل في ذلك الحين. أحببت نيو كثيراً. وفي قرارة نفسي كنت أعرف أنني أنا نيو. إنه شخص معقّد، عديم الفائدة في كلّ شيء، لكن في سريرته فهو بطل عظيم! كان كلّ ما أريده أن يلج رجل أسود غامض أصلع إلى حياتي ويُريني الطريق. وها هو بونغاني، الأسود، الحليق

الرأس، يقول لي: «يمكنك أن تفعل ذلك. أنت الذي يستطيع أن يفعل ذلك»، وكما لو أنني كنت أقول له: «نعم. أعرف ذلك».

قلت لبونغاني إنني أريد معطفاً جلدياً كالذي كان يرتديه كينو ريفز، ذلك المعطف الأسود الذي يصل حتى الكاحلين. فأسكتني بونغاني وقال: «لا، إنه غير عملي. إنه جيد لكنّك لن تستطيع ارتداءه مرة أخرى». فأخذني إلى السوق واشترينا سترة جلدية سوداء تصل حتى ربلة الساق تبدو مضحكة في أيامنا هذه، لكن في ذلك الوقت، بفضل نيو، كانت جميلة. دفعنا ثمنها وحدها ١٢٠٠ راند، ثمّ اشترينا بنطالاً أسود بسيطاً، وحذاء من الجلد المدبوغ، وكنزة محاكة بيضاء مائلة إلى الأصفر.

عندما انتهينا من شراء الثياب، نظر بونغاني طويلاً إلى شعري الأجعد الكثيف. كنت أحاول دائماً أن أقلّد شعر مايكل جاكسون في سبعينات القرن الماضي. لكن شعري أسود كثيفاً منفلتاً لا يمكن تمشيطه. كان كما لو كنت تغرز معزقة في حقل من الأعشاب.

«يجب أن نقصّ هذا الشعر المجنون»، قال بونغاني.

فقلت: «ماذا تقصد؟ هذا شعري».

«لا، يجب أن نفعل به شيئاً».

كان بونغاني يقيم في ألكساندرا. أخذني إلى الشارع الذي يقيم فيه، وذهبنا لنتكلّم مع الفتيات اللاتي كن يقفن عند ناصية الشارع.

«ماذا يمكن أن تفعلن بشعر هذا الشاب؟» سألهن.

تفحصتني الفتيات طويلاً.

«شعره كثيف»، قالت إحداهن، «لماذا لا يجدله؟»

فقالت الأخريات: «نعم. هذا عظيم».

فقلت: «ماذا؟ أجدله؟ لا».

فقلن: «لا، لا، هيا افعل ذلك».

أخذني بونغاني إلى صالون حلاقة في آخر الشارع. دخلنا وجلسنا. عندما لمست المرأة شعري هزّت رأسها، والتفتت إلى بونغاني.

قالت: «لا أستطيع أن أفعل شيئاً مع هذا الخروف».

«يجب أن تفعلي شيئاً».

«ماذا يجب أن نفعل؟»

«يجب أن تخففه. أنا لا أفعل ذلك هنا».

«حسناً».

أخذني بونغاني إلى صالون آخر. جلست على الكرسي. أخذت المرأة شعري وبدأت تفركه بذلك الكريم الأبيض. كانت تضع قفازات مطاطية لكي لا تلامس هذه المادة الكيميائية التي تخفف الشعر بشرتها، فخطر لي أنه ربما لا تكون هذه الفكرة جيدة. عندما

دهنت شعري بهذه المادة قالت لي: «حاول أن تبقيها أطول فترة ممكنة. ستبدأ تحترق، وعندما تبدأ تحترق، أخبرني حتى نغسلها بسرعة. لكنك كلّما تحملت أكثر، أصبح شعرك مستوياً أكثر».

جلست على الكرسي وانتظرت وانتظرت أطول مدة ممكنة.

انتظرت لمدة طويلة جداً.

" طلبت مني أن أخبرها عندما أشعر بأنها بدأت تحترق. كان يجب أن تطلب مني أن أخبرها عندما أبدأ أشعر بوخز في رأسي. كان قد بدأ يحترق وتقشّرت عدّة طبقات في فروة رأسي. كنت قد تجاوزت مرحلة الوخز عندما بدأت أشعر بالخوف. عندما قلت لها: «إنه يحترق! إنه يحترق!» دفعتني إلى المغسلة وبدأت تغسل تلك المادة. لكن الشيء الذي لم أكن أعرفه هو أن المادة الكيماوية تلك لا تبدأ تحرق فروة رأسي إلا بعد غسلها. أحسست بأن أحداً يصبّ ناراً على رأسي. عندما انتهت، انتشرت بقع من الحروق بالأسيد على فروة رأسي.

كنت الشاب الوحيد في الصالون، وكان جميع الآخرين نساء. كانت تلك نافذة لأعرف كم تعانيه النساء لكي يظهرن في هيئة جميلة. لماذا يفعلن ذلك؟ تساءلت. إنه شيء فظيع. لكن شعري أصبح مستوياً. مشّطته المرأة إلى الخلف، وصرت أشبه قواداً، قواداً يدعى سليكباك. "

ثمّ أعادني بونغاني إلى الصالون الأول، فوافقت المرأة على جعل شعري في جدائل. عملت ببطء. استغرقت ستّ ساعات. ثم قالت

أخيراً: «حسناً، يمكنك أن تنظر في المرآة». أدارتني في الكرسي ونظرت في المرآة و... لم أر نفسي بهذا الشكل من قبل. كان ذلك أشبه بمشهد في أحد البرامج الأمريكية التي كنت أشاهدها، والتي يأخذون شاباً أو فتاة وهي في هيئة سيئة، ويصففون لها شعرها ويغيّرون ثيابها، فتصبح البطّة الصغيرة القبيحة بجعة. كنت مقتنعاً تماماً بأنني لن أجد صديقة إذا لم أكن أبدو في هيئة جميلة أمام فتاة، ولم أكن أعرف أنني أستطيع أن أفعل ذلك. أصبح شعري ملائماً. لم تكن بشرتي رائعة لكنها بدأت تتحسّن، فانحسرت البثرات وأصبحت بثوراً عادية صغيرة. أصبحت أبدو... مقبولاً.

عندما عدت إلى البيت ورأتني أمي شهقت.

«أوووه! لقد حوّلوا طفلي إلى فتاة صغيرة جميلة. لقد أصبح عندي الآن فتاة صغيرة. إنك تبدو جميلاً جداً».

«أمي! هيا. لا تقولي ذلك».

«أبهذه الطريقة تريد أن تخبرني أنك مثلي؟»

«ماذا؟ لا. لماذا تقولين ذلك؟»

«أنت تعرف إنني لا أمانع إن كنتَ كذلك».

«لا، يا أمي. أنا لست مثلياً».

أحبّ جميع أفراد عائلتي شعري، وقالوا إنني أصبحت أبدو جميلاً.

لكن أمّي لم تتوقف عن استفزازي.

كانت تقول: «إنه ممتاز. جميل جداً، لكنك أصبحت تبدو مثل فتاة»

حانت الليلة المنشودة أخيراً. جاء توم لمساعدتي. كان الشعر، الثياب، كلّ شيء ملائماً. عندما أصبحت جاهزاً، ذهبنا إلى أبيل لنأخذ منه مفاتيح سيارة الـ بي إم دبليو. في تلك اللحظة بدأت الليلة كلها تسير إلى الفشل.

كانت ليلة يوم السّبت، نهاية الأسبوع، وهذا يعني أن أبيل كان يشرب مع عمّاله. خرجت إلى الورشة. ما إن وقعت عيني عليه حتى عرفت: كان منهكاً. اللعنة. عندما يسكر أبيل يصبح شخصاً آخر تماماً.

«آه، تبدو أنيقاً»، قال بابتسامة عريضة وهو يتفحصني، «إلى أين ستذهب؟»

«إلى أين يا أبيل؟ – سأذهب إلى حفلة الرقص».

«استمتع بوقتك».

«ممم... هل أستطيع أن آخذ المفاتيح؟»

«مفاتيح ماذا؟»

«مفاتيح السيارة».

«أيّ سيارة؟»

«بي إم دبليو. وعدتني بأنني أستطيع أن آخذ سيارة الـ بي إم دبليو إلى الحفلة».

«أولاً اذهب واشترِ لي بيرة»، قال.

أعطاني مفاتيح سيارته. رافقني توم إلى محل المشروبات الكحولية. اشتريت لأيبل عدة علب من البيرة، ثم عدنا، وأعطيناها له.

قلت: «حسناً، هل يمكنني أن آخذ سيارة الـ بي إم دبليو الآن؟»

«لا».

«ماذا تقصد، (لا)؟»

«أقصد (لا) لأنني أحتاج إلى سيارتي هذه الليلة».

«لكنك وعدتني. قلت إنني أستطيع أن آخذها».

«نعم، لكنّي أحتاج إلى السيارة».

انهرت. رحت أتوسل إليه أنا وتوم لكي آخذها لمدة نصف ساعة.

«أرجوك».

«لا».

«أرجوك».

«لا».

أدركنا أخيراً أنه لن يقبل، فأخذنا سيارة مازدا القميئة وذهبنا إلى بيت بابيكي. كنت قد تأخرت عليها ساعة. كانت منزعجة. دخل توم لإقناعها، وأخيراً خرجت.

كانت أجمل بكثير مما رأيتها من قبل. كانت ترتدي ثوباً أحمر رائعاً، لكنها كانت متكدرة المزاج. بدأت أشعر بالخوف، لكنّي بقيت ابتسم وأحاول أن أتصرف معها بتهذيب. فتحت لها باب السيارة وأعربت لها عن إعجابي بجمالها. ودّعنا توم وأختها وذهبنا.

ثمّ أضعت طريقي إلى الحفلة التي كانت في منطقة لا أعرفها جيداً، وفجأة لم أعد أعرف أين أنا بالتحديد. فرحت أدور حوالي ساعة في الظلام، أنعطف يساراً، ثم أذهب يميناً، ثم أعود من حيث ذهبت. كنت على هاتفي الخلوي طوال الوقت، أتصل ببعض الأصدقاء وقد تملكني اليأس، أحاول أن أعرف أين أنا بالتحديد، أحاول أن أعرف كيف أصل إلى مكان الحفلة. كانت بابيكي جالسة بجانبي صامتة كالصخر طوال الوقت. من الواضح أنها لم تكن تشعر بي ولا بهذه الليلة. بدأت أتحطّم. فقد تأخرت عليها ساعة، وها أنا الآن لا أعرف إلى أين سأذهب. لا بد أنني أسوأ صديق صادفته في حياتها.

أخيراً وجدت الطريق إلى مكان الحفلة. عندما وصلنا كنا قد تأخرنا حوالى ساعتين. ركنت السيارة، نزلت منها، وركضت لأفتح الباب من جانبها. عندما فتحته، لم تتحرك.

قلت لها: «هل أنتِ مستعدّة؟ هيا بنا ندخل».

«لا».

«لا؟ ماذا... ماذا تقصدين (لا)؟»

«لا».

«حسناً... لكن لماذا؟»

«لا».

«لكن يجب أن ندخل. الحفلة في الداخل».

«لا».

وقفت هناك عشرين دقيقة أخرى، أحاول إقناعها بأن تدخل إلى الحفلة، لكنّها ظلت تقول «لا»، ورفضت أن تنزل من السيارة.

أخيراً قلت لها: «حسناً، سأعود حالاً»، وركضت إلى الداخل ووجدت بونغاني.

«أين كنت؟» سألني.

«أنا هنا! لكن صديقتي في السيارة وهي ترفض أن تدخل إلى الحفلة».

«ماذا تقصد أنها لن تأتي؟»

«لا أعرف ما الذي يجري. أرجوك ساعدني».

عدنـا إلى باحـة وقـوف السيـارات. رافقـتُ بونغـاني إلى السيارة. مـا إن رآهـا حتـى صـاح مندهشـاً، «يـا إلهـي! إنهـا أجمـل امـرأة أراهـا في حيـاتي. قلـت إنّهـا جميلـة يـا تريفـور، لكـن هـذه في غايـة الجمال». ونـسي عـلى الفـور أن يسـاعدني بإقنـاع بابيكـي عـلى أن تنـزل مـن السيارة وتدخـل إلى الحفلـة. لكنـه استدار وركـض إلى الداخـل ودعا الشبان الآخريـن. «يـا شـباب، يجـب أن تأتـوا وتـروا صديقـة تريفـور! إنهـا رائعـة الجمال! يـا شـباب! تعالـوا».

خـرج عـشرون شـاباً يركضـون إلى باحـة وقـوف السيارات. تحلّقـوا حـول السيارة. «يـو، إنهـا مثيرة جـداً»، «يـا رجـل، هـل هـذه الفتـاة جـاءت مـع تريفـور؟» راح الشـبّان يحدّقـون فيهـا كـما لـو كانـت حيوانـاً في حديقـة الحيوانـات. وبـدأوا يطلبـون أن يلتقطـوا صـوراً معهـا. وراحـوا ينـادون آخريـن مـن الداخـل. «هـذا جنـون! انظروا إلى صديقـة تريفـور! لا، لا، لا، يجـب أن تـأتي وتـرى بعينـك».

تسـمّرت في مـكاني. أمضيـت أربـع سـنوات في المدرسـة الثانوية وأنـا أحـرص عـلى تفـادي أيّ نـوع مـن المهانـة الرومانسـية، والآن، في ليلـة حفلـة التخرج، ليلـة كلّ الليـالي، تحوّلـت مهانتـي إلى سـيرك أكبر مـن الحـدث نفسـه: تريفـور، المهـرّج الـذي لا تخـرج معـه فتاة ترافقه الآن أجمـل فتـاة في الحفلـة، لكنّـه يتحطّـم ويحـترق فدعـوا الجميع يخرجـون ويشـاهدون.

جلسـت بابيكـي في المقعـد الأمامـي، تحـدّق إلى الأمـام مباشرة، ترفـض أن تتزحـزح. كنـت أقـف خـارج السـيارة، متوتـراً. كان مع

أحد أصدقائي قنينة براندي هرّبها إلى الحفلة. قال: «خذ جرعة منها». لم يعد الآن شيء يهمّني، فشربت. كنت محطماً. لم تجبني الفتاة. انتهت السهرة.

أخيراً عاد معظم الشبان إلى الحفلة. كنت جالساً على الرصيف، أجرع من قنينة البراندي وقد بدأ رأسي يدور. ثم ما عاد بونغاني إلى السيارة ليحاول إقناع بابيكي أن تدخل للمرّة الأخيرة. بعد دقيقة أخرج رأسه من السيارة وعلى وجهه تلك النظرة المرتبكة.

قال: «يو، تريفور، صديقتك لا تتكلّم الانكليزية».

«ماذا؟»

«صديقتك. إنها لا تتكلّم الإنكليزية».

«هذا غير معقول».

نهضت وعدت إلى السيارة. سألتها سؤالاً بالإنكليزية ونظرت إليّ نظرة بلهاء.

نظر إليّ بونغاني.

«كيف لم تعرف أن صديقتك لا تتكلّم الانكليزية؟»

«لا.... لا أعرف».

«ألم تتحدث معها من قبل؟»

«طبعاً، أو انتظر... هل تكلمت معها؟»

بدأت أتذكر الأوقات التي أمضيتها مع بابيكي، لقاؤها في شقّتها، مرافقتها مع صديقاتها، عندما عرّفتها على أبيل. هل كلّمتها آنذاك؟ لا. هل حدّثتها في ذلك الوقت؟ لا. كان ذلك يشبه المشهد في فيلم «نادي الشجار» عندما تتذكر شخصية إد نورتن وتدرك أنه لم يكن مع براد بيت في نفس الغرفة مع هيلينا بونهام كارتر في الوقت نفسه. أدرك أنّه كان يضرب نفسه طوال الوقت. إنه تايلر دوردين. وفي كلّ الإثارة التي رافقت لقائي ببابيكي، الأوقات التي أمضيناها معاً وعندما تعرّفنا على بعضنا، لم يكلّم أحدنا الآخر. كان ذلك يتم دائماً بواسطة توم.

توم الحقير.

كان توم قد وعدني بأن يجلب لي أجمل فتاة لأرافقها إلى الحلفة، لكنّه لم يقل لي شيئاً عن صفاتها الأخرى. وعندما كنّا معاً، كانت تتحدّث بلغة بيدي مع توم، وكان توم يكلّمني بالإنكليزية. لكنّها لم تكن تتحدث الإنكليزية، ولم أكن أتحدّث لغة البيدي، وكان أبيل يتحدّث البيدي لأنه تعلّم عدّة لغات في جنوب أفريقيا ليتمكن من التعامل مع زبائنه، فراح يكلّمها بطلاقة عندما رآها. لكنني أدركت أنّني لم أسمعها قط تقول شيئاً بالإنكليزية إلاّ: «نعم»، «لا»، «هاي»، «باي». هذا كلّ شيء: «نعم»، «لا»، «هاي»، «باي».

كانت بابيكي فتاة خجولة جداً ولم تكن تتكلّم كثيراً، وأنا الفتى الأخرق مع النساء الذي لم يعرف كيف أكلّمها. فلم تكن لديّ صديقة من قبل، حتى أنني لم أكن أعرف ماذا تعني

«صديقة». وضع أحدهم امرأة جميلة بين ذراعي وقال: «إنها صديقتك». لقد بهرني جمالها ومجرد فكرة وجودها - لم أعرف أنه كان عليّ أن أبادلها الحديث. لم يكن عليّ أن أكلّم النساء العاريات اللاتي كنت أراهن على شاشة الكمبيوتر، أن أسألهن عن رأيهن، عن مشاعرهن. وكنت أخاف أن أفتح فمي وأهدم كل شيء، فكنت أهزّ رأسي وأبتسم وأترك توم يتكلم.

كانت أخوات بابيكي الثلاث الأكبر منها سناً يتكلّمن الإنكليزية، وكانت أختها الأصغر ليراتو تتكلّم القليل منها. فعندما كنا نذهب مع بابيكي وأخواتها وصديقاتها، كانت معظم الأحاديث تدور بالإنكليزية. أما باقي الحديث فكان يمرّ من أمامي بلغة البيدي أو السوثي، لكن ذلك كان طبيعياً جداً في جنوب أفريقيا ولم يكن ذلك يزعجني. فقد كنت أفهم فحوى الحديث من إنكليزية كلّ شخص حتى أعرف ما الذي يجري. وحتى الطريقة التي كان يعمل بها عقلي باللغة، عندما أسمع لغات أخرى، تتحوّل تلقائياً إلى اللغة الإنكليزية ما إن أسمعها. كان عقلي يخزّنها بالإنكليزية. وعندما كانت جدّتي ووالدة جدّتي تصلّيان بشكل هستيري إلى الله حتى يدمّر الشيطان الذي تغوّط فوق أرضية مطبخهما، كان كلّ ذلك يتم بلغة الإكسهوزا، لكنّه خزّن عندي بالإنكليزية. أتذكّر أنها كانت تدور بالإنكليزية. لذلك، عندما كنت أستلقي في السرير في الليل وأحلم ببابيكي وأتذكّر اللحظات التي أمضيناها معاً، كنت أشعر أنها كانت كلها تدور بالإنكليزية لأنني كنت أتذكّرها هكذا. ولم يذكر لي

توم شيئاً عن اللغة التي تتكلّمها أو اللغة التي لا تتكلّمها، فلماذا يهتمّ بذلك؟ فقد كان كلّ همه أن يحصل على أقراص السي دي مجاناً ويمضي وقتاً مع أختها. هكذا كنت أقابل فتاة لأكثر من شهر -الفتاة التي كنت أظن أنها أصبحت أول صديقة لي- من دون أن أجري حديثاً واحداً معها.

أتذكّر الآن الليلة كلّها، ورأيتها من وجهة نظرها. أصبح من الواضح لماذا لم تنزل من السيارة. ربما لم تكن ترغب في أن ترافقني لترقص معي في المقام الأول، ربما كانت تدين لتوم بمعروف ما، توم الذي يستطيع أن يقنع أي شخص بأيّ شيء. ثمّ تركتها تنتظرني حوالى ساعة ولا بد أن ذلك أزعجها كثيراً. ثمّ صعدت إلى السيارة وكانت هذه أول مرّة نكون فيها وحدنا معاً، وأدركت بأنها لا تستطيع أن تجري معي حديثاً، وأخذتها بالسيارة وضعنا في الظلام - فتاة شابة وحدها في سيارة في مكان مجهول مع شاب غريب، لا تعرف إلى أين سيأخذها. ربما كانت خائفة. وعندما وصلنا إلى الحفلة أدركت أنها لا تتكلّم لغة أي من الموجودين. فهي لا تعرف أحداً هناك، حتى إنها لم تكن تعرفني.

وقفت أنا وبونغاني خارج السيارة، يحدّق أحدنا في الآخر. لم أكن أعرف ماذا أفعل. حاولت أن أكلمها بجميع اللغات التي أعرفها. لم ينفع أي شيء. لم تكن تتكلّم إلاّ لغة البيدي. كنت يائساً إلى حد أنني حاولت أن أكلمها باستخدام الإشارات باليد.

«أرجوك. أنت. أنا. داخل. الرقص. نعم؟»

«لا»

«داخل. الرقص. أرجوك؟»

«لا».

سألت بونغاني إن كان يتكلّم لغة البيدي. فقال لا. هرعت إلى داخل الحفلة ورحت أبحث عن شخص يتحدّث البيدي ليساعدني في إقناعها لتدخل. «هل تتحدّث لغة البيدي؟ هل تحدّث البيدي؟ هل تتكلّم البيدي؟» لا أحد يتكلم البيدي.

هكذا لم أحضر حفلة التخرج. ما عدا الدقائق الثلاث التي امضيتها وأنا أجري أبحث عن أحد يتكلّم لغة البيدي، وأمضيت الليلة كلّها في باحة وقوف السيارات. وعندما انتهت الحفلة، صعدت إلى سيارة الـ مازدا الحمراء الحقيرة وأوصلت بابيكي إلى البيت. جلسنا صامتين طوال الطريق.

وقفت أمام بنايتها في هيلبرو، أوقفت السيارة، وجلست للحظة أحاول أن أدرس الطريقة المهذبة واللطيفة لأنهي هذه الأمسية. ثمّ، فجأة، مالت نحوي وقبّلتني. قبلة حقيقية، قبلة بكل ما تعنيه من معنى. قبلة جعلتني أنسى الكارثة التي حدثت للتو. كنت مضطرباً ومرتبكاً. لم أعرف ما الذي يجب أن أفعله. انسحبت إلى الوراء ونظرت في أعماق عينيها وفكرها، لا أعرف كيف تسلك الفتيات.

نزلت من السيارة، وذهبت إلى جانبها وفتحت لها الباب.

لمست ثوبها ونزلت من السيارة وتوجّهت إلى شقّتها. عندما أصبحت أمام مدخل بنايتها استدارت، ولوّحت لها بيدي تلويحة صغيرة الأخيرة.

«باي».

«باي».

الجزء الثالث

في ألمانيا، لا ينهي أي طفل المدرسة الثانوية من دون أن يتعلّم شيئاً عن المحرقة. لا الحقائق المتعلقة بها فحسب وإنما الأسباب التي أدت إليها وكيف حدثت ومدى خطورتها، وماذا تعني لذلك، ينشأ الألمان وهم يعرفون حقيقة ما جرى ويتملكهم شعور بالاعتذار. وتتناول المدارس البريطانية موضوع الاستعمار بالطريقة ذاتها، إلى حد ما، فيتعلّم الأطفال تاريخ الإمبراطورية بنوع من الإنكار. «حسناً، كان ذلك شيئاً مخزياً، أليس كذلك؟»

أما في جنوب أفريقيا، فلا تُدرّس الأعمال الوحشية التي مارسها نظام التمييز العنصري بهذه الطريقة. فلم يعلّمونا كيف نحكم على الأمور أو الشعور بالخزي، وإنما يعلّموننا التاريخ كما يعلّمونه في أمريكا. ففي أمريكا، يدرّسون العنصرية هكذا: «كانت هناك عبودية ثم جاء جيم كراو ثم جاء مارتن لوثر كينغ الابن، وانتهى كل شيء الآن». وينطبق علينا ذلك: «كان التمييز العنصري سيئاً. ثم أُطلق سراح نيلسون مانديلا من السجن، ودعونا نمضي إلى الأمام». حقائق، لكن ليست كثيرة، لا يُذكر أبداً البعد العاطفي أو الأخلاقي كما لو أنّ المعلّمين، ومعظمهم من البيض، قد أعطوا تعليمات: «مهما فعلتم، لا تُغضبوا الأطفال».

(١٥)

هيا هتلر!

عندما كنت في الصفّ التاسع، انتقل إلى مدرسة ساندرينغ ثلاثة تلاميذ صينيين هم: بولو وبروس لي وجون. كانوا التلاميذ الصينيين الوحيدين في المدرسة التي يزيد عدد تلاميذها على ألف تلميذ. وقد لُقبّ بولو بهذا الاسم لأنه يشبه بولو يانغ في فيلم جان كلود فان دام «رياضة الدم». أما بروس لي فكان هذا اسمه الحقيقي، بروس لي الذي شكّل حياتنا في مرحلة مراهقتنا. لكن هذا الفتى الصيني كان وسيماً، هادئاً، يرتدي ثياباً جميلة، واسمه بروس لي. كنّا نقول: هذا سحر. شكراً للمسيح لأنه جلب لنا بروس لي. أما جون فكان جون فقط، وكان اسمه غريباً مقارنة باسميْ التلميذين الآخرين.

تعرّفت على بولو لأنه كان أحد زبائني في توصيل الطلبات. كان والدا بولو قرصانين محترفين. فقد كانا يقرصنان ألعاب الفيديو ويبيعانها في سوق السلع المستعملة والرخيصة. وبما أنه ابن قراصنة، فقد كان بولو يفعل نفس الشيء - فقد بدأ ببيع ألعاب بلاي ستيشن مقرصنة في المدرسة، وكان الطلاب في المدرسة

يعطونه ألعابهم البلاي ستيشن، ثم يعيدها لهم بعد بضعة أيام بعد أن يركّب لهم رقاقة تمكّنهم من اللعب بالألعاب المقرصنة التي يبيعها لهم بعد ذلك. كان بولو صديقاً لهذا الفتى الأبيض وزميلاً لطالب يتاجر بأقراص السي دي المهرّبة. كان أندرو يتقدّمني بصفّين اثنين وكان خبيراً في الكمبيوتر، وكان عنده في بيته مسجّل أقراص سي دي، عندما لم يكن يوجد لدى أحد جهاز مثله.

في أحد الأيام عندما كنت أقوم بتوصيل طلبات الطعام، سمعت أندرو وبولو يشتكيان من التلاميذ السود في المدرسة الذين يشترون بضائع من أندرو وبولو ويقولون لهما: «سندفع لكما لاحقاً»، ثم لا يدفعون لهما شيئاً لأن أندرو وبولو يخشيان أن يعود الطلاب السود ويطلبون منهما استعادة نقودهم، فتدخلت في الحديث بينهما وقلت: «اسمعا، لا تنزعجا. فالسود لا يملكون نقوداً، لذلك فإن محاولة الحصول على أشياء أخرى مقابل النقود هي أقل ما يمكن أن تفعلاه. لكن اتركاني أساعدكما. سأكون الوسيط بينكم. تعطياني البضاعة وأنا أبيعها وأنا أتدبر مسألة الحصول على النقود، وتعطياني بالمقابل نسبة على بيعها». أعجبتهما الفكرة على الفور، وأصبحنا شركاء.

كان وضعي مثالياً كشخص يوصل الطلبات إلى التلاميذ الآخرين. فقد أنشأت شبكة خاصة بي. كان كلّ ما عليّ أن أفعله هو أن أفهم ذلك جيداً. ومن النقود التي أحصل عليها من بيع أقراص السي دي وألعاب الفيديو، استطعت أن أوّفر بعض النقود وأضيف مكوّنات جديدة وذاكرة إضافية إلى جهاز الكمبيوتر

لديّ. شرح لي أندرو، الخبير في الكمبيوتر، كيف أفعل ذلك، ودلّني من أين أشتري أرخص القطع وكيف أجمعها، وكيف أصلحها. وعلّمني كيف يعمل أيضاً، وكيف يحمّل الموسيقى، ومن أين أحصل على الأقراص القابلة للتسجيل بالجملة، لكن الشيء الوحيد الذي لم يكن لديّ هو جهاز تسجيل أقراص السي دي لأنه كان غالي الثمن. ففي ذلك الوقت، كان ثمن جهاز تسجيل أقراص السي يعادل ثمن جهاز الكمبيوتر، أي حوالى ٢٠٠٠ راند.

عملت وسيطاً لبولو وأندرو لمدّة سنة، ثمّ ترك بولو المدرسة، وأشيع بأنه قُبض على والديه، ومنذ ذلك الحين، بدأت أعمل مع أندرو الذي كان يتهيأ للذهاب إلى الجامعة فقرّر أن يتوقف عن هذا العمل. قال لي: «تريفور، كنتَ شريكاً مخلصاً»، وإعراباً عن شكره لي، أهداني جهاز تسجيل الأقراص. في ذلك الوقت، كان من النادر على السود أن يحصلوا على جهاز كمبيوتر، فما بالك بجهاز تسجيل أقراص سي دي؟ كان ذلك شيئاً لا يمكن تصوره، شيئاً أسطورياً. وفي اليوم الذي أعطاني فيه أندرو جهاز التسجيل، تغيّرت حياتي. فقد أصبحت بفضله أتحكم بالإنتاج وبالمبيعات وبالتوزيع - أصبح عندي كلّ ما يلزمني من مقومات عملية التهريب.

كنت رأسمالياً بطبعي. كنت أحبّ أن أبيع أشياء، وكنت أبيع شيئاً يريده كلّ من يستطيع أن يشتريه. كنت أبيع الديسكات بسعر ٣٠ رانداً، أي ما يقارب ثلاثة دولارات. وكان ثمن القرص النظامي في المحلات يتراوح بين ١٠٠ و١٥٠ رانداً. وعندما بدأ

الناس يشترون الأقراص منّي، لم يعودوا يشترون الأقراص الأصلية -كانت تجارة رابحة.

كنت أمتلك غريزة للعمل التجاري، ولم أكن أعرف آنذاك شيئاً عن الموسيقى، وكان ذلك غريباً على شخص يقوم بقرصنة الأغاني. فقد كانت التراتيل المسيحية في الكنيسة هي الأغاني الوحيدة التي أعرفها، لأنها كانت الأغاني الوحيدة المسموح بسماعها في بيت أمّي. كان جهاز تسجيل الأقراص الذي أعطاني إياه أندرو بسرعة 1x، وهذا يعني أنه ينسخ بسرعة دوران القرص. وما إن كنت أعود إلى البيت من المدرسة، حتى أتوجّه فوراً إلى غرفتي وأجلس فيها حوالي خمس أو ستّ ساعات لأنسخ تلك الأقراص. وكان عندي نظام صوت صنعته بنفسي من مكبرات صوت سيارات قديمة انتزعتها من إحدى سيارات الخردة التي يحتفظ بها أبيل في باحة البيت، وثبّتها حول الغرفة. ومع أنه كان عليّ أن أجلس وأنتظر ريثما أسجّل كلّ قرص، لم أكن أستمع إليه كثيراً كي لا أضيع وقتي في الاستماع إليه.

وبفضل الإنترنت، أصبح بإمكاني أن أسجّل الأغاني التي يريدها أي شخص. ولم أكن أحكم قط على الذائقة الموسيقية لأي شخص. فإذا كنتَ تريد أغاني نيرفانا الجديدة فإني أسجلّها لك، وإذا كنت تريد أغاني دي إم إكس الجديدة فإني أسجّلها لك. ومع أن الموسيقى المحليّة في جنوب أفريقيا كانت شعبية ومنتشرة كثيراً، كان الناس متلهفين لسماع موسيقى الأمريكيين السود، مثل الهيب هوب، وريذم أند بلوز. وكان الطلب شديداً على أغاني فرقة

Jagged Edge، وفرقة ١١٢، وبعت كميات كبيرة من أغاني مونتيل جوردان. عندما بدأت عملي، كان الإنترنت يعمل بواسطة الهاتف الأرضي وكانت سرعة المودم 24k. وكان تسجيل ألبوم واحد يستغرق يوماً كاملاً. وظلت التقنية تتطوّر، وتابعت هذا التطور حتى وصلت سرعة المودم إلى 56k، فاشتريت أجهزة تسجيل أسرع تسجّل عدة أقراص في وقت واحد. وبدأت أحمّل أعداد أكبر، وبدأت أبيع كميات أكبر. وفي تلك الفترة أصبح عندي وسيطان ليوزعا الأقراص: صديقي توم الذي ذهب إلى نورثفيو، وصديقي بونغاني الذي كان يعيش في ألكس.

في أحد الأيام، جاء بونغاني إليّ وقال: «أتعرف ما الشي الذي يجلب نقوداً كثيرة؟ فبدلاً من أن تنسخ ألبومات كاملة، لماذا لا تختار أجمل الأغاني من عدة ألبومات وتسجّلها في قرص واحد، لأن الناس يريدون أن يسمعوا الأغاني التي يحبّونها فقط». بدت لي فكرة عظيمة، فبدأت أسجّل أقراصاً فيها أغاني عديدة، وأصبحت تباع بشكل جيد. ثم عاد بونغاني بعد بضعة أسابيع، وقال: «هل تستطيع أن تدمج الأغاني ببعضها عندما تنتقل الموسيقى من أغنية إلى أخرى من دون أن يكون هناك فاصل قصير بين الأغاني كي تستمر الموسيقى بدون توقف؟ كما لو أن دي جي يؤدي مجموعة كاملة من الأغاني طوال الليل». بدت لي فكرة عظيمة أيضاً. فحمّلت برنامجاً اسمه BPM، «نبضة في الدقيقة» فيه واجهة بيانية تبدو مثل مسجلتين بجانب بعضهما، وأصبح بإمكاني أن أمزج الأغاني ولم أعد أترك مسافة بينها، كلّ شيء يمكن أن يفعله «الدي

جي». وبدأت أنسخ أقراص سي دي للحفلات، وبدأت أبيع منها كميات كبيرة.

بدأ العمل يزدهر. مع اقتراب الامتحان الرئيسي، بدأت أكسب ٥٠٠ راند في الأسبوع. ولتوضيح ذلك، كانت هناك خادمات في جنوب أفريقيا يكسبن أقل من هذا المبلغ. إنه مبلغ ضئيل بالنسبة لإعالة أسرة، أما بالنسبة لشاب في السادسة عشرة من عمره يعيش في البيت لا توجد لديه التزامات حقيقية، فقد كان ذلك حلماً.

"لأول مرة في حياتي أصبح معي نقود، وكان ذلك أكثر شيء جعلني أشعر بأنني حرّ في العالم. أول شيء تعلّمته هو أنه عندما يكون لديك نقود فإنها تتيح لك خيارات عديدة. لا يريد الناس أن يكونوا أغنياء من أجل أن يكونوا أغنياء، وإنما لكي يكونوا قادرين على الاختيار، فكلما كنت أغنى، ازدادت خياراتك. هذه هي حرية المال."

عندما أصبح لديّ نقود، شعرت بالحرية على مستوى جديد: فقد بدأتُ أذهب إلى مطاعم ماكدونالد. لا يدرك الناس في أمريكا ذلك، لكن عندما تُفتح سلسلة محلات أمريكيةَ في أحد بلدان العالم الثالث، فإن الناس يفقدون صوابهم. هذا صحيح في أيامنا هذه. فقد فُتح أول مطعم «بيرغر كينغ» في جنوب أفريقيا العام الماضي، وكنت ترى طابوراً طويلاً يمتد حول المبنى. كان ذلك حدثاً مهماً. كان الجميع يأتون ويقولون: «يجب أن آكل في مطعم

بيرغر كينغ. هل سمعت؟ إنه من أمريكا». والمضحك في الأمر هو أن جميع الذين كانوا يصطفون في هذا الطابور هم أشخاص بيض فقط. كان البيض مغرمين بمطعم بيرغر كينغ، أما السود فلم يهتموا به كثيراً. لم يكونوا بحاجة إلى بيرغر كينغ، لأن قلوبنا كانت معلقة بمطاعم دجاج كنتاكي KFC وماكدونالد. والغريب في الأمر أننا كنّا نعرف عن ماكدونالد قبل أن يأتي بفترة طويلة، ربما من الأفلام، ولم نكن نحلم بأن أحدها سيُفتح في جنوب أفريقيا. كان ماكدونالد بالنسبة لنا مثل أحد تلك الأشياء الأمريكية البحتة التي لا يمكن أن تنتقل إلى بلد آخر. وحتى قبل أن نتذّوق سندويشات ماكدونالد، كنا نعرف أننا سنحبّها، وهذا ما حدث. في فترة ما، بدأت مطاعم ماكدونالد تفتح فروعاً لها في جنوب أفريقيا أكثر من أيّ بلد آخر في العالم. ومع مجيء مانديلا جاءت الحرية، ومع الحرية جاءت مطاعم ماكدونالد. كان قد فُتح مطعم ماكدونالد على بعد شارعين من بيتنا بعد انتقالنا إلى هايلندز نورث بفترة قصيرة، لكن أمّي كانت ترفض أن تشتري لنا منه. وعندما بدأت أكسب نقوداً قلت لنفسي سأفعل ذلك. فذهبت وحدي. لم يكن عندهم آنذاك «حجم كبير جداً»، وإنما «الحجم الكبير» فقط. اتجهت إلى البائع، مزهواً بنفسي، أعطيته النقود وقلت: «أريد رقم واحد، الحجم الكبير».

كنت مغرماً بماكدونالد. كانت ماكدونالد بالنسبة لي تشبه طعم أمريكا. كانت ماكدونالد هي أمريكا بالنسبة لي. ترى إعلاناتها وتُدهش. تشتهيها. تشتريها. تقضم أول لقمة منها، وينفجر عقلك.

تقول لنفسك إنها أفضل مما كنت أتخيّل. وفي منتصفها، تدرك أنها ليست لذيذة، وبعد بضع لقيمات أخرى، تقول لنفسك إن فيها شيئاً على غير ما يرام، وعندما تتناولها تحنّ إليها كالمجنون، ثم تعود لتشتري واحدة أخرى.

عندما تذوقت طعم أمريكا، لم أعد آكل في البيت. لم أعد آكل إلاّ في ماكدونالد. ماكدونالد، ماكدونالد، ماكدونالد، ماكدونالد. في كلّ ليلة، كانت أمّي تحاول أن تعدّ لي طعام العشاء.

«ستتناول الليلة كبد الدجاج».

«لا، سآكل في ماكدونالد».

«الليلة ستتناول حساء».

«أظن أنني سأذهب إلى ماكدونالد مرة أخرى».

«الليلة سأعدّ أقدام دجاج».

«ممم... حسناً، سآتي. لكن غداً سآكل في ماكدونالد».

استمرت النقود تتدفق عليّ بدون حساب، فاشتريت هاتفاً لاسلكياً. كان ذلك قبل مجيء الهاتف الخلوي. وكان مدى هذا الهاتف اللاسلكي قوياً، فكنت أضع قاعدة الهاتف خارج نافذة غرفتي، وأذهب إلى ماكدونالد الذي يقع على بعد شارعين، وأطلب السندويشة رقم واحد «الحجم الكبير»، ثمّ أعود إلى البيت، وأصعد إلى غرفتي وأشغّل كمبيوتري، وأنا ما أزال أتحدّث على الهاتف. كنت أنا هو ذلك الشاب الذي يمشي في الشارع

يضع هاتفاً ضخماً على أذنه والهوائي ممدود حتى آخره، أتكلّم مع صديقي. «نعم، أنا ذاهب إلى ماكدونالد...»

" كانت الحياة تسير بشكل جيد، ولم يكن سيحدث أي شيء لولا أندرو الذي لولاه لما دخلت عالم قرصنة الأغاني وعشت تلك الحياة الرائعة مع ماكدونالد. إن ما فعله أندرو، على نطاق ضيق، هو أنه أراني أهمية أن تمكّن المحرومين في أعقاب الظلم. كان أندرو شاباً أبيض تمتلك أسرته الموارد الكافية لتوفر لابنها التعليم وشراء أجهزة كمبيوتر. وعلى مدى أجيال، بينما كان شعبه يتهيأ للذهاب إلى الجامعة، كان شعبي يعيش محشوراً في أكواخ ذات سقوف من القش وهم يرددون، «اثنان ضرب اثنان يساوي أربعة؛ ثلاثة ضرب اثنان يساوي ستّة؛ لا، لا، لا، لا». كانت عائلتي محرومة من الأشياء التي تعتبرها عائلته أشياء بديهية. كنت أمتلك موهبة طبيعية للبيع، لكن إن لم أكن أمتلك المعرفة والموارد، إلى أين يمكن أن توصلني موهبتي؟ يلقي الناس دائماً محاضرات على الفقراء ويقولون: «تحمّل مسؤولية نفسك! اصنع شيئاً من نفسك!» لكن ماذا إذا لم يكن الفقراء يمتلكون المواد الأولية ليصنعوا شيئاً من أنفسهم؟

يحبّ الناس أن يقولوا: «إذا أعطيت أحداً سمكة فإنه سيأكل لمدة يوم، أما إذا علّمت أحداً الصيد فإنه سيأكل طول العمر»، لكن الشيء الذي لا يقولونه هو: «وسيكون من الأفضل أن تعطيه قصبة لصيد السمك». هذا ما ينقص هذه المقولة. لقد جعلني العمل مع أندرو أدرك لأول مرة في حياتي أنك تحتاج إلى شخص

في هـذا العـالم يمـدّ لـك يـده ويقـول: «هـذا مـا تحتـاج إليـه، وهكـذا يعمـل». لم تكـن الموهبـة وحدهـا ستوصلني إلى أي مـكان لـو لم يعطني أنـدرو جهـاز تسـجيل أقـراص الـسي دي. يقـول النـاس: «أوه، إنها منحة». لا. لا يـزال علـيّ أن أعمـل حتـى أستفيد منهـا، لكـن لـولاه لما أتيحـت لي أي فرصـة.

بعـد ظهـر أحـد الأيـام، كنـت في غرفتـي أسـجّل بعض الأقـراص عندمـا جـاء بونغـاني ليأخـذ الكميـة المخصصـة لـه. رآني أمزج الأغـاني عـلى جهـاز الكمبيوتـر.

«هذا جنون»، قال، «هل تفعل هذا مباشرة؟»

«نعم».

«تريفـور، لا أظـن أنـك تفهـم. إنـك تجلـس فـوق منجـم مـن الذهـب. يجـب أن نفعـل ذلـك أمـام النـاس. يجـب أن تـأتي إلى البلـدة وتعمـل دي جـي وتعـزف هـذه الأغـاني. فلـم يـر أحـد قـط دي جي يعـزف عـلى جهـاز كمبيوتـر».

كان بونغـاني يعيـش في ألكسـاندرا. وفي حـين كانـت سـويتو عبـارة عـن غيتـو كبـير خطّطـت لـه الحكومـة، كانـت ألكسـاندرا جيبـاً صغـيراً مكتظـاً بالأكـواخ الفقـيرة المتبقيـة مـن فـترة مـا قبـل نظـام التمييـز العنـصري. صفـوف وصفـوف مـن أخشـاب مبنيـة مـن الخشـب والحديـد المتمـوّج، مكدّسـة فـوق بعضهـا البعـض. كانـت تُلقب باسـم غومـوراه (عمـورة) لأنـه كانـت تقـام فيهـا أكثـر الحفـلات جموحـاً وتُرتكـب فيهـا أسـوأ أنـواع الجرائـم.

كانت الحفلات التي تقام في الشوارع أفضل شيء في ألكساندرا. تنصب خيمة في منتصف الطريق، وتحتل الشارع وتقيم حفلة. لا توجد دعوات رسمية أو قائمة بالمدعوين. كلّ ما عليك أن تفعله هو أن تخبر عدداً من الأشخاص، فينتقل الخبر من شخص إلى آخر، ويأتي الناس. لا توجد تراخيص أو شيء من هذا القبيل. فإذا كانت لديك خيمة، فإن لديك الحقّ في أن تقيم حفلة في شارعك. وعندما تصل سيارة عند تقاطع الشارع ويرى السائق أن الطريق مسدود لأن حفلة هناك، يهزّ كتفيه بلا مبالاة ويعود من حيث أتى. لا يتزعج أحد. والقاعدة الوحيدة هي أنك إذا أقمت حفلة أمام بيت أحدهم، فإن سكان ذلك البيت يأتون ويشاركونك في الشرب. ولا تنتهي هذه الحفلات عادة إلاّ بعد أن تُطلق النار على أحدهم أو بعد أن تُكسر قنينة على وجه أحد. هكذا تنتهي الحفلة، وإلاّ فإنها لا تكون حفلة.

كان معظم الذين يقيمون حفلات دي جي في ذلك الوقت يعملون ساعات طويلة، ولديهم عدد محدود جداً من الأقراص التي يستطيعون شراءها. وبما أن الحفلة تستمر طوال الليل، فقد كانت تحتاج إلى خمسة أو ستّة دي جي كي لا يتوقف الرقص. وبما أنه أصبح عندي قرص صلب مليء بالأغاني، كان بونغاني متحمساً عندما رآني أمزج الأغاني، واكتشف طريقة لاحتكار السوق.

«كم أغنية لديك؟» سألني.

«يقول ويناميب إنني أستطيع أن أعزف طوال أسبوع دون توقف».

«سنجمع ثروة طائلة».

كانـت أول حفلـة أقمناهـا هنـاك عشـية رأس السـنة الجديـدة في الصيف عندما تخرّجنا من مدرسة ساندرينغهام. حملنا أنا وبونغاني جهاز الكمبيوتر والشاشة الكبيرة وجميع الكابلات ولوحة المفاتيح والماوس. وضعناها في حافلة ميني باص وأحضرناها إلى ألكساندرا. وضعنا أغراضنا في الشارع أمام بيته، ومددنا أسلاك الكهرباء من بيته، وجهزّنا الكمبيوتر ومكبرات الصوت، واستعرنا خيمة، وجاء الناس. جاء عدد كبير من الناس. في منتصف الليل امتلأ الشارع كله من أوله حتى آخره. كانت حفلتنا أكبر حفلة تقام في عشية رأس السنة الجديدة في ألكساندرا في تلك السنة، ولم تكن تلك مزحة. وظلّ الناس يأتون طوال الليل من جميع الأماكن. فقد انتشر الخبر: «هناك شاب ذو بشرة فاتحة يعزف موسيقى من الكمبيوتر. لم تر في حياتك شيئاً كهذا». وكنت الدي جي الوحيد الذي يستمر حتى الفجر. سكرنا أنا وأصدقائي وتعبنا كثيراً حتى تمددنا على العشب خارج بيت بونغاني. كانت الحفلة كبيرة جداً رفعت اسمنا إلى السماء على الفور، وسرعان ما بدأت الطلبات تنهال علينا من كل مكان لإقامة حفلات.

كان ذلك شيئاً رائعاً.

عندما تخرّجتُ أنا وبونغاني من المدرسة الثانوية، لم نتمكن من الحصول على عمل. لم تكن هناك وظائف لنا. كانت الوسيلة الوحيدة المتاحة لي لأكسب نقوداً هي قرصنة أقراص السي دي

وأغنية حفلات «دي جي». بعد أن تركت مدرسة ساندرينغهام، أصبح سائقو حافلات الميني باص والشبان الذين يتسكعون عند ناصية الشارع في الكساندرا السوق الكبير الوحيد لبيع أقراصي المدمجة، وكنت أسمعهم معظم الأغاني التي أسجّلها، ولكي أظل أكسب نقوداً كان من الطبيعي أن أسلك هذا المنحى. وكان معظم التلاميذ البيض الذين أعرفهم قرروا أن يتوقفوا عن الدراسة لمدة سنة «سأتوقف عن الدراسة لمدة سنة لأذهب إلى أوروبا». هذا ما كان التلاميذ البيض يقولونه. فقررت أن أتوقف عن الدراسة أيضاً لمدة سنة لأذهب إلى البلدة وأمضي وقتي هناك. وهذا ما فعلته.

كان يوجد أمام بيت بونغاني في ألكس جدار حجري واطئ يمتد من منتصف الطريق، وكنت أذهب كلّ يوم مع وبونغاني ورفاقه ونجلس فوق ذلك الجدار. كنت أجلب معي أقراص السي دي، وكنّا نشغّل الموسيقى ونرقص. وبدأنا نبيع هذه الأقراص في النهار ونقيم حفلات دي جي في الليل. وبدأت تأتينا طلبات أخرى من بلدات أخرى.

بفضل الكمبيوتر والمودم لديّ كنت أحصل على موسيقى وأغاني لا يستطيع إلا عدد قليل من الناس أن يحصلوا عليها، وقد سبّب لي ذلك مشكلة. فعندما كنت أعزف أحياناً موسيقى جديدة في بعض الحفلات فيتساءل الناس، «ما هذه؟ كيف يمكن الرقص على هذه الموسيقى؟» فإذا عزف دي جي مثلاً أغنية مثل «انظر إلى سوط، نا، نا» -نعم، إنها أغنية جيلة، لكن ماذا تعني «سوط، نا، نا». ولكي تصبح هذه الأغنية شعبية يجب أن تعرف كيف

تضرب بالسوط وتقول نا نا. ولا يمكن أن تشتهر أي أغنية جديدة إلاّ إذا عرف الناس كيف يرقصون على أنغامها. فاقترح بونغاني أن نشكّل فرقة رقص ليرى الناس الخطوات والحركات المرافقة لهذه الأغاني. وبما أننا كنا نمضي طوال اليوم لا نفعل شيئاً سوى الاستماع إلى أقراص السي دي واستنباط حركات راقصة، أصبحت فرقتنا تعرف كلّ الأغاني، وكانوا يرقصون على أنغامها، وكان فتى يدعى هتلر يسكن بالقرب من بيت بونغاني أجمل وأفضل راقص في الفرقة.

أصبح هتلر من أعزّ أصدقائي، ويا إلهي، كان هذا الشاب يجيد الرقص. كانت رؤيته وهو يرقص تأسرك. كان جسمه يتمتع بليونة تتحدّى الفيزياء -تخيّل قنديل بحر وهو يمشي على الأرض- بالإضافة إلى ذلك كان وسيماً جداً، طويل القامة، رشيقاً، تكسو جسده عضلات، بشرته ناعمة، جميلة، وله أسنان كبيرة، وابتسامة رائعة، لا يكف عن الضحك، وكان كلّ ما يفعله هو الرقص. يصحو في الصباح يشغل الموسيقى في البيت أو الهيب هوب بصوت مرتفع جداً، ويتدّرب على الرقص طوال اليوم.

كان الجميع يعرف من هو أفضل راقص في المجموعة كلها. كان ذلك أشبه برمز يشير إلى مكانتك الاجتماعية. فعندما تكون فقيراً ولا توجد لديك سيارة أو ملابس جميلة، فإن الشاب الذي يجيد الرقص هو الذي تتحلّق حوله الفتيات، وهو الشاب الذي تريد أن تصاحبه. كان هتلر بطلنا. كانت تقام حفلات تجري فيها مسابقات للرقص، يحضرها شبان من جميع الأحياء ويجلبون

معهم أفضل راقص عندهم. وكنا نأخذ هتلر معنا، وكان يفوز في مسابقات الرقص في معظم الأحيان.

عندما كنت أنا وبونغاني نصمم رقصة لفرقتنا، كنّا نعرف من سيكون النجم الأكثر جاذبية في الحفلة. كنّا نركّز الرقصة كلها حول هتلر. أبدأ بتهييج الجمهور بيضع أغان، ثمّ يخرج الراقصون ويصطفون كل اثنين معاً، وعندما تبدأ الحفلة يشكّل الراقصون دائرة حول خشبة المسرح ويتركون فتحة في الخلف ليدخل منها هتلر. كنت أبدأ عادة بأغنية ريدمان «النصبح وسخين» وأبدأ أستثير الجمهور أكثر فأصيح «هل أنتم مستعدّون؟ لا أستطيع أن أسمعكم! دعوني أسمعكم وأنتم تصرخون» عندما يبدأون الصراخ، يقفز هتلر ويدخل إلى وسط نصف الدائرة فيجنّ جنون الناس. هنا يبدأ هتلر عمله بينما يشكل الشباب حوله دائرة ويصيحون، «هيا هتلر! هيا هتلر! هيا هتلر! هيا هتلر». وبما أن الرقصة هي هيب هوب، يمدّ الراقصون أذرعهم أمامهم ويبسطون راحة أيديهم، ثم يرفعونها ويخفضونها مع الإيقاع. «هيا هتلر! هيا هتلر! هيا هتلر! هيا هتلر». فيجن جنون الحشد كلّه، ألف شخص في الشارع يغنون معاً وأيديهم مرفوعة في الهواء. «هيا هتلر! هيا هتلر! هيا هتلر! هيا هتلر».

مع أن هتلر لم يكن اسماً شائعاً، لكنه كان دارجاً في جنوب أفريقيا. ويعزى سبب ذلك إلى الطريقة التي يختار بها الكثير من السود أسماء أبنائهم. فهم يختارون أسماءهم التقليدية بعناية شديدة، ويكون لتلك الأسماء معان شخصية عميقة. لكن منذ

عهد الاستعمار والتمييز العنصري، أصبح السود في جنوب أفريقيا يُرغمون على أن يكون لهم اسم إنكليزي أو أوروبي -اسم يستطيع الرجل الأبيض أن ينطقه. لذلك يجب أن يكون لديك اسمان: اسمك الإنكليزي، واسمك التقليدي، واسمك الأخير: باتريشيا نومبويسيلو نوا. وفي تسع مرات من بين عشر مرات، يتم اختيار اسمك الأوروبي عشوائياً، إما أن يؤخذ من الكتاب المقدس أو من اسم ممثل مشهور في هوليود أو اسم سياسي معروف يرد اسمه كثيراً في نشرات الأخبار. أعرف أشخاصاً اسمهم موسوليني ونابليون، وبالطبع، هتلر.

" يُصدم الغربيون ويرتبكون عندما يسمعون ذلك، لكن هذه حالة يحصد فيها الغرب ما زرعوه. فقد قسّمت القوى الاستعمارية أفريقيا، واستغلت الرجل الأسود في العمل، ولم توّفر له تعليماً جيداً. وبما أن البيض لا يكلّمون السود، فما هو السبب الذي يجعل السود يتعرفون على ما يجري في عالم الرجل الأبيض؟ لهذا السبب فإن عدد كبير من السود في جنوب أفريقيا لا يعرفون من هو هتلر في حقيقة الأمر." كان جدّي يظن أن «هتلر» هو دبابة عسكرية ساعدت الألمان على الانتصار في الحرب، لأن هذا ما فهمه من نشرات الأخبار التي كان يسمعها. وما يعرفه معظم السود في جنوب أفريقيا عن الحرب هو أنه كان هناك شخص يدعى هتلر هزم الحلفاء في الحرب، ويعرفون أن هتلر ذاك رجل قوي جداً لذلك استعان الرجل الأبيض بالسود لمحاربته، فإذا كان على الرجل الأبيض أن يتنازل ويطلب من الرجل الأسود

أن يساعده في محاربة أحد، فلا بد أن يكون ذلك الشخص أقسى رجل في جميع الأزمان. فإذا أردت أن يكون كلبك قاسياً، فإنك تسميه هتلر، وإذا أردت أن يكون ابنك قاسياً، فإنك تسمّيه هتلر، ومن المحتمل أن يكون اسم عمّك أو خالك هتلر أيضاً.

" تعلّمنا في مدرسة ساندرينغهام عن الحرب العالمية الثانية أكثر مما تعلّمناه عن الشبان السود الذين يعيشون في البلدات، لكنهم قدموا لنا المعلومات الأساسية فقط. ولم يعلّمونا كيف نفكّر بطريقة تجعلنا ننتقد هتلر ومعاداة السامية والمحرقة، ولم يعلّمونا مثلاً أن مهندسي سياسة التفرقة العنصرية كانوا من كبار مؤيدي هتلر ومناصريه، وأن السياسات العنصرية التي كانوا يطبّقونها على السود مستلهمة في جزء كبير منها من سياسات الرايخ الثالث العنصرية. لم يعلّمونا مدى علاقة هتلر بالعالم الذي نعيش فيه. لم يعلّمونا شيئاً من هذا القبيل. نقطة على السطر. كلّ ما علّمونا إياه هو أن هتلر احتل بولندا في عام ١٩٣٩، واحتل الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٤١، وأنه فعل شيئاً آخر في عام ١٩٤٣. كانت مجرد معلومات. احفظها عن ظهر قلب، واكتبها في الامتحان، ثم انسَاها. "

ويجب أن تعرف أيضاً أن أي شخص أسود في جنوب أفريقيا لا يشعر بالإساءة من اسم هتلر، لأن هتلر لم يكن أسوأ شيء يمكن أن يتخيّله شخص أسود في جنوب أفريقيا. فكلّ بلد يعتبر تاريخه الأهم، وهذا ينطبق على الغرب على نحو خاص. فإذا عاد شخص أسود في جنوب أفريقيا بالزمن إلى الوراء وأراد أن يقتل شخصاً

واحداً، فإنه سيختار سيسيل رودز قبل هتلر، وإذا عاد شخص في الكونغو بالزمن إلى الوراء وأراد أن يقتل شخصاً واحداً، فإنه سيختار ملك بلجيكا ليوبولد قبل هتلر، وإذا عاد شخص من سكان أمريكا الأصليين بالزمن إلى الوراء وأراد أن يقتل شخصاً واحداً، فقد يختار كريستوفر كولومبوس أو أندرو جاكسون.

ألتقي كثيراً بأشخاص في الغرب يصرّون على أنّ المحرقة هي أسوأ عمل وحشي حدث في تاريخ البشرية. لا شكّ في ذلك. نعم، إنها شيء شنيع، لكنّني أتساءل في أحيان كثيرة، ألم تكن الأعمال الوحشية التي أُرتكبت في الكونغو شنيعة؟ إن الشيء الذي لا يملكه الأفريقيون كما يملكه اليهود هو التوثيق. فقد احتفظ النازيون بسجلات دقيقة، والتقطوا صوراً، وأنتجوا أفلاماً. وهذا ما جرى فعلاً. فعدد ضحايا المحرقة معروف لأن هتلر أحصاهم: ستة ملايين شخص. يمكننا أن ننظر كلّنا إلى هذا العدد ونصاب بالفزع حقاً. أما عندما تقرأ تاريخ الأعمال الوحشية التي ارتُكبت بحق الأفريقيين، فلا تجد أعداداً. لا توجد سوى تخمينات. ويصعب أن تُصاب بالفزع من مجرد تخمينات. فعندما كانت البرتغال وبلجيكا تنهبان ثروات أنغولا والكونغو، هل أحصيتا عدد السود الذين ذُبحوا، وأعداد السود الذين لقوا حتفهم أثناء حصاد المطاط في الكونغو؟ أو في مناجم الذهب والماس في ترانسفال؟

لذلك يُعتبر هتلر أعظم مجنون في التاريخ في أوروبا وأمريكا. أما في أفريقيا فهو مجرد رجل قوي آخر يرد اسمه في كتب التاريخ.

في جميع الأوقات التي أمضيتها مع هتلر، لم أسأل نفسي قط، «لماذا اسمه هتلر؟» أعرف أن اسمه هتلر فقط لأن أمّه سمّته هتلر.

عندما ضممنا أنا وبونغاني الراقصين إلى فرقة موسيقى الدي جي، انطلقنا بقوة، وقد أطلقنا على فرقتنا اسم «الفتيان السود والبيض»، وأطلقنا على الراقصين اسم «فتيان الغزال الأفريقي». بدأت الطلبات تنهال علينا من كل مكان. ومع أن عائلات السود الناجحة كانت قد بدأت تنتقل إلى الضواحي، فقد ظلّ أبناء تلك العائلات يأتون إلى الحفلات التي تقام في الشارع لكي يبقوا على صلة مع ثقافتهم، وبدأوا يطلبوننا لإحياء حفلاتهم. انتقلت الأخبار بسرعة، وازداد الطلب علينا في الضواحي، وبدأنا نلتقي بأشخاص بيض، ونعزف للبيض.

تعرّفنا على فتى من البلدة، كانت أمّه تشارك في تنظيم برامج ثقافية للمدارس كالتي تُسمى في أمريكا «برامج التنوع» التي بدأت تنتشر في أنحاء جنوب أفريقيا كي يتعرف أحدنا على الآخر ونلتقي بعد انتهاء سياسة التميز العنصري. سألتنا أمّ هذا الفتى إن كنا نرغب في المشاركة في اليوم الثقافي الذي تقيمه إحدى المدارس في لينكسفيلد، وهي ضاحية يعيش فيها الأغنياء في جنوب ساندرينغهام حيث كان صديقي تيدي يعيش. وقالت إنه ستُقدّم في تلك الحفلة مختلف أنواع الرقص والموسيقى، وعرضت علينا مبلغاً من المال فوافقنا على الفور. أرسلت لنا المعلومات والتفاصيل المتعلقة بموعد الحفلة واسم المدرسة التي ستقام فيها: كان اسمها مدرسة الملك داوود. مدرسة يهودية.

في يـوم الحفلـة، حجزنـا حافلـة صغـيرة، وضعنـا فيهـا معداتنـا وانطلقنـا. عندمـا وصلنـا انتظرنـا في قاعـة الاجتماعـات في المدرسـة وشـاهدنا العـروض التـي تقـدم عـلى خشـبة المسـرح أمامنـا: فـرق مختلفـة تـؤدّي عروضهـا عـلى المسـرح: راقصـو فلامنغـو، راقصـون يونانيـون، عازفـو موسـيقى الزولـو التقليدية. ثـمّ جاء دورنـا وصعدنا إلى المسـرح. كنّـا نُدعـى باسـم **راقـصي بانتسـولا الهيـب هـوب**، - الفرقـة التـي تشـبه فرقـة B-Boys في أمريـكا. عندمـا ثبتّنـا المكـبرات عـلى المسـرح، نظـرت حـولي ورأيـت القاعـة كلهـا مليئـة بصبيـة يهـود يعتمـرون طاقيـات عـلى رؤوسـهم، متأهبين للاسـتماع والاسـتمتاع بما سـنقدّمه

تقدّمـت مـن الميكروفـون وصحـت: «هـل أنتـم مسـتعدّون لسـماع الروك؟»

«يايايـاهـهـهـهـه».

«اصرخوا».

«يايايـاهـهـهـهـه».

بـدأت الموسـيقى. بـدأ الصـوت يلعلـع، وبـدأت الفرقـة ترقـص. كان الجميـع مسـتمتعين بـما يشـاهدونه: المعلمـون، المرافقـون، الآبـاء، مئـات الفتيـان -كانـوا كلّهـم يرقصـون بجنـون. كانـت الفـترة المخصصـة لنـا خمـس عـشرة دقيقـة، وفي الدقيقـة العـاشرة طُلـب منـي أن أعـزف «النصبـح وسـخين»، حتـى يخـرج راقصنـا النجـم، ويـا إلهـي.

بـدأتُ الأغنيـة، وشـكّل الراقصـون نصـف دائـرة، ثـم اقتربـتُ مـن الميكروفـون وصحـت:

«هل أنتم مستعدّون؟»

«يايايامهههههه».

«هل أنتم مستعدّون! هل أنتم مستعدّون؟»

«يايايامهههههه».

«حسناً! هيا ارفعوا أصواتكم لهييتت لليرررر!!!»

قفـز هتلـر إلى وسـط الدائـرة وبـدأ يرقـص، وبـدأ الراقصـون حوله يهتفون، «هيا هتلر! هيا هتلر! هيا هتلر! هيا هتلر». كانـت أذرعهـم ممدودة أمامهـم، يقفـزون عـلى الإيقـاع. «هيا هتلـر! هيـا هتلـر! هيـا هتلـر! هيـا هتلـر!» وكنـت أنـا واقفـاً أمـام الميكروفـون أصيـح «هيـا هتلر! هيـا هتلـر! هيـا هتلـر! هيـا هتلـر!»

وفجـأة توقّفـت القاعـة كلّهـا. لم يعـد أحـد يرقـص. تجمّـد المعلمون والمرافقـون والآبـاء ومئـات الفتيـان اليهـود الـذي يعتمـرون طاقيـات عـلى رؤوسـهم، وراحـوا يحدّقـون بنـا بذعـر عـلى المسرح. لم أنتبـه لذلـك، وكذلـك هتلـر. فواصلنـا الرقـص. طـوال ثلاثـين ثانيـة كان الصـوت الوحيـد الـذي يُسـمع في القاعـة هـو صـوت الموسيقى وأنـا أصرخ عـلى الميكرفـون، «هيـا هتلـر! هيـا هتلـر! هيـا هتلـر! ارفعـوا أيديكـم في الهـواء لهتلـر، يـو».

صعـدتْ إحـدى المعلّـمات إلى المـسرح وسـحبت السـلك

الكهربائي من القابس في الجدار. غرقت القاعة في الصمت، ثم التفتت إليّ وقالت بغضب شديد «كيف تجرؤ؟ هذا شيء مقزز. أنت فظيع، مخلوق حقير، مقرف! كيف تجرؤ؟»

كان عقلي في سباق، أحاول أن أفهم عما تتحدث، ثم فهمت. كانت لدى هتلر حركة خاصة في الرقص تدعى o spana va وهي تعني «حيث تعمل» وهي حركة فيها إيحاء جنسي كبير: فقد كان يحرك ردفيه بشكل دائري ثم يدفعهما إلى الخارج كأنه يضاجع الهواء. كانت هذه هي الحركة التي يؤديها عندما ركضت المعلّمة، فلا بد أنها وجدت الرقصة مقززة، لكنها حركة يفعلها الأفارقة دائماً. إنها جزء من ثقافتنا، وكنا نقدّم للآخرين ثقافتنا في هذا اليوم الثقافي، وها هي هذه المرأة تقول إنه شيء مقرف. شعرت بالإساءة، وقد أهانني ذلك.

فقلت لها: «سيدتي، أظن أنك يجب أن تهدئي».

«لن أهدأ! كيف تجرؤ على أن تأتي إلى هنا وتهيننا هكذا؟»

«هذه ليست إهانة لأحد. هكذا نرقص».

«اخرجوا من هنا! أنتم ناس مقرفون».

ها هي. أنتم أيها الناس. الآن فهمت القصة: فهذه السيدة عنصرية، ولم تتحمّل أن ترى شباناً سوداً يرقصون بطريقة إيحائية فانزعجت. وبينما بدأت أحزم أغراضنا لم نتوقف عن الجدال.

«اسمعي يا سيدتي. نحن أحرار الآن. سنفعل ما نريد أن نفعله. لا يمكنك أن توقفينا عن ذلك».

«أريد أن أقول لك إنّ شعبي أوقف أناساً مثلكم من قبل، ونستطيع أن نوقفكم مرة أخرى».

بالطبع كانت تتحدّث عن وقف النازيين في الحرب العالمية الثانية، لكني لم أفهم ذلك. فاليهود في جنوب أفريقيا أناس بيض، وكان كلّ ما أسمعه هو أن سيدة بيضاء تصرخ وتعلن كيف أن البيض ضربونا من قبل وسيضربوننا مرة أخرى. فقلت لها: «لن توقفينا ثانية، يا سيدتي» - وهنا لعبتُ الورقة الرابحة -«لن توقفينا أبداً لأن نيلسون مانديلا يقف الآن إلى جانبنا! وقال لنا إننا نستطيع أن نفعل ذلك».

«ماذا؟»

كانت مشوّشة تماماً. لقد نلت منها. بدأت أشتمها. «عليك اللعنة يا سيدتي. اللعنة على برنامجك. اللعنة على مدرستك. اللعنة على شعبك كله. هيا لنذهب، يا شباب! سنخرج».

عندما خرجنا من تلك المدرسة، رحنا نرقص خارجها. رقصنا في الشارع ورحنا نرفع قبضاتنا في الهواء ونصيح: «هيا هتلر! هيا هتلر! هيا هتلر! هيا هتلر»، لأن هتلر أزعجهم، هتلر الذي يؤدي أجمل حركات الرقص إثارة، ولا يعرف هؤلاء البيض ما الذي أصابهم.

كانت ألكساندرا مزرعة سمّيت بالأصل باسم زوجة الرجل الأبيض الذي كان يمتلكها. مثل صوفياتاون ومناطق أخرى للسود يقطنها البيض قبل نظام التفرقة العنصرية، بدأت ألكس منطقة سكنية عشوائية تجمّع فيها السود وعاشوا فيها عندما كانوا يأتون إلى جوهانسبرغ للبحث عن عمل. ما يميّز ألكس هو أنّ صاحب المزرعة ذاك باع قطعاً من الأرض إلى بعض المستأجرين السود عندما كان امتلاك السود قانونياً. ففي حين هدّمت صوفياتاون وغيتوات أخرى يعيش فيها السود وسوّيت بالأرض ثم أعيد بناؤها كضواحٍ للبيض، كافحت ألكس وتشبثت بحقّها في الوجود. ونمت حولها بعض الضواحي الغنية للبيض مثل ساندتون، وصمدت ألكس. وتدفقت إليها أعداد كبيرة من الفقراء السود وبنوا فيها أكواخاً مؤقتة، وأصبحت تشبه الأحياء الفقيرة في مومبي أو مدن الصفيح في البرازيل. عندما رأيت مدن الصفيح في ريو لأول مرة قلت لنفسي: «نعم، هذه هي ألكساندرا، لكن هذه مبنية فوق هضبة».

كانت سويتو جميلة لأنك بدأت ترى سويتو تنمو بعد مجيء النظام الديمقراطي. أصبحت سويتو مدينة بحد ذاتها. فانتقل الناس فيها من بيوت تتألف من ثلاث غرف إلى بيوت تتألف من خمس غرف وإلى بيوت فيها ثلاث غرف نوم مع كراج للسيارة. أصبح هناك مكان يمكنك أن تنمو فيه لأن قطعة الأرض التي قدمتها الحكومة منحتك مكاناً تبني عليه بيتاً. أما في الكساندرا

فلم يكن بوسعك أن تفعل ذلك، لأنها لا تستطيع أن تتوسع أكثر من ذلك، لأنها محاطة من جميع الجوانب، ولا يمكنها أن تنمو أكثر لأن معظمها أكواخ.

عندما حلّت الديمقراطية، تدفق البشر إلى ألكساندرا من البلدات، وبنوا أكواخاً جديدة في فناءات البيوت الخلفية الملتصقة بأكواخ أخرى فازدادت الأكواخ التصاقاً ببعضها وازدادت كثافة، وأصبح يعيش فيها قرابة ٢٠٠،٠٠٠ نسمة في بضع كيلومترات مربّعة. وإذا عدت إليها اليوم، فإنك ستجد ألكساندرا لم تتغيّر. إنها لا تستطيع أن تتغيّر. من المستحيل أن تتغير. لا يمكنها أن تكون إلا كما هي.

(١٦)

فتيان الجبنة

كان صديقي بونغاني قصير القامة، أصلع، ممتلئ الجسم. لم يكن هكذا من قبل. فقد كان طوال حياته نحيفاً، ثم وجد مجلة عن كمال الأجسام غيّرت حياته. "كان بونغاني واحداً من أولئك الأشخاص الذين يُظهرون أفضل شيء لديك. كان ذلك الصديق الذي يؤمن بك ويرى الإمكانيات التي تمتلكها والتي لا يراها أحد آخر، فانجذب إليه الكثير من الفتيان في البلدات، وهذا ما جذبني إليه أيضاً. كان بونغاني محبوباً دائماً، لكن سمعته بدأت تزداد عندما ضرب أحد أكثر التلاميذ تنمّراً في المدرسة، فقويت مكانته كزعيم ومدافع عن الفتيان في البلدة. "

كان بونغاني يعيش في ألكس، لكنني لن أزره هناك قط عندما كنّا في المدرسة، بل كان يزورني دائماً في بيتي في هايلندز نورث. كنت قد زرت ألكس بضع مرات، لكن في زيارات قصيرة، ولم أمض فيها وقتاً حقيقياً. لم أذهب إليها في الليل قط، ويمكنني أن أقول إن زيارة ألكس في النهار تختلف عن زيارتها في الليل. وكان يُطلق عليها «غومورراه» لسبب.

في أحد الأيام، بعد انتهاء دوام المدرسة، جاء إليّ بونغاني في باحة المدرسة.

قال: «هيه، دعنا نذهب إلى الهوود[1]».

«الهوود؟»

في البداية لم أعرف عمَّ يتكلّم. فقد كنت قد سمعت كلمة «هوود» من أغاني الراب، وكنت أعرف مختلف البلدات التي يقطنها السود، لكنّي لم أسمع أن هذه الكلمة تصف تلك البلدات.

كانت جدران نظام التمييز العنصري قد بدأت تتهاوى عندما كانت موسيقى الهيب - هوب الأمريكية تتصاعد وهي التي جعلت الهوود مكاناً لطيفاً. ففي الماضي، كان العيش في البلدات شيئاً يدعو إلى الخجل لأنها كانت تعتبر قاع القاع. لكن عندما شاهدنا أفلاماً مثل «Boyz n the Hood» و«Menace II Society»، أصبحت الهوود تبدو جميلة، بسبب الشخصيات في تلك الأفلام والأغاني التي تتحدث عنها. فبدأ الفتيان في البلدات يفعلون الشيء نفسه، يعتبرون هويتهم علامة مشرفة: فلم يعد يقال إنك من البلدات وإنما أنت من الهوود. وكونك من الكس أصبح يمنحك مصداقية أكبر من كونك تعيش في هايلندز نورث. فعندما قال لي بونغاني: «لنذهب إلى الهوود»، انتابني فضول لأعرف ماذا يقصد. أردت أن أكتشف المزيد.

(1) مكان تسود فيه العصابات وبيع المخدرات.

عندما أخذني بونغاني إلى ألكس دخلنا إليها كما يفعل معظم الناس، من طرف ساندتون. تجتاز أحد أغنى الأحياء في جوهانسبرغ الذي تحفّه قصور فخمة من جانبيه، ثمّ تجتاز الحزام الصناعي في وينبيرج الذي يشكّل حاجزاً بين أحياء الأغنياء البيض وأحياء الفقراء السود. وعند مدخل ألكس ترى صفاً طويلاً هائلاً من حافلات الميني باص ومحطة الحافلات. إنها تشبه كثيراً أحد الأسواق التي تضج بالحركة والفوضى في أحد بلدان العالم الثالث الذي تراه في أفلام جيمس بوند وجايسون بورن. إنها تشبه محطة غراند سنترال في نيويورك، أما هذه فبدون أبواب وأسوار. كلّ شيء فيها يعجّ بالحيوية والنشاط. كل شيء فيها يتحرك. لا شيء يبدو كما كان البارحة، ولا شيء يبدو أن سيكون هناك يوم غد، لكن الأيام جميعها تبدو نفسها تماماً.

بجانب موقف حافلات الميني باص، يوجد بالطبع «مطعم كنتاكي للدجاج المقلي» (KFC) الذي يعتبر أحد الأشياء التي تميّز جنوب أفريقيا: هناك دائماً مطعم كنتاكي. لقد شقّت مطاعم كنتاكي طريقها إلى السود. لم تراوغ كنتاكي وإنما جاءت إلى الهوود قبل أن تأتي مطاعم مكدونالد، وقبل أن تأتي مطاعم بيرغر كينغ. جاء قبل الجميع كأن لسان حال كنتاكي يقول: «هيه، لقد جئنا إلى هنا من أجلكم».

عندما تتجاوز صفّ حافلات الميني باص، تصبح داخل ألكس. كنت قد زرت أماكن أخرى تشبه ألكس. خلية نحل من النشاط البشري الذي لا يتوقف، طوال النهار، أناس يأتون

ويلعبون، أفراد عصابات يتجولون، شبان يقفون عند ناصية الشارع لا يفعلون شيئاً، فتيان يركضون هنا وهناك. وبما أنه لا يوجد متنفس لجميع الناس هنا لتبديد طاقتهم، وبما أنه لا تتوفر آلية لتبديدها، فإنها تنفجر بين الحين والآخر في شكل أعمال عنف ملحمية وإقامة حفلات جنونية. يسود الهدوء فترة بعد الظهر، ترى الناس ينسكعون، يؤدون أعمالهم، وفجأة تسمع صافرة سيارة شرطة تطارد أفراد عصابة، تطير في الشوارع، ثم تنشب معركة بالأسلحة، وتحوم طائرات مروحية فوق الرؤوس. وبعد عشر دقائق، يختفي كلّ ذلك وكأن شيئاً لم يكن - فيعود الناس إلى تسكعهم وأعمالهم، ويعود الزحام، يغدون ويروحون، يركضون هنا وهناك.

تمتد ألكس فوق شبكة، سلسلة من الشوارع. الشوارع فيها معبّدة لكن معظم الأرصفة فيها وسخة. كتل من الرماد والحديد الممزّج يغلب عليها اللون الرمادي والرمادي الغامق تتخلله بقع من بعض الألوان البراقة. فترى أحداً قد طلى أحدهم جداراً بلون أخضر ليموني، أو ترى لافتة حمراء تلمع فوق مطعم للوجبات السريعة، أو ربما يكون أحداً قد وجد لوحة معدنية زرقاء ناصعة بالصدفة. لا ترى أشياء كثيرة في الطريق لكن الزبالة تملأ المكان. ثمة شيء يحترق دائماً في الحيّ.

عندما تمشي في الشارع، تهبّ عليك كلّ الروائح التي يمكنك أن تتخيّلها. الناس يطهون، يأكلون وجبات جاهزة في الشارع، أسرة كوخها ملتصق بالباحة الخلفية لكوخ شخص آخر، لا توجد

عندها مياه جارية، فيستحم أفرادها في دلو ماء من الحنفية العامة في الشارع ثم يدلقون الماء الوسخ في الشارع، فيجري في ساقية مياه المجاري لأن شبكة المياه قد سُدّت مرة أخرى. وترى رجلاً يصلح سيارات يظن أنه يعرف ما الذي يفعله، لكنّه لا يعرف، فيدلق زيت محرّك سيارة قديم في الشارع، فيختلط الزيت بمياه الاستحمام الوسخة ويتكون نهر وسخ يجري في الشارع. وقد توجد عنزة تجوب المكان - هناك عنزة دائماً. عندما تمشي، تسمع أصواتاً، دندنة مستمرة لنشاط بشري، أشخاص يتحدّثون بدزينة من اللغات المختلفة، يدردشون، يتساومون، يتجادلون. وتسمع موسيقى على الدوام. تأتيك موسيقى أفريقية جنوبية تقليدية من زاوية، وموسيقى دولي بارتون من زاوية أخرى، ويمرّ من أمامك شخص يقود سيارته ويطلق أغاني نوتوريوس بي. آي. جي بأعلى صوت.

كانت الهوود عبئاً حسّياً كاملاً عليّ، لكن في خضم تلك الفوضى كان هناك نظام، تراتبية اجتماعية تعتمد على المكان الذي تعيش فيه. فالشارع الأول أسوأها لأنه قريب جداً من جلبة حافلات الميني باص المصطفة والفوضى التي تحدثها. والشارع الثاني جميل لأن نصف البيوت فيه بنيت عندما كان لا يزال نوعاً من مستوطنة رسمية. أما الشوارع الثالث والرابع والخامس في أجمل تسكن فيها العائلات الراسخة، الأموال القديمة. وبدءاً من الشارع السادس يزداد الأمر سوءاً، فلا تعود ترى سوى أكواخ فقيرة. وتوجد هنا بعض المدارس وملاعب لكرة القدم. ويوجد

فندقان صغيران، ومشاريع ضخمة بدأتها الحكومة لتوفير مساكن للعمّال المهاجرين. ثم لا تريد أن تبتعد أكثر لأن العصابات الخطيرة تتمركز هناك. لن تذهب إلى هناك إلاّ إذا كنت تريد أن تشتري بارودة كلاشينكوف.

بعد الشارع العشرين تصل إلى نهر جوكسكي، وعلى الجانب الآخر، عبر جسر شارع روزفلت، توجد إيست بانك، أحدث وأجمل شطر في الهوود. فقد جاءت الحكومة إلى إيست بانك، وأخلت السكان الذين استولوا على تلك الأراضي وأزالت أكواخهم، وبدأت تبني بيوتاً حقيقية. بيوت لذوي الدخل المنخفض، بيوت تتألف من غرفتيْ نوم لاثنتين فيها فناء صغير جداً. وتملك الأسر التي تعيش هناك النقود فيرسلون أبناءهم عادة إلى مدارس أفضل خارج البلدة، مثل مدرسة ساندرينغهام. وكان والدا بونغاني يعيشان في إيست بانك، عند تقاطع شارع روزفلت وسبرينغبوك كريسنت. عندما تتجاوز صفّ حافلات الميني باص في الحيّ، نصل إلى بيته، نتسكّع خارجه ونجلس على الجدار الحجري الواطئ في وسط سبرينغبوك كريسنت، لا نفعل شيئاً، نصطاد الخراء. في ذلك الوقت لم أكن أعرف أنني سأمضي السنوات الثلاث المقبلة من حياتي في هذه البقعة بالتحديد.

***

تخرّجت من المدرسة الثانوية وأنا في السابعة عشرة من عمري. تحولّت الحياة في البيت آنذاك إلى جحيم بسبب زوج

أمّي. لم أعد أريد أن أعيش في البيت، ووافقت أمّي على أنني يجب أن أنتقل من البيت، وساعدتني على استئجار شقّة صغيرة رخيصة تعجّ فيها الصراصير في بناية في آخر الشارع. كنت أزمع الذهاب إلى الجامعة وأدرس برمجة الكمبيوتر، لكن لم يكن بوسعنا تحمّل نفقات الدراسة في الجامعة. كان عليّ أن أجمع نقوداً، وكانت الوسيلة الوحيدة التي أعرفها لأكسب نقوداً هي أن أبيع أقراص سي دي مقرصنة، وكان الهوود مكاناً مناسباً لبيعها، بسبب وجود موقف حافلات الميني باص فيها. فقد كان سائقو تلك الحافلات يطلبون دائماً أغاني جديدة لأنها تجذب الزبائن.

والشيء الجميل الآخر في الهوود هو أنها رخيصة جداً. يمكنك أن تعيش فيها بلا شيء تقريباً. كانت هناك وجبة طعام في الهوود اسمها كوتا وهي عبارة عن ربع رغيف من الخبز، يُقشط الخبز من داخله، ثمّ تحشوه بالبطاطا المقلّية وشريحة لحم بالوني ومخلل المانغا الذي يُسمى «أشار». كلّ ذلك يكلّفك راندين اثنين فقط. وكلما كنت تملك نقوداً أكثر، استطعت أن تشتري طعاماً أفضل. وإذا كنت تملك نقوداً أكثر قليلاً فإنك تستطيع أن تشتري سندويشة مقانق مقلية، وإذا كنت تملك نقوداً أكثر قليلاً، يصبح بإمكانك أن تشتري سندويشة سجق حقيقة، أو نقانق، أو ربما بيضة مقلّية. أكبر سندويشة مع كلّ الإضافات تكفي لإطعام ثلاثة أشخاص.

كان أكثر شيء يمكننا إضافته هو شريحة من الجبن. كانت الجبنة دائماً أكثر الأشياء المرغوبة لأنها غالية جداً. إنس معيار

الذهب - فالهوود تعمل وفق معيار الجبنة - فالجبنة تعتبر مالاً. فإذا اشتريت سندويشة بيرغر، فهذا جيد، أما إذا اشتريت سندويشة بيرغر وعليها شريحة جبنة، فهذا يعني أنك تملك نقوداً أكثر من الشخص الذي اشترى سندويشة بيرغر فقط. الجبنة في سندويشة، الجبنة في ثلاجتك، تعني أنك تعيش حياة رغيدة. في أي بلدة يقطنها السود في جنوب أفريقيا، إذا كنت تملك قليلاً من النقود فإن الناس يقولون: «أوه، أنت من فتيان الجبنة». وهذا يعني أنك لست من الهوود في الأصل لأن أسرتك تملك نقوداً وتستطيع أن تشتري جبناً.

بما أن بونغاني وأصدقاءه يعيشون في إيست بانك، فإنهم يُعتبرون في ألكس فتيان الجبنة، وبما أنهم يعيشون في الشارع الأول بجانب النهر، فقد كان يُنظر إليهم نظرة استصغار لأنهم من حثالة إيست بانك، أما الفتيان الذين يعيشون في البيوت الأجمل في إيست بانك فإنهم يُعتبرون فتيان الجبنة الأكثر جبنة. وكان بونغاني ورفاقه يرفضون أن يُطلق عليهم فتيان الجبنة، وكانوا يصرّون: «إننا لسنا فتيان الجبنة، إننا فتيان الهوود»، لكن فتيان الهوود الأصليين يردّون عليهم: «إيه، أنتم من الهوود، لا أنتم جبنة»، فيردّ عليهم فريق بونغاني، «لا نحن لسنا فتيان الجبنة»، ويشيرون إلى مكان بعيد في إيست بانك ويقولون: «أولئك هم فتيان الجبنة». كانت كلّها مواقف وأحاديث سخيفة تدور حول من هم من الهوود ومن هم فتيان الجبنة.

كان بونغاني يترأس فرقته، الرجل الذي جمع الآخرين ويدير

كلّ شيء. وكان من بين أعضاء الفرقة مزي، مساعد بونغاني، شاب ضئيل الجسم، رغبته الوحيدة هي أن ينضم إلى الفرقة؛ وبيكي رجل المشروبات الذي يجلب لنا دائماً المشروبات؛ وكاكوانس الذي كنّا نسميه جي، شاب وسيم كلّ اهتمامه بالفتيات. فإذا كانت هناك فتيات في الفرقة، شارك في الرقص. وأخيراً، هتلر، عصب الحفلة، الذي لم يكن يريد شيئاً إلاّ أن يرقص.

أصبح وضع فتيان الجبنة سيئاً بعد زوال نظام التميز العنصري. كان هناك شيء واحد هنا وهو أنك عندما تولد في الهوود فإنك تعرف أنك لن تغادر الهوود. ففي حين رأى فتى الجبنة العالم الخارجي لأن والديه كانا ميسوري الحال ويوجد عندهما بيت، وكانا قد أرسلاه إلى مدرسة جيدة، وربما يكون قد درس في الجامعة أيضاً. كان قد مُنح إمكانيات أكبر، لكنّه لم يُمنح فرصاً أكبر." أتيحت له فرصة أن يتعرف على العالم خارج البلدة، لكنّه لم يُمنح الوسيلة للوصول إلى ذلك العالم."

ازداد معدّل البطالة في جنوب أفريقيا عما كان عليه أثناء نظام التمييز العنصري، وهذا شيء منطقي. فقد كانت هناك عبودية - هكذا كان الجميع يعملون، وعندما حلّت الديمقراطية، أصبح على كلّ شخص أن يحصل على الحد الأدنى من الأجور. وارتفعت تكلفة اليد العاملة، ووجد فجأة ملايين الناس أنفسهم عاطلين عن العمل. وبعد انتهاء نظام التمييز العنصري ارتفع معدّل البطالة عند الشباب السود كثيراً، ووصل أحياناً إلى نسبة ٥٠ في المائة. وما حدث هو أن عدداً كبيراً من الشبان كانوا ينهون دراستهم الثانوية

ولا يستطيعون تحمّل نفقات الجامعة، وحتى الحصول على أعمال صغيرة أصبح في غاية الصعوبة لاسيما إذا كنت من سكان الهوود لأن رؤيتك للأمور ومعالجتك لها تكون مختلفة. فأصبحت الحرية للعديد من الشبان في البلدات في جنوب أفريقيا بهذا الشكل: تستيقظ صباح كلّ يوم، وربما يذهب والداك إلى العمل أو ربما لا يذهبان، ثمّ تخرج من البيت وتتسكع عن ناصية الشارع، طوال النهار، تمضيه في الهذار والكلام الفارغ. لقد أصبحوا أحراراً. لقد تعلّموا الصيد، لكن لم يعطهم أحد صنارة يصطادون بها.

***

أحد الأشياء التي تعلّمتها عندما وصلت إلى الهوود هو أنه يوجد خيط رفيع جداً بين أن تكون شخصاً عادياً وبين أن تكون مجرماً. فنحن نحبّ أن نعتقد بأننا نعيش في عالم مليء بالأشخاص الطيبين والأشرار. إن كنت تعيش في الضواحي فمن السهل أن ترى ذلك، لأنك قلما ترى مجرماً محترفاً في الضواحي، أما عندما تذهب إلى الهوود فإنك ترى أن هناك ظلالاً كثيرة في الوسط.

في الهوود، يكون أفراد العصابات أصدقاءك وجيرانك. إنك تعرفهم. تكلّمهم عند ناصية الشارع، وتراهم في الحفلات. إنهم جزء من عالمك. تعرفهم قبل أن يصبحوا أفراد عصابات. لا تقول: «هيه، إنه تاجر مخدرات»، وإنما تقول: «هيه أوه، أصبح جيمي الصغير بائع مخدرات الآن». والغريب أنك ترى جميع أفراد العصابات، لأول وهلة، يشبهون بعضهم بعضاً. يقودون السيارة

الرياضية الحمراء نفسها، ويخرجون مع الفتيات الجميلات اللاتي لا يتجاوزن الثامنة عشرة من العمر. كان ذلك شيئاً غريباً. ولا توجد عندهم شخصيات متميزة، وإنما يتقاسمون الشخصية نفسها. قد يكون أحدهم الآخر، وقد يكون الآخر هو ذلك الواحد، فقد درس كلّ واحد منهم كيف يجب أن يكون عضو العصابة ذاك.

في الهوود، حتى لو لم تكن مجرماً عتيداً، فإن الجريمة تجد طريقها إلى حياتك بطريقة أو بأخرى. هناك درجات من الجريمة. إنها كلّ شخص بدءاً من الأمّ التي تشتري طعاماً من مؤخرة شاحنة لتطعم أفراد أسرتها، حتى العصابات التي تبيع أسلحة ومعدات عسكرية. "جعلتني الهوود أدرك أنّ الجريمة تنجح لأن الجريمة تفعل ما لا تفعله الحكومة: الجريمة تعني شيئاً. الجريمة هي القاعدة الشعبية. الجريمة تبحث عن الفتيان الصغار الذين يحتاجون إلى دعم ويد تساندهم. الجريمة تقدم برامج تدريبية ووظائف صيفية وفرصاً للتقدّم. الجريمة متداخلة في المجتمع. الجريمة لا تعرف التميز."

بدأتُ حياتي الإجرامية صغيرة، في بيع أقراص سي دي مقرصنة على ناصية الشارع. كان ذلك بحد ذاته جريمة، وأشعر اليوم بأنني مدين بكلّ النقود التي كسبتها للفنانين الذين سرقت موسيقاهم، لكن بمعايير الهوود، لم يكن ذلك شيئاً غير شرعي. في ذلك الوقت، لم يكن يخطر لأحد منّا أننا نرتكب خطأً - فإذا كان نسخ أقراص السي دي خطأً، فلماذا صنعوا أجهزة تسجيل الأقراص؟

كان الكراج في بيت بونغاني يطلّ على شارع سبرينغبوك كريسنت. في صباح كلّ يوم، كنّا نفتح بابه، ونمدّ سلكاً كهربائياً إلى الشارع، ونضع طاولة، ونبدأ تشغيل الموسيقى. كان الناس يمرّون بجانبنا ويسألون، «ما هذه؟ هل أستطيع أن أشتري واحدة منها، من فضلك؟» كانت ناصية الشارع التي نقف عندها هي آخر موقف يتوقف عنده سائقو الميني باص ويصفّون حافلاتهم وراء الحافلات الأخرى بانتظار دورهم من جديد. كانوا يأتون إلينا ويطلبون الأقراص التي يرغبون في شرائها، ثم يعودون بعد فترة ويأخذونها. كنا نمضي يومنا كلّه في الجري إليهم، ثم نعود إلى الكراج لننسخ أقراصاً أخرى، ثم نعود لنبيعها. كانت هناك حاوية شحن تتسكع بالقرب منها عندما نملّ من الوقوف عند الجدار، رُكّب فيها هاتف عمومي كنّا نستخدمه للاتصال مع الآخرين. عندما تكون الأمور بطيئة، كنّا نتمشّى ذهاباً وإياباً بين تلك الحاوية والجدار الواطئ، نثرثر مع آخرين. لم يكن عندنا شيء نفعله في منتصف النهار. كنّا نتبادل الأحاديث مع تجّار المخدّرات ومع أفراد العصابات. وكانت الشرطة تأتي بين الحين والآخر، بغتة. هكذا كنا نمضي يومنا في الهوود، وفي اليوم التالي، يتكرر الشيء ذاته.

شيئاً فشيئاً بدأ البيع يزداد لأن بونغاني يعرف جميع الزوايا ويعرف كيف يستغلّها. ومثل توم، كان بونغاني ذكياً، لكن بينما كان توم مخادعاً، كان بونغاني يضع خططاً: إذا فعلنا هذا، فإننا نحصل على ذاك، ثمّ يمكننا أن نتحول إلى شيء آخر. كان ذلك يمنحنا القوة

التي نحتاج إليها لنحصل على شيء أكبر. فعلى سبيل المثال، إذا لم يكن باستطاعة سائق ميني باص أن يدفع ثمن الأقراص سلفاً، كان يقول: «لا أملك نقوداً لأنني بدأت نوبتي الآن لكني أريد قرص سي دي جديداً. هل يمكنني أن آخذه بالدين؟ سأدين لكما بجولة في الحافلة، وسأدفع لكما ثمنها عندما أنهي عملي، في نهاية الأسبوع؟» وهكذا بدأنا نبيع السائقين بالدين، وأصبحنا نضيف مبلغاً صغيراً كفائدة.

بدأنا نكسب مزيداً من النقود. لكن المبلغ لم يكن يزيد على بضع مئات، ربما ألف راند في كلّ مرة، لكنها كانت مبالغ نقدية في أيدينا. وسرعان ما أدرك بونغاني المكانة التي أصبحنا فيها. فقد كانت السيولة النقدية هي كلّ ما تحتاج إليه في الهوود. فقد كان الجميع يبحثون عن قرض قصير الأجل من أجل شيء ما: تسديد فاتورة أو دفع غرامة أو تسيير أمور أخرى. فبدأ الناس يأتون إلينا ويطلبون نقوداً. كان بونغاني يُبرم مع أحد صفقة، ثم يأتي إليّ ويقول: «يو، سنبرم اتفاقاً مع هذا الرجل. سنُقرضه مائة، وسيعيدها مائة عشرين في نهاية الأسبوع»، فأقول له حسناً. ثمّ يعود الرجل ويعطينا ١٢٠ رانداً. فعلنا ذلك مرات عدة، وبدأت نقودنا تتضاعف حتى بلغت ثلاثة أضعاف.

جعلتنا المبالغ النقدية التي بحوزتنا نمارس اقتصاد المقايضة في الهوود أيضاً. فإذا كنت واقفاً عند ناصية شارع رئيسي في الهوود، سيأتي إليك أحد ويحاول أن يبيعك شيئاً. «هيه، يو، يو، يو، يا رجل. هل تريد قليلاً من الحشيش؟» أو «هل تريد أن تشتري

قرص سي دي؟» أو «هل تريد أن تشتري مشغّل أقراص فيديو؟» أو «يو، أريد أن أبيع جهاز تلفزيون». هكذا كانت الأمور تجري في الهوود.

لنقل إن شابين يقفان عند ناصية الشارع يحاولان أن يبيعا مشغّل أقراص فيديو ويساومان رجلاً يريد أن يشتريه لكنه لا يملك نقوداً لأنه لم يقبض راتبه بعد. يتجادلون، لكن البائعين يريدان النقود الآن ولا يريدان أن ينتظرا. هنا يتدخل بونغاني، ويأخذ الرجل جانباً.

يقول له بونغاني: «انظر، فهمت أنك لا تستطيع أن تدفع ثمن الجهاز الآن، لكن ما المبلغ الذي تريد أن تدفعه ثمناً له؟»

فيقول الرجل: «سأدفع مائة وعشرين».

«حسناً».

ثمّ يأخذ بونغاني التاجر جانباً.

«كم تريد ثمناً للجهاز؟»

«أريد مئة وأربعين».

«حسناً، اسمع. أنت تاجر مخدرات. وهذا الجهاز مسروق. سأعطيك خمسين».

يحتجّ التاجر قليلاً، لكنه يأخذ النقود نقداً، ثمّ يعود بونغاني إلى الشخص الآخر.

«سنبيعه بمائة وعشرين. ها هو الجهاز. إنه لك».

«لكن لا يوجد معي مئة وعشرون الآن».

«يمكنك أن تأخذه الآن، وبدلاً من أن تعطينا مئة وعشرين تعطينا مئة وأربعين عندما تقبض أجرك».

«موافق».

وهكذا نكون قد ربحنا الآن ٥٠ رانداً، ونحصل على ١٤٠ رانداً من العامل. لكن بونغاني كان يرى طريقة أخرى لزيادة الربح مرة أخرى. لنقل إن الرجل الذي اشترى الجهاز يعمل في مخزن لبيع الأحذية.

يسأله بونغاني، «كم تدفع ثمن حذاء نايكي مع الخصم الذي يمنحونه لك لأنك موظف عندهم؟»

«يمكنني أن أشتري زوج حذاء نايكي بمائة وخمسين».

«حسناً، بدلاً من أن تعطينا مئة وأربعين، سنعطيك عشرة وتجلب لنا حذاء نايكي بالتخفيض الذي تحصل عليه».

فيأخذ الرجل الجهاز الآن وفي جيبه ١٠ راندات، وهو يشعر بأنه حصل على صفقة مربحة. وعندما يجلب لنا حذاء نايكي نذهب إلى أحد فتيان الجبنة في إيست بانك ونقول له: «يو، إننا نعرف أنك تريد حذاء ماركة جوردان الجديد. ثمنه ثلاثمائة في المحلات وسنبيعه لك بمئتين». فنبيعه الحذاء ونذهب وقد حوّلنا الـ٦٠ رانداً إلى ٢٠٠.

" هذه هي الهوود. هناك دائماً أحد يشتري، وهناك دائماً أحد يبيع والمهارة هي أن تحاول أن تكون في وسط كلّ ذلك. لم يكن أي شيء نفعله قانونياً، فلا أحد يعرف من أين جاء أيّ شيء. فهل كان لدى الرجل الذي جلب لنا حذاء نايكي خصم للموظفين حقاً؟ لا تعرف. لا تسأل. تقول فقط: «هيه، انظر ماذا وجدت» و«حسناً، كم تريد؟» هذا هو القانون الدولي السائد هنا. "

في البداية، لم أكن أعرف أنني يجب ألاّ أسأل. أذكر أننا اشترينا ذات يوم مسجّل ستريو لسيارة أو شيئاً من هذا القبيل.

سألت الشخص، «لكن لمن هذا؟»

فقال لي: «إيه، لا تقلق، يوجد لدى البيض تأمين».

«تأمين؟»

«نعم، عندما يفقد الشخص الأبيض شيئاً، توجد لديه وثائق تأمين تدفع له تعويضاً عما فقده نقداً، لذلك كأنه لم يفقد شيئاً».

فقلت: «يبدو هذا شيء جيد».

هكذا كنّا نفكّر: عندما يفقد الرجل الأبيض شيئاً فإنه يحصل على نقود تعويضاً له، ميّزة لطيفة أخرى لأن تكون أبيض.

• من السهل أن تطلق أحكاماً على الجريمة وأنت تعيش في عالم غني. أما في الهوود فقد تعلّمت أن كلّ شخص يحمل أفكاراً مختلفة حول ما هو صواب وما هو خطأ، وأنه توجد تعاريف مختلفة عن ماهية الجريمة، وما هو مستوى الجريمة المستعدين لارتكابها.

فإذا جاء شخص يتعاطى المخدرات ومعه علبة رقائق ذرة سرقها من سوبرماركت، فإن الأمّ الفقيرة لا تقول لنفسها إنني أساعد مجرماً إذا اشتريت منه علبة رقائق الذرة هذه. لا. وإنما ستقول إن أسرتي بحاجة إلى طعام ويوجد لدى هذا الرجل رقائق الذرة التي أريدها، فتشتريها.

أمّي، أمّي المتديّنة جداً، الممتثلة للقانون التي كانت توبخني دائماً إذا لم ألتزم بالقواعد الصحيحة وتعلّمني كيف أتصرّف جيداً، لن أنسى أبداً ذلك اليوم عندما عدت إلى البيت ورأيت في المطبخ صندوقاً كبيراً مليئاً بفطائر البيرغر المجمّدة، حوالي مئتيْ فطيرة، من مطعم «بلاك ستير» للوجبات السريعة، التي لا يقل ثمن فطيرة البيرغر الواحدة في بلاك ستير عن ٢٠ رانداً.

سألتها، «ما هذا بحقّ الجحيم؟»

فقالت: «كان يبيعها أحد الزملاء في العمل. اشتريتها بسعر منخفض جداً».

«لكن من أين جاء بها؟»

«لا أعرف. قال إنه يعرف شخصاً...»

«ماما. لقد سرقها».

«لا نعرف ذلك».

«نحن نعرف ذلك. من أين، بحق الجحيم، يستطيع شخص أن يحصل على كلّ فطائر البيرغر هذه، من لا مكان؟»

بالطبع، تناولنا البيرغر. ثمّ شكرنا الله على نعمة الطعام.

عندما قال لي بونغاني أول مرة، «لنذهب إلى الهوود»، ظننت أننا سنبيع أقراص السي دي التي أنسخها ونقيم حفلات دي جي لنجمع نقوداً لتمويل عمليات الإقراض والرهونات في الهوود الذي أصبح ذلك عملنا الرئيسي.

كان كلّ يوم في الهوود يشبه اليوم الذي سبقه واليوم الذي يليه. أستيقظ في وقت مبكر. يلتقي بونغاني بي في شقّتي ونستقلّ حافلة ميني باص إلى ألكس وأنا أحمل جهاز الكمبيوتر، أحمل الجهاز الضخم والشاشة الثقيلة الكبيرة طول الطريق، ثم نضعها في كراج بيت بونغاني، ونبدأ ننسخ الدفعة الأولى من أقراص السي دي، ثمّ نذهب إلى ناصية الشارع عند تقاطع الشارع التاسع عشر وروزفلت لنتناول طعام الفطور. عندما تريد أن تزيد المبلغ الذي بحوزتك، يجب أن تكون حريصاً في الطعام. يجب أن تخطط وإلاّ فإنك ستأكل أرباحك. فكنّا نفطر فتيكويك صباح كلّ يوم التي هي في الأساس عجينة مقلية. كانت رخيصة، ثمن القطعة منها حوالي ٥٠ سنتاً. كان بإمكاننا أن نشتري مزيداً منها ونحصل منها على طاقة تكفينا حتى وقت متأخر من اليوم.

ثمّ نجلس عند ناصية الشارع ونأكل. وخلال ذلك نسجّل طلبات من سائقي الميني باص عندما يمرون من أمامنا. ثم نعود إلى كراج بونغاني، نستمع إلى الموسيقى، ونمارس رياضة رفع الأثقال، ونسجّل أقراص السي دي. وفي الساعة العاشرة أو الحادية

عشرة، عندما يبدأ السائقون بالعودة من رحلاتهم الصباحية، نأخذ أقراص السي دي ونذهب إلى ناصية الشارع فيأتي السائقون ويأخذون طلباتهم، ثمّ نتسكع قليلاً ونلتقي بأشخاص آخرين، نرى من يأتي، نرى إلى أين سيقودنا اليوم. شخص يحتاج إلى هذا. شخص يبيع ذاك. لا تعرف أبداً ما الذي يمكن أن يجري.

كان العمل يصل إلى ذروته في فترة الغداء. نطوف في أرجاء ألكساندرا، نزور المحلات والزوايا المختلفة، ونعقد صفقات مع الجميع. وكنّا نركب مجّاناً في حافلات الميني باص. كنّا نقفز إلى الحافلة ونبدأ نتحدّث مع السائق عن الموسيقى التي يحتاج إليها، لكننا كنّا نركب معه مجاناً. «نريد أن نسجّل طلبات. سنكلّمك وأنت تقود الحافلة. ماذا تريد؟ ما هي الأغاني التي تريدها؟ هل تريد ماكسويل الجديدة؟ حسناً، عندنا ماكسويل الجديدة. حسناً، سنتحدّث إليك لاحقاً. نريد أن ننزل هنا»، ونقفز من الحافلة لنأخذ حافلة أخرى متجهة إلى المكان الذي نريد أن نذهب إليه.

ثم يتوقف العمل بعد الغداء، فنتناول طعامنا الذي يكون عادة أرخص شيء يمكننا أن نشتريه، مثل «سمايلي» مع وجبة من الذرة الصفراء. وسمايلي هي رأس عنزة تُسلق وتغطّى بفلفل حار. وكنّا نسميها سمايلي لأنك عندما تنتهي من تناول اللحم في رأسها، فإن العنزة تبدو كأنها تبتسم لك من الصحن. كان لحم الخدود واللسان لذيذاً، أما العيون فكانت مقرفة. تفقأ في فمك. تضع مقلة العين في فمك وتقضمها فتنفجر في فمك مثل كرة من

القبح. إنها لا تقرمش. لا تمضغها. لا توجد فيها نكهة لذيذة بأي شكل من الأشكال.

* بعد الغداء نعود إلى الكراج، نأخذ قسطاً من الراحة، ننام قليلاً بعد وجبة الطعام، ثم ننسخ أقراص سي دي أخرى. وخلال فترة بعد الظهر نرى عدة أمهات. كانت الأمهات يرحمن لنا. كنّ من أفضل زبائننا. وبما أن الأمهات هن اللاتي يدرن بيت الأسرة، فقد كنّ يأتين لشراء علبة الصابون التي وقعت من مؤخرة الشاحنة، وكنّ يفضلن أن يشترينها منّا على أن يشترنها من تاجر يتعاطى المخدرات لأن التعامل معهم يسبّب لهن مشكلات كثيرة، أما نحن فكنّا شباناً مستقيمين نتحدّث بلطف لأننا جئنا من إيست بانك. وكنا نطلب مبلغاً أكثر قليلاً لأننا أضفنا هذه الطبقة من الاحترام إلى الصفقة. وكانت تلك الأمهات يحتجن أيضاً إلى قروض قصيرة الأجل لتسديد هذا الأمر أو ذاك من أجل الأسرة. ومرة أخرى، كنّ يفضّلن التعامل معنا على التعامل مع بعض الحيتان من أفراد العصابات. فقد كنّ يعرفن أننا لن نكسر ساق أحد إذا لم يستطعن أن يسددن ما عليهن، لأننا لم نكن نؤمن بذلك، ولأننا لم نكن قادرين على عمل ذلك أيضاً. لكن هنا يأتي ذكاء بونغاني. فقد كان يعرف دائماً ما الذي يمكن أن يقدمه شخص إذا لم يتمكّن من تسديد المبلغ. "

كنا نعقد بعض أكثر الصفقات جنوناً. كانت الأمهات في المورود يحمين بناتهن، خصوصاً إذا كانت بناتهن جميلات. في المكس كانت الفتيات يمكثن في البيت. يذهبن إلى المدرسة، ويعدن مباشرة

إلى البيت. لم يكن يُسمح لهن بمغادرة البيت، ولم يكن يُسمح للفتيان بأن يكلّموهن، بل حتى أنه لم يكن يُسمح لهم بالتسكّع حول البيت - لا شيء من كل هذا. فإذا رأيت شاباً يقول دائماً عن فتاة: «إنها فتاة جميلة جداً. سأفعل كلّ ما بوسعي لأكلّمها». لكنّه لا يستطيع. لا أحد يستطيع.

ثمّ يصادف أن تطلب تلك الأمّ قرضاً منّا. ومنذ اللحظة التي نعطيها فيها المبلغ، وحتى تسدده لا تستطيع أن تبعدنا عن بيتها. فقد كنّا نذهب ونتسكع بجانب بيتها ونفتح معها حديثاً، وتكون الفتاة واقفة هناك، لكن أمّها لا تستطيع أن تقول لها: «لا تتكلّمي مع هؤلاء الفتيان». كان القرض يتيح لنا فرصة أن نقيم صداقة مع الأمّ. فتدعونا إلى العشاء. وعندما تعرف الأمّ أنّنا شابان لطيفان مستقيمان، تسمح لنا بأن نرافق ابنتها إلى الحفلة ونعدها بأننا سنعيدها إلى بيتها بأمان. ثم نذهب إلى الفتى المستميت للقاء تلك الفتاة.

«هيه، لنعقد اتفاقاً. سنحضر الفتاة إلى الحفلة وتستطيع أن ترافقها. كم تعطينا؟»

فيقول: «لا توجد معي نقود، لكن توجد عندي بعض صناديق البيرة».

«حسناً سنذهب الليلة إلى الحفلة، وتعطينا صندوقيْ بيرة في الحفلة»

«موافق».

ثمّ نذهب إلى الحفلة. وندعو الفتاة التي تكون عادة سعيدة لأنها هربت من سجن أمّها. يجلب لنا الشاب صندوقيْ البيرة، ويتحدث مع الفتاة، ثم نشطب دين الأمّ لنريها مدى امتناننا لها، ونستعيد نقودنا من بيع صندوقيْ البيرة. كانت هناك دائماً طريقة لعمل ذلك. وفي معظم الأحيان، يكون هذا الجزء الأكثر متعة: "تقريب الزوايا، حلّ اللغز، رؤية من يحتاج إلى ماذا، مع من يمكننا أن نتواصل لنحصل على نقود. "

في ذروة أعمالنا يمكننا أن نحصل على مبلغ ١٠,٠٠٠ راند. كنّا نقدّم قروضاً ونكسب فائدة منها. وكان قد أصبح عندنا مخزون من أحذية جوردان وأجهزة دي في دي كنّا نشتريها لنبيعها من جديد. وكنا نشتري أيضاً أقراص سي دي فارغة، ونستأجر حافلات ميني باص للذهاب إلى إقامة حفلات دي جي، وكان علينا أن نوفّر الطعام لخمسة شبان ثلاث مرات يومياً. كنا نتابع كلّ شيء على الكمبيوتر. وبما أنني عشت في عالم أمّي، كنت أعرف كيف أنظم جداول البيانات. كنت أفتح صفحة مايكروسوفت إكسل وأسجل فيها اسم كلّ شخص، ومبلغ الدين، ومتى سدد الدين، ومتى لم يسدده.

بعد الانتهاء من كلّ ذلك، تبدأ وتيرة العمل تزداد. فيسجّل سائقو الميني باص طلباتهم الأخيرة، والأشخاص العائدون إلى بيوتهم. لا يبحث الرجال عن رقائق الذرة أو الصابون، وإنما يطلبون أشياء من قبيل: مشغّل أقراص دي في دي، وجهاز تشغيل أقراص فيديو، وألعاب بلاي ستيشن. ويأتي أيضاً شبان آخرون

ليبيعوا أشياء سرقوها أثناء النهار. فترى شاباً يبيع جهاز هاتف خلوي، وشاباً يبيع سترات جلدية، وآخر يبيع أحذية. وكان هناك ذلك الشاب الذي يبدو كأنه نسخة سوداء من السّيد بيرنز في مسلسل «عائلة سيمبسون». كان يأتي دائماً بعد انتهاء دوامه ويجلب أشياء عديدة عديمة الفائدة، مثل فرشاة أسنان كهربائية بدون شاحن. في إحدى المرات، جلب ماكينة حلاقة كهربائية.

«ما هذا بحقّ الجحيم؟»

« ماكينة حلاقة كهربائية؟»

«ماكينة حلاقة كهربائية؟ نحن سود. هل تعرف ما الذي تفعله هذه الأشياء لجلدنا؟ هل رأيت أحداً هنا يستعمل شفرة حلاقة كهربائية؟ »

لم نعرف قط من أين يأتي بهذه الأشياء لأنك لا تسأل. وفي النهاية خمّنا: فهو يعمل في المطار، وكان يسرق الأشياء عديمة الفائدة من حقائب الناس.

وشيئاً فشيئاً تهدأ الحركة ثم تتوقف أخيراً. نعدّ مجموعاتنا الأخيرة، نستعرض ما تبقى من أقراص، نوازن حساباتنا. وإذا كنّا سنقيم حفلة دي جي في تلك الليلة، فإننا نبدأ بالتحضير لها. وإلاّ فإننا نشتري بيرة ونجلس ونشرب ونتحدّث عمّا جرى خلال النهار، ونسمع طلقات نارية من بعيد. كنّا نسمع طلقات نارية كلّ ليلة، وكنّا نحاول دائماً أن نحزر ما نوع المسدس الذي أطلقت الرصاصة منه. «هذا مسدس عيار تسعة مم». وعادة ما تجري

مطاردة مع الشرطة، سيارات الشرطة تطارد أحداً سرق سيارة. ثم يعود الجميع إلى بيوتهم لتناول العشاء مع أسرهم. فأحمل جهاز الكمبيوتر، وأعود إلى البيت بالميني باص، وأنام، ثم أعود في اليوم التالي لنفعل ذات الشيء.

مرت سنة. ثمّ سنتان. ولم أعد أخطط للعودة إلى المدرسة، لأنه لم يكن لديّ مبلغ يكفي للعودة إليها.

الشيء الصعب في الهوود هو أنك لا تتوقف عن العمل، تعمل دائماً، وتشعر كأن شيئاً ما سيحدث، لكن لا شيء يحدث في الواقع. كنت أذهب إلى هناك كلّ يوم من الساعة السابعة صباحاً حتى السابعة مساء، وفي كلّ يوم يجري ما يلي: كيف سنجعل عشرة راندات عشرين؟ وكيف سنحوّل العشرين رانداً إلى خمسين؟ وكيف سنحوّل الخمسين إلى مائة؟ وفي آخر اليوم ننفق كلّ ما كسبناه على الطعام وربما على شراء قليل من البيرة، ثم نعود إلى بيوتنا، وفي اليوم التالي، نكرر الشيء نفسه: كيف سنجعل عشرة راندات عشرين؟ وكيف سنحوّل العشرين راندا إلى خمسين؟ وكيف نحوّل الخمسين إلى مائة؟ كان هذا العمل يستغرق اليوم كلّه. كان عليك أن تمشي، أن تتحرك، أن تفكّر. كان عليك أن تكلّم شخصاً، أن تجد شخصاً، أن تلتقي بأحد. كانت هناك أيام نعود فيها إلى الصفر، لكنني كنت أشعر دائماً بأنني أنتج شيئاً.

"كان تصفّح الإنترنت يدفعني إلى القراءة. وإذا جمعت كلّ ما قرأته خلال سنة على الإنترنت - التغريدات، والفقرات على

الفايسبوك والقوائم - فإن ما قرأته يعادل طناً من الكتب، لكنك لا تكون في واقع الأمر قد قرأت كتاباً واحداً طوال السنة. كان ذلك يؤرقني طوال الوقت. لقد بذلت جهداً كبيراً ولم أجن منه سوى فائدة قليلة. إنها عجلة لا تتوقف. لو كنت قد كرّست كلّ هذا الجهد في الدراسة لحصلت على درجة الماجستير في إدارة الأعمال. لكني بدلاً من ذلك، تخصّصت في شيء لا تمنحني أي جامعة شهادة عليه.

عندما ذهبت إلى ألكس أول مرة، جذبني إليها إحساسي بالإثارة والحماسة، لكن الأهم من كل ذلك، هو أنني قُبلت فيها أكثر من قبولي عندما كنت في المدرسة الثانوية أو في أي مكان آخر. عندما جئت إليها، رفع شخصان حاجبيهما وسألا، «من هذا الفتى الملوّن؟» لكن الهوود لا تحكم على الآخرين. إذا أردت أن تكون هناك، يمكنك أن تكون هناك. وبما أنني لم أعش في الهوود، فقد كنت، من الناحية العملية، غريباً، لكن للمرة الأولى في حياتي، لم أشعر بأنني غريب.

كانت الحياة في الهوود مريحة أيضاً، لا تبذل فيها جهداً كبيراً. تصرف فيها كلّ طاقتك العقلية، فلا تضطر لأن تسأل نفسك أيّاً من تلك الأسئلة الكبيرة. من أنا؟ من يجب أن أكون؟ هل أعمل بما يكفي؟ في الهوود يمكن أن تكون رجلاً في الأربعين من عمرك ولا تزال تعيش في بيت أمّك وتطلب من الآخرين نقوداً ولا أحد ينظر إليك باستصغار. لا تشعر في الهوود أبداً بأنك شخص فاشل، لأنه يوجد دائماً أحد حالته أسوأ من حالتك بكثير، ولا

تشعر بالحاجة إلى أن تفعل المزيد، لأن اكبر نجاح تحققه فيها لا يُعتبر نجاحاً حقيقياً أيضاً. إنه يتيح لك أن تكون موجوداً في حالة حيوية معلّقة.

في المورود يسود إحساس رائع بالمجتمع أيضاً. فالجميع يعرفون بعضهم بعضاً، بدءاً من تاجر المخدرات حتى الشرطي. ويرعى الناس بعضهم، فإذا طلبت منك أي أمّ أن تؤدي لها خدمة، عليك أن تقول نعم. «هل يمكنني أن أرسلك إلى...؟» العبارة المألوفة. وكان أمّ كلّ شخص هي أمّك، وأنت ابن كلّ أمّ.

«هل يمكنني أن أرسلك إلى...؟»

«نعم، ماذا تريدين؟»

«أريد أن تذهب وتشتري قليلاً من الحليب والخبز».

«نعم، حسناً».

ثمّ تعطيك نقوداً وتذهب وتشتري لها الحليب والخبز. ما دمت لست مشغولاً ولن يكلّفك ذلك شيئاً، فإنك لا تقول لا.

إنّ أكبر شيء في المورود هو أنك يجب أن تقاسم الآخرين. فلا تستطيع أن تصبح غنياً وحدك. لديك مال؟ فلماذا لا تساعد الآخرين؟ السيدة العجوز في الحيّ تحتاج إلى مساعدة، الجميع يقدّم لها المساعدة. عندما تشتري بيرة، فإنك تشتريها للجميع، توزعها على الآخرين. يجب أن يعرف الجميع أنّ نجاحك يفيد الحيّ كلّه بطريقة أو بأخرى، وإلاّ فإنك تصبح هدفاً.

ويحمي الحيّ نفسه بنفسه أيضاً. فإذا قُبض على أحد يسرق، فإن الحيّ كلّه يعاقبه؛ وإذا قُبض على أحد يقتحم بيتاً لسرقته، فإن الحيّ كلّه يعاقبه؛ وإذا قبض عليك وأنت تغتصب امرأة، فادعي الله بأن تصل الشرطة بسرعة قبل أن يعاقبك أهل الحيّ. أما إذا ضُربت امرأة، فلا يتدخل أحد. لأنه توجد أسئلة كثيرة عندما يتعلق الأمر بالضرب. ما سبب الشجار؟ من هو المسؤول؟ من بدأه؟ لكن الاغتصاب هو اغتصاب، والسرقة هي سرقة، لأنها تدنّس الحيّ.

"كانت الهوود مريحة على نحو غريب، لكن الراحة قد تكون خطيرة." الراحة تمنحك أرضيّة وفي الوقت نفسه تمنحك سقفاً أيضاً. في فريقنا، كان صديقنا جي كالآخرين، عاطل عن العمل، يمضي وقته بالتسكع. ثمّ حصل على عمل في محل لبيع ألبسة. عندما كان يذهب إلى العمل صباح كلّ يوم، كان رفاقه يستثيرونه ويعيّرونه لأنه يذهب إلى العمل. كنّا نراه ذاهباً إلى العمل متأنقاً في ثيابه، فيبدأ الجميع يسخرون منه. «جي، انظر إلى نفسك وأنت في هذه الثياب الأنيقة»، «جي، هل أنت ذاهب لترى الرجل الأبيض اليوم؟» «جي، لا تنس أن تجلب معك بعض الكتب من المكتبة».

في صباح أحد الأيام، بعد حوالي شهر من بدء جي في العمل في ذلك المحل، كنّا واقفين عند الجدار، عندما خرج جي مرتدياً جوربه ونعليه فقط، ولم يكن يرتدي ثيابه ليذهب إلى العمل.

«هيه، جي، ما الذي يجري؟ ما الذي حدث في العمل؟»

«أوه، لم أعد أعمل».

«لماذا؟»

«اتهموني بأنني سرقت شيئاً فطردوني من العمل».

ولن أنسى أبداً أنني قلت في نفسي بأنه لا بد أنه تعمّد أن يفعل ذلك. لقد دمّر نفسه كي يُقبل في الفريق مرة أخرى.

للهوود قوة جذب قوية. لا تتركها أبداً، ولا تدعك تتركها أيضاً. لأنك إذا قررت أن تتركها، فإنك تهين المكان الذي رباك وصنعك ولم يخذلك قط. ويبذل هذا المكان كل ما بوسعه كي يعيدك إليه.

عندما تبدأ الأمور تسير على ما يرام بالنسبة لك في الهوود، وتقرر أنه حان الوقت لمغادرتها، فإنها تجرّك إليها. ستجد وسيلة لتفعل ذلك. سيسرق أحدهم شيئاً ويضعه في سيارتك وتعثر عليه الشرطة. لا تستطيع أن تذهب. يخيّل إليك أنك تستطيع. إذا قررت ذلك وتدعو أصدقاءك في الهوود للاحتفال في ناد لطيف، فإن أحداً سيفتعل شجاراً ويخرج أحد أصدقائك مسدساً ويطلق النار على أحدهم وتبقى واقفاً مذهولاً تتساءل: «ما الذي حدث؟»

الهوود حدثت.

ذات ليلة كنت أقيم حفلة دي جي، لا في ألكس وإنما خارجها في لومباردي إيست، وهو حيّ أجمل، تعيش فيه طبقة متوسطة من السود. استُدعيت الشرطة بسبب الضوضاء. اقتحمت الشرطة

المكان وهم في كامل عتاد وثياب شرطة مكافحة الشغب وصوّبوا رشاشاتهم على الحاضرين. هكذا تتصرّف الشرطة هنا. لا يوجد عندهم صغير أو كبير. ما يطلق عليه الأمريكيون قوة «سوات» هي هنا الشرطة العادية. جاؤوا يبحثون عن مصدر الموسيقى، وكانت الموسيقى تصدر منّي. دنا مني هذا الشرطي حيث كنت مع كمبيوتري ووجّه بندقيته الهجومية الضخمة عليّ.

«أسكِت صوت هذا الآن».

فقلت: «حسناً، حسناً، سأسكته».

لكنّي كنت أشغّل برنامج ويندوز ٩٥. وويندز ٩٥ يستغرق وقتاً طويلاً حتى يغلق. بدأت أغلق النوافذ وأُغلق البرامج. كان عندي واحداً من تلك الأقراص الصلبة الضخمة التي تتعطل بسهولة، فلم أشأ أن أغلقه بسرعة كي لا يتعطّل القرص. لكن كان من الواضح أن هذا الشرطي لم يكن يأبه بكل ذلك.

«أغلقه! أغلقه!»

«إني أغلقه! يجب أن أُغلق البرامج أولاً»

بدأت الفوضى تدّب بين الجمهور، وبدأ الشرطي يزداد توتراً. أبعد بندقيته عنّي وأطلق النار على جهاز الكمبيوتر. لكن يبدو أنه لم يكن يعرف شيئاً عن أجهزة الكمبيوتر لأنه أطلق النار على الشاشة. انفجرت الشاشة لكن الموسيقى لم تتوقف. ساد هرج ومرج الآن – الموسيقى تصدح عالياً وأخذ الجميع يتراكضون

مذعورين من الطلقات النارية. سحبتُ السلك الكهربائي من الجهاز لأغلقه، ثمّ بدأت الشرطة تطلق قنابل مسيّلة للدموع على الحاضرين.

لم يكن للغاز المسيّل للدموع علاقة بي أو بالموسيقى. فقد كانت الشرطة تستخدم الغاز المسيّل للدموع لإنهاء الحفلات في أحياء السود، كما يفعل النادي عندما يشعل الأضواء في النادي ليعلن للجميع بأنه حان موعد الإغلاق.

دُمّر القرص الصلب. فعلى الرغم من أنّ الشرطي أطلق النار على الشاشة فقد احترقت بسبب الانفجار. أما جهاز الكمبيوتر فظل يعمل، لكنّه لم يعد يستطيع أن يقرأ القرص الصلب. هكذا ضاعت مكتبتي الموسيقية كلّها. وحتى لو كنت أملك نقوداً كافية لشراء قرص صلب جديد، فإن استعادة جميع الأغاني والموسيقى التي سجلتها طوال ذلك الوقت يستغرق سنوات، ولم تكن ثمة وسيلة لاستبداله. وهكذا انتهى عملي في إقامة حفلات دي جي، وانتهى عملي في بيع أقراص السي دي. وفجأة فقد فريقنا شريان دخله الرئيسي. وكلّ ما تبقى لنا من عمل هو عقد صفقات، نحاول أن نضاعف ما يوجد لدينا من نقود، نشتري شيئاً ثم نبيعه لنشتري شيئاً آخر. وبدأت مدخراتنا تتآكل، وفي أقل من شهر أفلسنا.

في مساء أحد الأيام، جاء صديقنا الأسود، السّيد بيزنز، من عمله في المطار.

قال: «هيه، انظر ماذا وجدت».

«ماذا وجدت؟»

«كاميرا».

لن أنسى أبداً تلك الكاميرا. كانت كاميرا رقمية. اشتريناها منه. أخذتها وشغلتها. كانت مليئة بصور عائلية لأسرة بيضاء في إجازة. شعرت بالضيق. لم أكن أكترث بالأشياء التي كنا نشتريها: أحذية نايكي، فراشي أسنان كهربائية، آلة حلاقة كهربائية. من يبالي؟ نعم، قد يُطرد أحدهم من العمل بسبب اختفاء علبة رقائق الذرة من السوبر ماركت، لكن تلك المشاعر تلاشت. فأنت لا تفكّر بذلك. أما الكاميرا هذه فلها وجه. استعرضتُ الصور فيها، مدركاً كم كانت تعني لي صوري العائلية، وقلت لنفسي إنني لم أسرق الكاميرا، وإنما سرقت ذكريات شخص. لقد سرقت جزءاً من حياة شخص.

كان إحساساً غريباً، لكن طوال السنتين اللتين أمضيتهما في هذا العمل لم أشعر قط بأنني ارتكبت جريمة. صدقاً لم أكن أفكر بأن هذا الأمر سيئ. إنها أشياء يجدها الناس، ويوجد لدى البيض تأمين يعوّضهم عنها. يا له من تبرير. في المجتمع، يمارس أحدنا أشياء فظيعة على الآخرين لأننا لا نرى مدى تأثير ذلك عليهم. إننا لا نرى وجوههم. لا نراهم كبشر. ولهذا السبب بُني الهوود أساساً، كي يكون ضحايا التمييز العنصري بعيدين عن الأنظار وبعيدين عن التفكير. لأنه إذا نظر البيض إلى السود باعتبارهم

بشراً، فإنهم سيرون أن العبودية غير مقبولة. إننا نعيش في عالم لا نرى فيه نتائج ما نفعله للآخرين، لأننا لا نعيش معهم. وسيكون الأمر أصعب بكثير إذا كان على مصرفي يسرق الناس من خلال قروض الرهونات العقارية أن يعيش فعلاً مع أولئك الناس الذين يسرقهم. فإذا كان باستطاعة أحدنا أن يرى الآخر ويتعاطف معه، فلن نرتكب جرائم بحق بعضنا في المقام الأول.

مع أننا كنّا بحاجة إلى نقود، لم أبع الكاميرا. فقد انتابني شعور كبير بالذنب، كما لو أن كارما سيئة قد أصابتني. كنت أعرف أن ذلك يبدو غبياً وأنه لن يعيد الكاميرا إلى تلك العائلة، لكنّي لم أستطع أن أفعل ذلك. لقد جعلتني هذه الكاميرا أواجه الحقيقة بأنه يوجد أناس في الجانب الآخر من هذا الشيء الذي أفعله، وأن ما أفعله هو خطأ.

ذات ليلة، دُعي فريقنا إلى حفلة راقصة في سويتو لمواجهة فريق آخر. كان هتلر سيتنافس مع أفضل راقص في الفريق الآخر يدعى هكتور الذي كان واحداً من أفضل الراقصين في جنوب أفريقيا في ذلك الوقت. كانت هذه الدعوة مناسبة عظيمة. كنّا سنذهب لنمثّل الهوود. كانت هناك منافسة شديدة على الدوام بين ألكس وسويتو. فقد كانت سويتو تُعتبر البلدة الراقية وألكساندرا البلدة الحقيرة القذرة. كان هكتور من ديبكلوف، الشطر الثري الراقي في سويتو حيث توجد بيوت راقية تبلغ قيمتها مليون راند شُيِّدت بعد مجيء النظام الديمقراطي. «هيه، لم نعد بلدة للسود، بدأنا نبني

أشياء جميلة الآن». هكذا كانوا يقولون. هذا هو الفريق الذي سننافسه. وظلّ هتلر يتدرب طوال الأسبوع.

أقلتنا حافلة ميني باص إلى ديبكلوف ليلة الحفلة: أنا وبونغاني ومزي وبهيكي وجي وهتلر. فاز هكتور في المسابقة. ثمّ شوهد جي وهو يقبّل إحدى الفتيات من فريقهم، فنشبت معركة وتحطّم كلّ شيء. عندما كنا عائدين إلى ألكس، في حوالى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وبينما كنّا على وشك أن ننعطف من ديبكلوف لنتجه إلى الطريق السريع، أوقفت الشرطة الحافلة التي نستقلها. أنزلوا منها جميع الركاب وفتّشوها. اصطففنا بجانب الحافلة، عندما جاء شرطي إلينا.

قال: «لقد وجدنا مسدساً. لمن هذا المسدس؟»

هززنا أكتافنا بلا مبالاة

قلنا: «لا نعرف».

«لا، يعرف أحد منكم. إنه مسدس أحدكم».

«أيها الشرطي، لا نعرف حقاً»، قال بونغاني.

فصفع الشرطي بونغاني بقوة على وجهه وقال: «أنت تسخر مني».

ثمّ سار إلى آخر الصفّ، وراح يصفع كلّ واحد منّا على وجهه، يوبّخنا من أجل المسدس. لم يكن بإمكاننا أن نفعل شيئاً إلاّ أن نقف هناك ونرى ما سيحدث.

«أنتم زبالة»، قال الشرطي، «من أين أنتم؟»

«من ألكس».

«أوووو، حسناً، الآن أرى. كلاب من ألكس. تأتون إلى هنا وتسرقون الناس وتغتصبون النساء وتخطفون سيارات. مجموعة من الحثالة».

«لا، نحن راقصين. لا نعرف...»

«لا يهمّني. ستدخلون كلّكم السجنّ حتى نعرف لمن هذا المسدس».

ثم أدركنا حقيقة ما يجري. كان هذا الشرطي يستدرجنا لنعطيه رشوة. «غرامة في المكان» العبارة التلطيفية التي يستخدمها الجميع. يجب أن ترقص مع الشرطي هذه الرقصة ويجب أن تقول الشيء من دون أن تقوله.

«ألا يمكننا أن نفعل شيئاً؟» سألت الشرطي.

«ماذا تريدني أن أفعل؟»

«نحن آسفين حقاً أيها الشرطي. ماذا يمكننا أن نفعل؟»

«أنتم قولوا لي».

ثمّ يتعين عليك أن تختلق قصّة توحي فيها للشرطي المبلغ الذي بحوزتك، لكننا لم نستطع أن نفعل ذلك لأنه لم تكن معنا نقود. فاقتادونا إلى السجن. حدث لك في حافلة عامة. قد يكون

مسدس أي شخص، لكنهم اعتقلوا الفتيان من ألكس فقط، وأطلقوا سراح الآخرين الذين كانوا في الحافلة معنا. أخذتنا الشرطة إلى مركز الشرطة وألقوا بنا في زنزانة ثم أخذونا واحداً بعد الآخر للتحقيق معنا. عندما أخذوني للتحقيق كان عليّ أن أعطيهم عنوان بيتي: هايلندز نورث. رمقني الشرطي بنظرة مرتبكة.

فقال: «أنت لست من ألكس. ماذا تفعل مع هؤلاء المحتالين؟» لم أعرف ماذا أقول. حدّق بي بقوة وقال: «اسمع أيها الفتى الغني. أتظن أن الخروج مع هؤلاء الفتيان أمر مسلٍ؟ لم تعد هذه لعبة. أخبرني الحقيقة عن أصدقائك وعن المسدس وسأتركك تذهب».

قلت له لا، فأعادني إلى الزنزانة. أمضينا الليلة فيها، وفي اليوم التالي اتصلت بأحد الأصدقاء الذي قال إنه يستطيع أن يستدين مبلغاً من أبيه ليخرجنا من مركز الشرطة. ثم جاء الأب ودفع المبلغ. كانت الشرطة تسمي ذلك «كفالة»، لكنها كانت رشوة، لأنه لم يلق القبض علينا رسمياً، ولم يكن هناك محضر رسمي.

خرجنا وعادت الأمور إلى سابق عهدها، لكنّ هذه الحادثة هزّتنا. كنّا نخرج كلّ يوم إلى الشارع، نبيع ونشتري، نحاول أن نتصرّف كما يتصرّف أفراد العصابات، لكننا كنّا في الواقع «فتيان الجبنة» أكثر من كوننا من أبناء هوود. لقد اختلقنا هذه الفكرة حول أنفسنا كآلية للدفاع عن أنفسنا حتى نعيش في العالم الذي كنّا نعيش فيه. كان لدى بونغاني والشبان الآخرين القادمين من

يست بانك أمل ضعيف بسبب المكان الذي جاؤوا منه، وبسبب شكلهم. في هذه الحالة كان أمامك خياران. إما أن تقبل أن تعمل في مطعم ماكدونالد تشوي البيرغر، هذا إذا كنت واحداً من القلة المحظوظين، وإما أن تقوي من عزيمتك، وترفع هذه اللافتة: لا استطيع أن أغادر الهوود، وعليّ أن أعيش بحسب قواعد الهوود.

لقد اخترتُ أن أعيش في ذلك العالم، لكنّي لم أكن من ذلك العالم. وإذا كنتُ أيّ شيء، فأنا محتال. كنت يوماً بعد يوم كالآخرين، لكن الفرق هو أنني كنت أعرف في قرارة نفسي أنه توجد لديّ خيارات أخرى. كان باستطاعتي أن أغادر، أما هم فلم يكن باستطاعتهم أن يغادروا.

(١٧)

العالم لا يحبّك

لم تمنحني أمّي فرصة قط. فكلّما كنت أقع في مشكلة، كانت تُظهر لي حبّاً قاسياً، تُلقي عليّ محاضرات، تعاقبني، وتضربني، في كلّ مرّة، لأيّ عمل ارتكبه. وكانت تشبه في ذلك معظم الآباء السود الذين يعاقبونك قبل أن يعاقبك النظام. «يجب أن أعاقبك قبل أن تعاقبك الشرطة». هكذا يفكّر جميع الآباء السود منذ أن تصبح قادراً على الخروج إلى الشارع حيث يكون القانون بانتظارك.

في ألكس، إذا اعتقلتك الشرطة فهذا واقع من وقائع الحياة. ومن الشائع أن ترى إشارة عند ناصية الشارع، اختزال، تصفّق برسغيك معاً كما لو كانا مقيدين بالأصفاد. كان الجميع يعرفون ماذا يعني ذلك.

«أين بونغاني؟»

تصفيق بالرسغين.

«أوه، خراء. متى؟»

«ليلة الجمعة».

«اللعنة».

كانت أمّي تكره الهوود. لم تكن تحبّ أصدقائي هناك. فإذا أحضرتهم إلى البيت، لم تكن تريد أن يدخلوا إلى البيت. كانت تقول: «لا أحبّ هؤلاء الصبية». لم تكن تكرههم شخصياً، وإنما كانت تكره ما يمثّلونه. «أنت وهؤلاء الصبية توقعون أنفسكم في مشكلات»، كانت تقول، «يجب أن تكون حذراً بمن تحيط نفسك بهم لأن المكان الذي تكون فيه يمكن أن يقرّر من أنت».

كانت تقول إن أكثر ما تكرهه في الهوود هو أنه لم يضغط عليّ لأصبح أفضل. كانت تريد أن أرافق ابن خالتي الذي كان يذهب إلى الجامعة.

كنت أقول لها: «ما الفرق إن كنت في الجامعة أم في الهوود؟ يبدو أنني لن أذهب إلى الجامعة.»

«نعم، لكن ضغط الجامعة سيصل إليك. أنا أعرفك جيداً. لن تجلس هكذا وترى هؤلاء الشبان وقد أصبحوا أفضل منك. إن كنت تعيش في بيئة إيجابية وتقدمّية، فإنك ستصبح كذلك. أقول لك دائماً إنك يجب أن تغيّر أسلوب حياتك، وأنت لا تفعل ذلك. سيُقبض عليك ذات يوم، وإذا حدث ذلك، فلا تتصل بي. سأطلب من الشرطة أن يسجنوك ليلقنوك درساً».

كان هناك فعلاً بعض الآباء السود الذين يفعلون ذلك،

يرفضون أن يدفعوا كفالة لإخراج أبنائهم من السجن، ولا يعينون محامياً للدفاع عنهم -الحبّ القاسي بكل أبعاده- لكن ذلك لا ينجح دائماً، لأنك تمنح ابنك حبّاً قاسياً بينما يحتاج منك إلى الحبّ. إنك تحاول أن تلقنه درساً، لكنه يدفع ثمن ذلك الدرس طوال حياته.

في صباح أحد الأيام، رأيت إعلاناً في صحيفة. أحد المحلات يُجري تخفيضات كبيرة على أسعار هواتف خلوية. كانوا يبيعونها بأسعار رخيصة جداً، فقلت يمكنني أن أبيعها مع بونغاني في الهوود ونحقق منها ربحاً كبيراً. كان ذلك المحل يقع في الضواحي، بعيد جداً لا يمكن الذهاب إليه سيراً على الأقدام، ولا تصل إليه حافلات الميني باص. ولحسن الحظ كان في ورشة زوج أمّي في فناء بيتنا الخلفي سيارات قديمة عدة.

كنت أسرق عادة السيارات القديمة المركونة في ورشة أبيل منذ أن كنت في الرابعة عشرة من عمري. كنت أقول له إنني أجربها لأتأكد من أنها صُلّحت جيداً. لم يكن أبيل يحبّ ذلك، ومع أنه أمسكني مرات عديدة، وكان يخضعني لغضب أمّي، لم أتوقف عن عمل ذلك.

لم تكن قيادة معظم هذه السيارات القديمة قانونية في الشارع لأنه لا توجد لها وثائق تسجيل أو لوحات أرقام صحيحة. ولحسن الحظ، كان توجد في ورشة أبيل بضع لوحات ذات أرقام قديمة. وأدركت أنني أستطيع أن أضع إحدى تلك اللوحات غير

المستعملة على سيارة قديمة وأذهب بها. كنت حينذاك في التاسعة عشرة من عمري، أو ربما في العشرين، ولم أكن أفكّر بعواقب ذلك. جئت إلى الورشة عندما لم يكن فيها أحد، واخترت سيارة الـ مازدا الحمراء التي كنت قد أخذتها إلى حفلة التخرج، وثبّت عليها لوحة قديمة، وانطلقت أبحث عن ذلك المحل لأشتري الهواتف الخلوية ذات الأسعار المخفضة.

" وصلت إلى هيلبرو. الشرطة في جنوب أفريقيا لا تذكر لك السبب عندما توقفك. الشرطة تطلب منك أن تتوقف فقط لأنهم شرطة ولديهم السلطة لإيقافك. بكل هذه البساطة. كنت أشاهد أفلاماً أمريكية يوقف فيها شرطي سيارة ويقول للسائق: «لم تشغّل الإشارة»، أو «ضوء سيارتك الخلفي لا يعمل»، وكنت أتساءل دائماً، لماذا تكلّف الشرطة الأمريكية نفسها لأن تكذب؟ كان ثمة شيء أقدّره في جنوب أفريقيا وهو أننا لم نحسّن النظام إلى حد أن نشعر بأننا يجب أن نكذب. "

«هل تعرف لماذا أوقفتك؟»

«لأنك شرطي وأنا شخص أسود؟»

«هذا صحيح. أعطني الرخصة ووثيقة التسجيل من فضلك».

عندما أوقفني الشرطي، كانت واحدة من تلك الحالات التي أردت أن أقول فيها: «هيه، أعرف أنكم توقفونني لأنكم تصنفونني عرقياً»، لكنني لم أستطع أن أثير هذا الأمر لأنني كنت أخالف القانون حقاً في تلك اللحظة. اقترب الشرطي من نافذة

السيارة، وسألني الأسئلة المعتادة التي تسألها الشرطة: إلى أين أنت ذاهب؟ هل هذه سيارتك؟ لمن هذه السيارة؟ لم أستطع أن أجيب على أسئلته. تسمّرت في مكاني.

الغريب في الأمر أنني كنت أخشى أن أقع في مشكلات مع والديّ أكثر من خشيتي من أن أقع في قبضة الشرطة. فقد كانت عندي مواجهات مع الشرطة في ألكساندرا وسويتو، لكنّها كانت دائماً حول شيء ما: حفلة يجب أن أوقفها، مداهمة حافلة ميني باص. كان القانون دائماً حولي، لكنّه لم يأت إليّ مباشرة، أنا تريفور، بالذات. عندما لا توجد لديك خبرة جيدة بالقانون، يبدو لك القانون منطقياً -"صحيح أن معظم أفراد الشرطة أوغاد، لكنّك تدرك أيضاً أنّهم يؤدون واجبهم. "

" ومن الناحية الأخرى، لا يكون والداك منطقيين على الإطلاق. فهما يقومان بدور القاضي وهيئة المحلفين والجلاد في طفولتك، ويبدو كأنهما يحكمان عليك بالسجن المؤبد على كلّ خطأ ترتكبه. في تلك اللحظة، عندما كان عليّ أن أخاف من الشرطي، كان كلّ ما كنت أفكّر به هو خراء، خراء، خراء. لأنني سأكون غارقاً في المشكلات حتى رأسي عندما أعود إلى البيت. "

دقّق الشرطي في رقم اللوحة ووجد أنها لا تتطابق مع سجّل السيارة، فقال: «هذه السيارة ليست مسجلة باسمك! من أين أتيت بهذه اللوحات؟ انزل من السيارة». عندها أدركت: يا إلهي، أنا الآن في ورطة حقيقية. ترجّلت من السيارة، ووضع الأصفاد في

رسغيّ وقال إنني معتقل بشبهة قيادة سيارة مسروقة، واحتُجزت السيارة.

يشبه مركز الشرطة في هيلبرو جميع مراكز الشرطة في جنوب أفريقيا. لأن مقاولاً واحداً بناها كلّها في ذروة نظام التميز العنصري - عقد منفصلة في النظام العصبي المركزي للدولة البوليسية - فإذا عُصبت عيناك وأُخذت من عقدة إلى أخرى، فإنك لن تعرف حتى أنك نُقلت إلى مكان آخر. إنها مؤسسة عقيمة فيها أضواء نيون، وأرضيتها مبلطة ببلاط رخيص، مثل مستشفى. قادني الشرطي وأجلسني أمام مكتب الحجز. وجُهت إليّ التهمة وأُخذت بصمات أصابعي.

في هذه الأثناء، كانوا يفحصون السيارة، وهو شيء لم يكن في صالحي أيضاً. عندما كنت أستعير سيارة من ورشة أبيل، كنت آخذ السيارات القديمة لا سيارات زبائن حقيقية، لأنني كنت أظن أنني سأتعرض إلى مشكلات أقل إذا فعلت ذلك، لكن ذلك لم يكن صحيحاً. وبما أن سيارة الـ مازدا تلك كانت سيارة قديمة في ورشة أبيل، لا توجد لها وثائق ملكية واضحة. فلو كان لها مالك، لاتصلت الشرطة به وقال لهم إنه أخذ السيارة لإصلاحها، عندها سيتضح كلّ شيء، لكن بما أنه لا يوجد مالك للسيارة، فلن أستطيع أن أثبت أنني لم أسرقها.

كانت سرقة السيارات منتشرة في جنوب أفريقيا آنذاك. منتشرة إلى درجة أنك لا تُفاجأ إذا حدثت. فقد يتصل بك أحد أصدقائك كنت قد دعوته إلى حفلة عشاء.

يقول لك: «آسف، لقد سُرقت سيارتي، سأتأخر عن المجيء».

«اللعنة. يا شباب، لقد سُرقت سيارة دايف».

«آسف يا ديف».

وتستمرّ الحفلة، لأن الشخص نجا من سرقة السيارة. ففي معظم الأحيان لا ينجو الشخص الذي تُسرق سيارته، لأن اللصوص يطلقون النار عادة على صاحب السيارة ويقتلونه. فلم أتمكن من إثبات أنني لم أسرق السيارة فقط، وإنما لم أستطع إثبات أنني لم أقتل أحداً لأسرقها أيضاً. بدأت الشرطة التحقيق معي، «هل قتلت أحداً لتسرق منه هذه السيارة أيها الفتى؟ إيه؟ إنك قاتل؟»

كنت في ورطة عميقة، ورطة حقيقية. كان عندي حبل نجاة واحد فقط: والداي. مجرد اتصال واحد بهما سيحلّ كلّ شيء. «هذا زوج أمّي. إنه ميكانيكي. استعرتُ سيارته بينما لم يكن يجب أن أفعل ذلك». انتهينا. في أسوأ الأحوال، سيوبخني لأنني أخذت سيارة لا يوجد لها تسجيل، لكن ما هو العقاب الذي يمكن أن أناله في البيت؟

جلستُ في مركز الشرطة -مُحتجزاً بتهمة الاشتباه بسرقة كبيرة، الاشتباه بسرقة سيارة أو ارتكاب جريمة قتل- تساءلت هل عليّ أن أتصل بأمّي وزوج أمّي أم أدخل السجن. كنت خيّل إليّ أن زوج أمّي سيقتلني. كنت أرى أن ذلك سيحدث في الحقيقة. وكنت أعتقد أن أمّي ستزيد الأمر سوءاً. فليست هي الشاهد على سلوكي التي

أريد الآن. إنها لن تساعدني لأنها قالت لي ذلك مراراً. «إذا قبضت الشرطة عليك فلا تتصل بي». كنت بحاجة إلى شخص يتعاطف معي في محنتي، ولا أظن أنها هي ذلك الشخص. فلم أتصل بهما. قلت إنني لست بحاجة إليهما. فأنا رجل وأستطيع أن أتدبر الأمر بنفسي. اتصلت بابن خالتي وطلبت منه ألاّ يخبر أحداً عمّا جرى حتى أفكّر بما يمكنني أن أفعله - الآن عليّ أن أفكّر ماذا سأفعل.

أُلقي القبض عليّ في المساء، وعندما انتهت الإجراءات الرسمية كان قد حلّ الظلام. سأمضي الليلة في السجن، شئت أم أبيت. في تلك اللحظة انتحى بي شرطي جانباً وأخبرني عن سبب اعتقالي.

تعمل الشرطة في جنوب أفريقيا هكذا: عندما يُلقى القبض عليك يضعونك في زنزانة في مركز الشرطة حتى يحين موعد انعقاد جلسة الكفالة. في تلك الجلسة، ينظر القاضي في قضيتك، ويستمع إلى المرافعات التي تقدمها الجهات المعترضة، فإمّا أن يرفض التهم الموجهة إليك وإما أن يحدّد مبلغ كفالة ويحدّد موعد المحاكمة، وإذا كان باستطاعتك تسديد مبلغ الكفالة، فإنك تدفعه وتذهب إلى البيت. وقد لا تسير الجلسة على ما يرام: فقد تعيّن المحكمة لك محامياً للدفاع عن قضيتك لكنه لا يقرأ حيثيات القضية ولا يعرف حقيقة ما يجري، أو أن أسرتك لا تستطيع أن تسدد مبلغ الكفالة، أو ربما تقول المحكمة: «آسفون، لدينا أعمال كثيرة، ولن تُعقد جلسات أخرى اليوم». لا يهمّ ما هو السبب. وإذا دفعت الكفالة فلن تعود إلى الحجز ثانية، أما إذا لم تُحل

قضيتك في ذلك اليوم، فإنك ستعود إلى السجن وتنتظر موعد المحاكمة، وسيضعونك في زنزانة مع أشخاص ينتظرون المحاكمة مثلك، لكنهم ليسوا أشخاصاً عاديين، لأن الانتظار في زنزانة حتى يحين موعد المحاكمة يكون خطير لأنك تجد فيه مساجين تتراوح الجرائم التي ارتكبوها من مخالفات مرورية حتى جرائم قتل. وينتهي بك الأمر بأن تكون عالقاً بينهم، وقد تبقى هناك أياماً، أو أسابيع، أو حتى شهوراً. كما هو الحال في أمريكا. فإذا كنت فقيراً ولا تعرف كيف يعمل النظام، فقد تنزلق في تلك المتاهات، وستجد نفسك عالقاً في هذا المَطْهَر الغريب حيث تكون محبوساً لكنّك لست مسجوناً بشكل رسمي. فعلى الرغم من أنه لم توجه إليك تهمة بارتكاب أيّ جريمة، فإنك تظل مسجوناً ولا يمكنك الخروج من السجن. "

انتحى بي الشرطي جانباً وقال لي: «اسمع، أظن أنك لا تريد أن تذهب إلى جلسة الكفالة تلك. إنهم سيعيّنون لك محامياً حكومياً لا يعرف حقيقة ما جرى، ولن يكون عنده وقت لدراسة قضيتك والدفاع عنك، فيطلب من القاضي تأجيل موعد النظر في القضية، عندها قد يطلقون سراحك وقد لا يطلقون سراحك. ثق بي، إنك لا تريد أن تفعل ذلك. لديك الحقّ في أن تبقى هنا كما تشاء. يجب أن تجد محامياً وتدبّر نفسك قبل أن يقترب موعد المحاكمة أو قبل أن تمثل أمام قاض». لم يقدم لي هذا الشرطي هذه النصيحة عن طيب خاطر، لأنه يكون على اتفاق مع المحامي فيرسل له زبائن لقاء عمولة معينة. بعد أن أعطاني بطاقة المحامي،

اتصلت به ووافق على استلام قضيتي، وطلب مني ألا أفعل شيئاً حتى يسوّي كلّ شيء.

أصبحت بحاجة الآن إلى مبلغ لأن المحامين، بقدر ما هم دمثون، فإنهم لا يفعلون شيئاً دون مقابل. اتصلت بأحد أصدقائي وسألته إن كان يستطيع أن يستدين المبلغ من أبيه، فقال إنه سيفعل. وبالفعل كلّم والده وحصل المحامي على أتعابه في اليوم التالي.

عندما قبل المحامي القضية، أحسست بأن الأمور تسير على ما يرام. شعرت بالراحة. لقد تدبّرت الأمر، والشيء الهام في كلّ ذلك أن أمّي وأبيل لم يعرفا شيئاً عن كلّ ذلك.

عندما حان وقت إطفاء الأنوار، جاء شرطي وأخذ جميع أغراضي: حزامي، ومحفظتي، ورباط حذائي.

«لماذا أخذت رباط حذائي؟»

«كي لا تشنق نفسك».

«حسناً».

حتى اللحظة التي قال فيها ذلك، لم أكن قد استوعبت خطورة الوضع الذي أنا فيه. عندما أخذوني إلى الزنزانة في مركز الشرطة، ونظرت حولي ورأيت الرجال الستّة الآخرين فيها، قلت لنفسي إن الأمر ليس على هذه الدرجة من الخطورة، وإن كلّ شيء سيكون على ما يرام. سأخرج من هذه الورطة قريباً. كنت أردد ذلك لنفسي إلى أن أُغلق باب الزنزانة ورائي، ثم صاح الحارس

«أطفئوا الأنوار». هنا قلت لنفسي، يا إلهي، إن هذا الأمر حقيقي.

أعطاني الحرّاس حصيرة وبطانية خشنة. مددتها على أرضية الزنزانة الاسمنتية وحاولت أن أستريح قليلاً. بدأت تراودني جميع مشاهد الأفلام السيئة التي كنت قد شاهدتها عن السجون في الماضي. قلت لنفسي إني سأُغتصب. سأُغتصب. سأُغتصب، لكن بالطبع لم سأغتصب لأن هذا لم يكن السجن، وإنما حبس يُحتجز فيه الناس ريثما يحين موعد المحاكمة، وشتان ما بين الاثنين. سرعان ما بدأت أفهم.

استيقظت صباح اليوم التالي بذلك الإحساس العابر الذي يخيّل فيه إليك أن كل ما حدث كان مجرد حلم. ثمّ نظرت حولي وتذكّرت أنه ليس حلماً. جاء طعام الفطور وجلست أنتظر.

يوم في مركز الاحتجاز يغلب عليه الصمت يتخلله مجيء الحرّاس ويشتمونك عندما يجرون التفقد. في زنزانة الاحتجاز لا يقول أحد شيئاً. لا يدخل أحد إلى زنزانة الاحتجاز ويقول: «مرحباً يا شباب، أنا براين»، الكّل هنا خائفون، ولا يريد أحد أن يبدو أنه ضعيف. لا يريد أحد أن يكون الوغد. لا يريد أحد أن يُقتل. لم أشأ أن يعرف أحد أنني مجرد فتى محبوس بتهمة مرورية، فاستعدتُ في ذاكرتي كلّ تلك الأفكار النمطية التي يتصرّف بها الأشخاص في السجن، وحاولت أن أقلدّها.

في جنوب أفريقيا، يعرف الجميع أنّ أفراد العصابات الملوّنين هم الأكثر وحشية وقسوة. إنها فكرة نمطية تُحقن بها طوال

حياتك. وأشهر عصابات الملوّنين السيئة السمعة هي العصابات ذات الأرقام: ٢٦، ٢٧، ٢٨. إنها تسيطر على السجون، وتُعرف بقسوتها وعنفها -تشويه، تعذيب، اغتصاب، قطع رؤوس البشر- وهم لا يفعلون ذلك من أجل المال وإنما لإثبات أنهم عديمو الرحمة ومتوحشون، مثل عصابات المخدّرات المكسيكية. وفي واقع الأمر، فإن الكثير من هذه العصابات تعمل مع العصابات المكسيكية تلك، لذلك فهي متشابهة: ينتعلون أحذية كونفيرس أوول ستارز الرياضية ويرتدون بناطيل ديكيز وقمصاناً مفتوحة الأزرار من الأعلى.

عندما كنت مراهقاً، لم تكن الشرطة أو رجال الأمن يصنفونني بأنني أسود وإنما بأنني ملوّن. في أحد الأيام ذهبت مع ابن خالتي وصديقه إلى ناد ليلي. فتّش الحارس عند الباب ملانغيسي ثم لوّح له بأن يدخل، ثم فتّش صديقنا ولوّح له بأن يدخل، وعندما جاء دوري فتّشني ثمّ قرّب وجهه من وجهي.

وسألني، «أين السكين التي بحوزتك؟»

«لا توجد معي سكين».

«أعرف أنك تضع السكين في مكان ما. قل لي أين هي؟»

فتّشني وفتّشني ثم استسلم أخيراً وتركني أدخل وراح يرمقني كأنني سأثير مشكلة.

«لا أريد أن تفعل أي خراء هنا. هل تسمع؟»

خُيل إليّ أن باقي المحتجزين سيظنون أنني من ذلك النوع من الملوّنين الذين ينتهي بهم المآل إلى السجن، مجرم عتيد. فلعبتُ هذا الدور. تلبستت هذه الشخصية. أديت دور هذه الشخصية النمطية، فكلّما سألني رجال الشرطة شيئاً كنت أجيبهم باللغة الأفريكانية المكسّرة بلهجة الملوّنين الثقيلة. تخيّل رجلاً أبيض في أمريكا، لكن بشرته سمراء ويظن الناس أنه من أمريكا اللاتينية، يتمشّى في السجن يقلّد حوار أحد أفراد العصابات المكسيكيين كان قد تعلّمها من الأفلام. «الخراء يريد قطعة حشيش». هذا ما فعلته هنا -لكن بنسخة جنوب أفريقيا من هذا الحوار. كانت هذه خطتي الذكية لأنجو بنفسي. لقد نجحت. كان الرجال المحتجزين في الزنزانة معي محتجزين بسبب قيادة سيارة وهم سكارى، أو بسبب عنف منزلي، أو نشل، ولا يعرفون كيف يبدو أفراد العصابات الملوّنين الحقيقيين. فتركني الجميع المحتجزين الآخرين وشأني.

كنّا كلّنا نلعب مثل هذه اللعبة، لكن لم يكن أحد منّا يعرف أننا نلعبها.

عندما دخلت إلى الزنزانة في الليلة الأولى تلك، رمقني الجميع بهذه النظرة التي تقول: «أنا رجل خطير. لا أحد منكم يعبث معي». ثم قلت لنفسي، «خراء، هؤلاء جيعاً مجرمون عتاة، ويجب ألاّ أكون هنا لأنني لست مجرماً». لكن كلّ شيء انقلب بسرعة في اليوم التالي. فقد ذهب هؤلاء الرجال، الواحد تلو الآخر، لحضور جلساتهم، وبقيت أنتظر مجيء المحامي الذي سيدافع عني، وبدأ أشخاص جدد يأتون. أصبحت الآن خبيراً، أقوم بدور أحد أفراد

العصابات الملوّنين، أرمق القادمين الجدد بنفس النظرة: «أنا رجل خطير، لا أحد يعبث معي». وكانوا ينظرون إليّ ويذهبون ويقولون لأنفسهم: «خراء، إنه من عتاة المجرمين. يجب ألاّ أكون هنا، لأنني لست مثله». وهكذا سارت الأمور.

ثم أدركت أن جميع من في هذه الزنزانة يمثّلون. فقد كنّا جميعاً أشخاصاً محترمين من أحياء راقية وعائلات جيدة، ووجدنا أنفسنا هنا بسبب مخالفة مرورية أو مخالفات أخرى. كان من الممكن أن نمضي وقتاً ممتعاً نتناول الطعام أو نلعب الورق معاً ونتحدّث عن النساء وعن كرة القدم. لكن ذلك لم يحدث، لأن كلّ واحد منّا كان يتظاهر بأنه شخص خطير ولم يتكلّم أحد لأن الجميع كانوا يخافون مما يتظاهر به الشخص الآخر. سيخرج هؤلاء الرجال وسيعودون إلى بيوتهم وإلى عائلاتهم ويقولون لهم: «أوه، حبيبتي، كان ذلك قاسياً. كان هناك مجرمون حقيقيون. وكان هناك ذلك الشاب الملوّن. يا إلهي، إنه قاتل».

عندما فهمتُ اللعبة، شعرت بالراحة مرة أخرى. استرخيت. عدت أقول لنفسي إنني وصلت إلى هنا، والأمر ليس سيئاً إلى هذه الدرجة. فقد كان الطعام جيداً، فقد كانوا يجلبون سندويشات زبدة الفستق مدهونة على شرائح خبز سميكة على الفطور، ودجاجة وقليلاً من الرزّ على الغداء. وكان الشاي حاراً جداً، وكان ماء أكثر منه شاياً، لكنّه كان صالحاً للشرب. وكان هناك سجناء سيُطلق سراحهم قريباً، يأتون وينظفون الزنزانات ويوزعون الكتب والمجلات للقراءة. كان الأمر مريحاً تماماً.

أذكر أنني قلت لنفسي في إحدى اللحظات وأنا أتناول وجبة طعام إن البقاء هنا ليس سيئاً للغاية. إذ أجد نفسي مع مجموعة من الأشخاص. لا يوجد شيء تفعله. لا فواتير يجب تسديدها. لا أحد يزعجني دائماً ويخبرني ماذا يجب أن أفعل. سندويتشات بزبدة الفستق؟ يا إلهي، أصبحت أتناول سندويتشات زبدة الفستق باستمرار. إنها شديدة الحلاوة. يمكنني أن أفعل ذلك. كنت أخشى أن أضرب على مؤخرتي عندما أعود إلى البيت ففضلت الذهاب إلى الحبس. لوهلة، خيّل إليّ أنه توجد لديّ خطة. «سأغيب سنتين، ثم أعود وأقول لهم إنّني اختُطفت، ولن تعرف أمّي أبداً ما حدث لي وستكون سعيدة لرؤيتي ثانية».

في اليوم الثالث، جلبت الشرطة أضخم رجل رأيته في حياتي. كان هذا الرجل عملاقاً. له عضلات ضخمة، وبشرة داكنة. ووجه قاس. بدا كما لو أن باستطاعته أن يقتلنا كلّنا: أنا والسجناء الآخرين الذين كانوا يتظاهرون بأنهم قساة - ما إن وضع قدميه في الزنزانة حتى توقفنا عن التظاهر بأننا قساة. ارتعب الجميع. حدّقنا به كلّنا. «يا إلهي...»

لأي سبب كان، فقد كان هذا الرجل شبه عار عندما قبضت عليه الشرطة فجلبوا له ثياباً من مركز الشرطة. كان القميص الداخلي الذي يرتديه بلا أكمام ممزّقاً، ضيّقاً جداً عليه، والبنطلون قصير جداً فبدا كأنه بنطال كابري الذي يصل إلى منتصف الساق كالذي ترتديه النساء. كان يبدو النسخة السوداء من شخصية

«Hulk» العمـلاق العجيـب الـذي يتحـول لونـه إلى أخـضر عندما يغضـب.

دخـل هـذا الرجـل وجلـس في الزاويـة وحـده. لم ينبس أحد بكلمـة واحـدة. كان الجميع ينظـرون وينتظـرون بتوتـر شديد، ليروا مـا الـذي سيفعله. ثـمّ عـاد شرطـي واستدعى العمـلاق للتحقيق معه. بـدأ الشرطـي يسـأله، لكـن الرجـل ظـلّ يهزّ رأسه ويقول إنّه لا يفهـم مـا يقولـه. كان الشرطـي يحدّثـه بلغـة الزولـو، والعمـلاق يتحـدّث بلغـة التسـونغا. شـخص أسـود قبالـة شـخص أسـود، ولا يسـتطيع أحدهـما أن يفهـم الآخـر - بـرج بابـل. قلـة مـن النـاس في جنـوب أفريقيـا يتكلّمـون التسـونغا، لكـن بـما أن زوج أمّـي مـن التسـونغا فقـد تعلّمتهـا منـه. سـمعت الشرطـي والرجـل الآخـر يتحدّثـان دون جـدوى، فتقدّمـتُ وترجمـت لهـما وسـوّيت الأمـر بينهما.

قـال نيلسـون مانديـلا ذات يـوم: «إذا كلّمـت شـخصاً بلغـة يفهمهـا، فـإن كلامـك يذهـب إلى رأسـه. أمـا إذا كلّمتـه بلغتـه، فإن كلامـك يذهـب إلى قلبـه». كان محقّـاً تمامـاً. فعندمـا تبـذل جهـداً لتتكلـم بلغـة شـخص آخـر، حتـى لـو كانـت مجـرد عبـارات أساسية هنـا وهنـاك، فإنـك تقـول لـه: «أفهـم إنـك تملـك ثقافـة وهويـة لا أعرفهـا، لكنـي أراك كإنسـان».

هـذا تمامـا مـا حـدث للعمـلاق. فـما إن كلّمتـه بلغتـه حتى أضاء هـذا الوجـه الـذي كان يبـدو مهـدّداً وامتـلأ بمشـاعر الامتنـان.

« Ah, na khensa, na khensa, na khensa. Hi wena mani? Mufana wa mukhaladi u xitiela kwini xiTsonga? U huma kwini?»

- أوه، شكراً، شكراً، شكراً. من أنت؟ كيف يمكن لشاب ملوّن أن يعرف لغة التسونغا؟ من أين أنت؟»

عندما بدأنا نتحدّث أدركت أنه ليس ذلك العملاق «Hulk»، وإنما رجل طيب، عملاق لطيف، أكبر دبدوب في العالم. كان رجلاً بسيطاً، غير متعلّم. ظننت أنه قاتل، أهلك أسرة بكاملها بيديه العاريتين، لكنّه لم يكن كذلك. فقد قُبض عليه لأنه سرق ألعاب بلاي ستايشن. كان عاطلاً عن العمل ويحتاج إلى نقود ليرسلها إلى أسرته، وعندما رأى تلك الألعاب ظنّ أنه يستطيع أن يسرق بعضها ويبيعها للفتيان البيض ويكسب الكثير من النقود. عندما أخبرني ذلك، عرفت أنّه ليس مجرماً قاتلاً. كنت أعرف عالم الأشياء المقرصنة، فلم تكن ألعاب الفيديو المسروقة ذات أي قيمة لأنها رخيصة ونسخها يجعلها أقل قيمة.

حاولت أن أساعده. حدّثته عن حيلتي بتأجيل جلسة الكفالة لكي نحصل على محامي الدفاع معاً، فبقي في الزنزانة أيضاً، يتحيّن فرصته، وانسجم أحدنا مع الآخر وتصادقنا لبضعة أيام. أمضينا وقتاً جميلاً، وتعرّف أحدنا على الآخر. لم يكن أحد في الزنزانة يعرف كيف يتعامل معنا، الشاب الملوّن العديم الرحمة وصديقه الذي يشبه العملاق «Hulk» المهدّد. حكى لي قصّته، قصّة نموذجية لشخص من جنوب أفريقيا: فقد نشأ الرجل في ظل نظام التمييز العنصري، وكان يعمل كعبد بالسخرة في إحدى المزارع. كانت حياة أشبه بالجحيم لكنّها كانت على الأقل حياة. مع أنه كان يتقاضى أجراً زهيداً لكنه كان يقبض شيئاً على الأقل. كان يُطلب

منه إلى أين يذهب وماذا يجب أن يفعل منذ اللحظة التي يستيقظ فيها صباح كلّ يوم. وعندما انتهى نظام التمييز العنصري لم يعد لديه حتى هذا. فذهب إلى جوهانسبرغ ليبحث عن عمل، ليطعم أطفاله في البلدة. لكنّه ضاع هناك، فلم ينل أي قدر من التعليم، ولم يكن يمتلك أي مهارات. لم يكن يعرف ماذا يفعل، لم يكن يعرف إلى أين يذهب. وتعلّم العالم أن يخاف منه، لكن الحقيقة هي أنّه كان يخاف من العالم لأنه لم تكن لديه الأدوات الضرورية التي تمكّنه من التعامل معه. ماذا يفعل؟ فأصبح لصّاً تافهاً. يدخل ويخرج من السجن. كان محظوظاً عندما وجد عملاً في ورشة بناء، لكنه سُرّح بعد فترة، ثم ذهب إلى أحد المحلات ورأى ألعاب بلاي ستايشن فسرقها، لكنّه لم يكن يعرف أن الأشياء التي سرقها لا قيمة لها.

حزنت عليه. كلما أمضيت وقتاً أطول في الحجز، أدركت أنّ القانون غير عقلاني على الإطلاق. إنه ورقة يانصيب. ما لون بشرتك؟ ماذا تملك من مال؟ من هو محاميك؟ من هو القاضي؟ إن جريمة سرقة ألعاب بلاي ستايشن أخفّ من جريمة قيادة سيارة تحمل لوحة مزورة. لقد ارتكب جريمة، لكنّه لم يكن مجرماً أكثر مني، لكن الفرق هو أنّه لم يكن عنده صديق أو أسرة تساعده. لم يكن بإمكانه إلاّ أن يحصل على المحامي الذي تعيّنه له المحكمة. سيذهب ويقف في قفص الاتهام، لا يستطيع أن يقول أو يفهم شيئاً بالإنكليزية، وسيتوقّع جميع من في قاعة المحكمة أن مصيره سيذهب إلى الأسوأ. سيدخل السجن لفترة من الزمن ثم

يُطلق سراحه وهو لا يملك شيئاً كما دخل. إذا كان عليّ أن أخمّن فهو في الخامسة والثلاثين أو الأربعين من العمر تقريباً، وهذا يعني أن أمامه خمسة وثلاثين أو أربعين سنة أخرى سيعيشها هكذا.

حان موعد جلستي في المحكمة. ودعت صديقي الجديد وتمنّيت له أفضل الأمنيات. قيّدوني بالأصفاد ووضعوني في مؤخرة سيارة شرطة وأخذوني إلى المحكمة لأواجه مصيري. في محاكم جنوب أفريقيا، تكون زنزانة الاحتجاز المكان الذي تنتظر فيه حتى يحين موعد جلستك. وهي قاعة واسعة تقع أسفل قاعة المحكمة للتقليل من إمكانية ظهور السجناء وهروبهم، تصعد منها بضع درجات إلى قفص الاتهام بدلاً من أن تسير عبر دهاليز وممرات. وفي قاعة الاحتجاز هذه تختلط بالأشخاص المحتجزين الذين ينتظرون المحاكمة منذ أسابيع وشهور. مزيج غريب يضم جميع الأطياف: من موظفين حكوميين إلى أشخاص تم إيقافهم عند إشارات المرور إلى مجرمين عتاة رسموا على أجسامهم أوشام السجن. مشهد يشبه مشهد الحانة في فيلم حرب النجوم، عندما تعزف الفرقة الموسيقية ويقف هان سولو القادم من الفضاء في الزاوية، ويقف الأشرار من جميع أنحاء الكون في الزاوية الأخرى - خلية نحل تعسة من حثالة المجتمع والأشرار، بفارق أنه لا توجد هنا موسيقى ولا يوجد هان سولو.

مع أنني أمضيت مع هؤلاء الأشخاص فترة قصيرة من الزمن، فقد أدركت في تلك اللحظة الفرق بين السجن وزنزانة الاحتجاز. رأيت الفرق بين المجرمين الحقيقيين والذين لم يرتكبوا

أي جريمة. رأيت القسوة في وجوه الناس. قلت لنفسي كم كنت ساذجاً منذ ساعات عندما قلت إن السجن ليس سيئاً جداً وأنني أستطيع أن أتدبر الأمر. تملكني الآن خوف شديد مما يمكن أن يحدث لي.

عندما دخلت إلى قاعة الاحتجاز، كنت شاباً ناعم البشرة، طري الوجه. في ذلك الوقت، كان شعري كثيفاً طويلاً، وكانت الطريقة الوحيدة للتحكم به هي أن أربطه إلى الخلف مثل ذيل حصان، كما تفعل الفتيات. كنت أشبه ماكسويل. أغلق الحرّاس الباب خلفي، وصاح ذلك الرجل المسن المخيف بلغة الزولو من الخلف:

«Ha, ha, ha! Hhe madoda! Angikaze ngibone indoda enhle kangaka! Si- zoba nobusuku obuhle»

- «يو، يو، يو، اللعنة، يا شباب، لم أر في حياتي رجلاً بهذا الجمال. ستكون الليلة ليلة سعيدة». اللعنـــــــة.

عندما دخلت إلى القاعة كان يقف بجانبي شابٌ منهار تماماً، يكلّم نفسه، عيناه جاحظتان إلى الخارج. نظر إلى الأعلى وشبك عينيه بعينيَّ، وأظن أنه قال لنفسه إنني أبدو روحاً قريبة منه يستطيع أن يكلّمها. توجه نحوي مباشرة وبدأ يبكي ويحكي لي كيف أنه أُعتقل وأُلقي به في السجن وكيف أن رجال العصابات سرقوا ملابسه وحذاءه وكانوا يغتصبونه ويضربونه كلّ يوم. لم يكن شريراً. كان يتحدّث بطريقة جيدة، شاب متعلّم، ينتظر منذ

سنة جلسة الاستماع لقضيته. كان يريد أن ينتحر. هذا الشاب وضع خوف الله كله في داخلي.

نظرت حولي في القاعة. كان هناك ما لا يقل عن مئة شخص يتجمعون حول مجموعاتهم العرقية: مجموعة كاملة من السود في زاوية، ومجموعة من الملوّنين في زاوية أخرى، وكان ينزوي شخصان هنديان مع بعضهما، ومجموعة من الرجال البيض يقفون جانباً. ما إن دخلنا إلى القاعة حتى اتجه جميع من رافقوني في سيارة الشرطة، غريزياً، آلياً، إلى المجموعات التي ينتمون إليها وانضموا إليها. تجمّدت في مكاني.

لم أعرف إلى أين سأذهب.

نظرت إلى الزاوية التي يتجمع فيها الملوّنون. رأيت أشد العصابات عنفاً وشهرة في جنوب أفريقيا. كنت أشبههم، لكنّي لم أكن واحداً منهم. لم أستطع أن أذهب إليهم وأتظاهر بأنني أحد أفراد العصابات ثم يكتشفون أنني أدّعي ذلك. لا، لا، لا. انتهت تلك اللعبة يا صديقي. آخر شيء أريده هو أن يصبح أفراد العصابات الملوّنين ضدّي.

لكن ماذا لو ذهبت إلى زاوية السود؟ أعرف أنني أسود ويعتبرني الآخرون أسود، لكنني لست أسود في الظاهر، فهل سيفهم السود لماذا جئت لأقف معهم؟ وماذا سأقول لهم؟ وإذا ذهبت إلى زاوية السود وأنا ملوّن قد يثر ذلك حفيظة رجال العصابات الملوّنين أكثر مما لو ذهبت إلى الزاوية التي يقف فيها

الملوّنــون باعتبــاري شــخصاً ملوّنــاً زائفــاً. لأن هــذا مــا كان يحـدث لي دائــماً. فعندمــا يــراني الملوّنــون أصــادق الســود، كانــوا يتصـدون لي ويريـدون محاربتـي. رأيــت أننــي بــدأت حــرب سـباق في قاعـة الاحتجــاز.

«هيه! لماذا ترافق السود؟»

«لأنني أسود».

«لا، أنت لست أسود. أنت ملوّن».

«آه، نعـم. أعـرف أننـي أبـدو كذلـك يـا صديقـي، لكـن دعنـي أفسّر لـك. في الحقيقـة إنهـا قصّـة مضحكـة. أبي أبيـض وأمّـي سـوداء والجنـس تركيبـة اجتماعيـة، لذلـك...»

لم يكن ذلك مفيداً. ليس هنا.

دار كلّ ذلـك في رأسي لوهلـة، بسرعـة كبيـرة. بـدأت أجـري حسـابات جنونيـة، أنظـر إلى النـاس، أمسـح الغرفـة بعينـيّ، أقيّـم المتغيّرات. إذا ذهبـت إلى هنـا، سيحدث هـذا. وإذا ذهبـت إلى هنـاك، سـيحدث ذلـك. مـرّت حيـاتي كلهـا في ومضـة أمامـي - الملعـب في المدرسـة، دكاكين سبازا في سـويتو، الشـوارع في إدن بارك -في كلّ مرّة وفي كلّ مـكان كان عليّ أن أصبـح كالحربـاء، أتنقّـل بيـن المجموعـات، أفـسّر مـن أنـا. كان يشـبه الكافتيريـا في المدرسـة الثانويـة، أمـا هنـا فـكان أشبه بالجحيم لأنـني إذا اخـترت المجموعـة الخطأ فقد أضرب أو أطعـن أو أغتصـب. لم يتملكّنـي ذعـر في حيـاتي كـما تملكنـي الآن.

لكنْ كان عليّ أن أختار. لأن التمييز العنصري موجود، وعليك أن تأخذ جانباً. يمكنك أن تقول إنّك لا تتخذ طرفاً، لكن في النهاية ستجبرك الحياة على أن تأخذ جانباً.

في ذلك اليوم اخترتُ البيض، لأنه بدا لي أنهم لن يؤذونني. كانوا حفنة من الرجال البيض العاديين، المتوسطي العمر. ذهبت إليهم. وقفنا معاً لفترة من الوقت، دردشنا قليلاً. كان معظمهم قد ارتكب جرائم تتعلق بالعمل، سرقة اختلاس أو احتيال وابتزاز. لكنهم لن يفيدوني إذا جاء أحد وافتعل مشكلة لأنهم سيُضربون أيضاً. لكنّهم لن يفعلوا شيئاً لي. كنت في مأمن.

لحسن الحظ، مضى الوقت بسرعة كبيرة. بعد حوالي ساعة استُدعيت إلى المحكمة. إما أن القاضي سيطلق سراحي وإما يرسلني إلى السجن لأنتظر موعد المحاكمة. عندما كنت أستعدّ للذهاب، اقترب مني رجل أبيض وقال لي: «تأكّد بألاّ تعود إلى هنا»، وأضاف، «ابك أمام القاضي، افعل أي شيء، لأنك إذا عدت إلى هنا، فلن تكون حياتك نفسها».

في قاعة المحكمة، كان المحامي في انتظاري. وكان ابن خالتي ملانغيسي موجوداً أيضاً، ينتظر في البهو ليسدد مبلغ كفالتي إذا سارت الأمور على ما يرام.

صاح حاجب المحكمة رقم قضيتي، ونظر القاضي إليّ وقال: «كيف حالك؟»

انهرت. كنت قد وضعت واجهة الرجل القاسي على وجهي لمدة أسبوع تقريباً، لكنني لم أعد أستطيع مواصلة ذلك.

«أنا لست بخير، يا سعادة القاضي. أنا لست بخير».

بدا مرتبكاً وقال: «ماذا؟»

فقلت: «أنا لست بخير، يا سيدي. إني أعاني كثيراً».

«لماذا تقول لي ذلك؟»

«لأنك سألتني كيف حالي».

«من سألك؟»

«أنت سألتني. لقد سألتني للتو».

«لم أقل، ‹كيف حالك؟› قلت، ‹من أنت؟› لماذا أضيّع الوقت في سؤالك ‹كيف حالك؟›! هذا سجن. أعرف أن الجميع يعانون هناك. وإذا سألتُ كلّ شخص ‹كيف حالك؟› فإننا سنمضي اليوم كلّه هنا. قلت، ‹من أنت؟› اذكر اسمك من أجل السجل».

«تريفور نوا».

«حسناً. الآن نستطيع أن نواصل».

بدأ جميع من في قاعة المحكمة يضحكون، فبدأت أضحك أنا أيضاً. لكنني ازددت خوفاً الآن لأنني لم أشأ أن يظن القاضي بأنني أستهين به لأنني كنت أضحك.

تبيّن أنه لم يكن عليّ أن أقلق. فقد استغرق كلّ شيء بضع دقائق فقط. لأن محاميّ كان قد كلّم المدّعي العام ورتّبا كلّ شيء. عرض قضيتي. لم تكن عندي سوابق. لست خطراً. لم يعترض أحد. فحدّد القاضي موعد محاكمتي وحدّد مبلغ الكفالة، وأطلق سراحي.

عندما خرجت من قاعة المحكمة سطع ضوء النهار في وجهي فقلت: «يا إلهي، لن أعود إلى هنا مرة أخرى في حياتي». لقد أمضيت أسبوعاً واحداً فقط في زنزانة لم تكن سيئة جداً ولم يكن الطعام سيئاً جداً، لكن أسبوعاً في الحبس فترة طويلة، وقت طويل. أسبوع دون رباط حذاء طويل، وقت طويل. أسبوع دون ساعات، دون شمس، قد يبدو دهراً. الفكرة بأن يحدث الأسوأ، بأن أمضي وقتاً حقيقياً في سجن حقيقي، لا يمكنني حتى أن أتخيّل ذلك.

أخذني ملانغيسي بالسيارة إلى بيته، تحممت، ونمت هناك. في اليوم التالي أوصلني إلى بيت أمّي. تمشّيت في الممر متظاهراً بأنني أتصرّف كأنه لم يكن هناك شيء. كنت قد خططت أن أقول لها إنني أمضيت عدة أيام مع ملانغيسي. دخلت إلى البيت كما لو أن شيئاً لم يحدث. «هاي، ماما! ما هي الأخبار؟» لم تقل أمّي شيئاً، ولم تسألني أيّ سؤال. قلت لنفسي، «حسناً، كل شيء يسير على ما يرام».

مكثت في البيت معظم النهار. بعد الظهر جلسنا إلى طاولة

المطبخ وبدأنا نتحدّث. رحت أحكي لها كلّ تلك القصص، عن كلّ ما فعلناه أنا وملانغيسي حتى ذلك الأسبوع، ورأيت أمّي ترمقني بتلك النظرة، تهزّ رأسها ببطء. كانت نظرة مختلفة عن نظراتها السابقة. لم تكن نظرة «ذات يوم سأعرف»، ولم تكن نظرة غضب أو رفض. كانت نظرة تشي بالانزعاج. شعرت بأنها مجروحة.

قلت «ماذا؟ ماذا في الأمر؟»

فقالت: «يا ولد، من تظنّ من الذي دفع مبلغ كفالتك؟ ممم؟ من تظن من الذي سدّد أتعاب محاميك؟ هل تظن أنني غبية؟ هل ظننت أن أحداً لن يخبرني؟»

انسكبت الحقيقة أمامي. بالطبع، كانت ستعرف، فقد كانت السيارة مختفية طوال الوقت. كنت مشغولاً بالتفكير وأنا في السجن كيف يمكنني أن أغطّي على آثار جريمتي ونسيت أن الدليل القاطع على جريمتي موجود في باحة البيت، سيارة المازدا الحمراء التي فُقدت من الورشة. عندما اتصلت بصديقي وطلب من أبيه مبلغ أتعاب المحامي، ضغط عليه أبوه ليعرف لمن سيعطي النقود، وبما أنه أب هو نفسه، اتصل بأمّي على الفور التي أعطت صديقي النقود ليدفعها إلى المحامي، وأعطت ابن خالتي النقود ليدفع كفالتي. أمضيت أسبوعاً كاملاً في الحجز وأنا أعتقد أنني كنت ذكياً، لكنّها كانت تعرف كلّ شيء طوال ذلك الوقت.

قالت: «أعرف أنك تعتبرني امرأة عجوز مجنونة تزعجك دائماً،

لكنك تنسى أن السبب الذي يجعلني ألاحقك باستمرار هو لأنني أحبك. كلّ ما فعلته من أجلك ينبع من الحبّ. إذا لم أعاقبك، فإن العالم سيعاقبك أسوأ من عقابي. العالم لا يحبّك. إذا قبضت عليك الشرطة، فإن الشرطة لا تحبّك. عندما أضربك، أحاول أن أنقذك. عندما يضربونك، فإنهم يحاولون أن يقتلوك».

عندما كنت طفلاً، كانت ألذّ أنواع الحلوى بالنسبة لي، ولا تزال حتى الآن، هي الكاسترد والجيلاتين التي يسميها الأمريكيون «جيلو». كانت أمّي ستقيم احتفالاً عائلياً كبيراً فصنعت بعد ظهر أحد أيام السبت طبقاً ضخماً من الكاسترد والجيلاتين ووضعته في الثلاجة. كانت فيه جميع النكهات والألوان: الأحمر، والأخضر، والأصفر. لم أتمكن من مقاومته. فكلّما كنت أمرّ بجانب الثلاجة خلال ذلك اليوم، كنت أفتح الثلاجة وأغرف منه ملعقة وأتناولها. كان وعاء ضخماً، أعدّته ليكفي طوال الأسبوع للأسرة كلّها. لكنني التهمته وحدي في يوم واحد.

عندما أويت إلى الفراش في تلك الليلة، كان البعوض قد نهشني. البعوض يحبّ أن يتغذّى على جسدي. عندما كنت طفلاً كان ذلك يزعجني كثيراً. كان يدمّرني في الليل. كنت أستيقظ وقد امتلأ جسدي بلسعات البعوض وأشعر بألم شديد في معدتي وأحك جسدي كله. وهذا ما حدث تماماً صباح يوم الأحد ذاك. كانت لسعات البعوض تغطي جسمي كلّه، وكانت معدتي قد انتفخت بسبب الكاسترد والجيلاتين، ولم أستطع أن أغادر الفراش. كنت أشعر بأنني أريد أن أتقيأ. ثمّ جاءت أمّي.

قالت: «هيا ارتدِ ثيابك. سنذهب إلى الكنيسة».

«لست على ما يرام».

«لهذا السبب سنذهب إلى الكنيسة. المسيح سيشفيك هناك»

«ماذا، لا أظن أنه يستطيع أن يشفيني».

كانت أفكاري وأفكار أمّي متباينة حول عمل المسيح. فقد كانت تؤمن أنك إذا صلّيت للمسيح فإن المسيح سيحّل كلّ مشكلاتك ويقدّم لك كلّ ما تحتاج إليه. أما آرائي عن المسيح فكانت واقعية أكثر.

فقلت لها: «لماذا لا تعطيني دواء أولاً ثمّ نصلّي للمسيح لنشكره لأنه منحنا الأطباء الذين اخترعوا الدواء، لأن الدواء هو الذي يجعل المرء في حال أفضل، لا المسيح».

«لن تكون بحاجة إلى دواء عندما يكون عندك المسيح. المسيح سيشفيك. صلّ للمسيح».

«لكن أليس الدواء بركة من المسيح؟ وإذا منحنا المسيح الدواء ولم نأخذ هذا الدواء، فألا ننكر النعمة التي منحنا إياها؟»

مثل جميع مناقشاتنا عن المسيح، لم تكن أيّ منها توصلنا إلى أي مكان.

قالت: «تريفور، إذا لم تذهب إلى الكنيسة فإن حالتك ستزداد سوءاً. إنك محظوظ لأنك مرضت يوم الأحد، لأننا سنذهب إلى الكنيسة الآن ويمكنك أن تصلّي للمسيح والمسيح سيشفيك».

«يبدو هذا شيئاً لطيفاً، لكن لماذا لا أبقى في البيت؟»

«لا. هيا ارتدِ ثيابك. سنذهب إلى الكنيسة».

(١٨)

حياة أمّي

عندما ضفرت شعري في جدائل من أجل حفلة التخرج في المدرسة الثانوية، بدأت ألفت انتباه الفتيات لأول مرة، وبدأت أصادقهن. كنت أظن أحياناً أنهن بدأن يخرجن معي لأنني أصبحت وسيماً، وفي أحيان أخرى أظن أنهن بدأن يحببني لأنني كنت أعاني مثلهن حتى أبدو في مظهر جيد. مهما كان الأمر، عندما نجح ذلك، لم أعد أريد أن أغيّر شيئاً، فأصبحت أذهب إلى صالون الحلاقة ذاك كلّ أسبوع، أمضي فيه ساعات حتى يصبح شعري ناعماً ثم أجدله. كانت عينا أمّي تزوغان وتقول: «لا أستطيع أن أخرج مع رجل يمضي على شعره وقتاً أطول مما أمضيه أنا».

كانت أمّي تذهب إلى عملها من يوم الإثنين حتى يوم السبت، ثم تنهمك بالعمل في حديقتها وهي ترتدي ثياب شخص مشرّد. وفي صباح يوم الأحد، تصفف شعرها وترتدي ثياباً جميلة وتنتعل حذاء بكعب عال وتتأنق كثيراً قبل أن تذهب إلى الكنيسة. وعندما كانت تنتهي من ذلك، كانت تستثيرني ونتبادل، كعادتنا، بعض العبارات الصغيرة.

«الآن من هو أكثر أناقة في الأسرة كلها، إيه؟ أرجوا أن تكون قد استمتعت هذا الأسبوع بكونك الفتى الوسيم. ها قد عادت الملكة. لقد أمضيت أربع ساعات في صالون الحلاقة حتى تبدو هكذا، واستحممت للتو».

كانت تتسلّى معي. لا يوجد ابن يريد أن يقول إن أمّه امرأة جميلة جداً، لأنها كانت حقاً جميلة. جميلة من الخارج، وجميلة من الداخل. كانت تتمتع بثقة كبيرة بنفسها لم أتمتع بها قط، وحتى عندما كانت تعمل في الحديقة وهي في بدلة العمل تلك التي يكسوها الطين، كان باستطاعتك أن ترى كم كانت امرأة جذّابة.

أظن أنّ أمّي حطمت أكثر من قلب عندما كانت شابة، لكن كان هناك رجلان اثنان فقط طوال حياتها: أبي وزوج أمّي. بالقرب من بيت أبي في يوفيل، كانت توجد ورشة لتصليح السيارات تُدعى «الميكانيكون القديرون». وكانت سيارتنا الفولكسفاغن تتعطّل باستمرار، وكانت أمّي تأخذها إلى تلك الورشة لإصلاحها. التقت في هذه الورشة بهذا الميكانيكي اللطيف الذي يدعى أبيل. كنت أراه كلّما ذهبنا لنُحضر السيارة. كانت السيارة تتعطل كثيراً، لذلك كنّا نذهب إلى تلك الورشة كثيراً. في النهاية، بدا أننا كنّا نذهب إلى الورشة حتى لو لم تكن السيارة معطلة. كنت في السادسة من عمري، ربما في السابعة. لم أكن أفهم ما كان يحدث. كلّ ما عرفته هو أن هذا الرجل كان يحضر فجأة. كان طويل القامة، نحيفاً، لكنه قوي. كانت لديه هاتان الذراعان الطويلتان واليدان الكبيرتان. كان باستطاعته أن يرفع محرّك سيارة مع علبة التروس.

كان وسيماً، لكنّه لم يكن جميلاً. أحبّت أمّي فيه ذلك. كانت تقول إن هناك نوعاً قبيحاً تنجذب إليه النساء. بدأت تناديه آبي، وبدأ يناديها مبوي، اختصاراً لاسمها نومبويسيلو.

أحببته أنا أيضاً. كان آبي جذاباً ومرحاً وله ابتسامة جميلة سهلة. كان يحبّ مساعدة الآخرين أيضاً، خصوصاً إذا كان الشخص في محنة. فإذا تعطلت سيارة أحدهم على الطريق السريع، كان يهرع ليرى ما الذي يمكن أن يفعله، وإذا صاح أحدهم «امسكوه، حرامي»، فهو الرجل الذي يطارده. هل السيدة العجوز التي تقيم في البيت المجاور تحتاج إلى نقل صناديق؟ كان هو الرجل الذي ينقل لها الصناديق. كان يحبّ أن يحبّه العالم وهذا ما جعل التكلم عنه بالسوء أمراً صعباً. فإذا كنت ترى أحد الأشخاص وحشاً لكن العالم كلّه يراه قدّيساً، فإنك تبدأ تشك بنفسك وتظن أنك أنت المخطئ. وتقول أخيراً لنفسك لا بد أن ما حدث هو خطأي، لأنك أنت الشخص الوحيد الذي يتلقى غضبه؟

كان أبيل لطيفاً معي باستمرار. لم يحاول أن يكون أبي، وكان أبي لا يزال في حياتي، فلم أكن أبحث عن أحد يحلّ مكانه. كان كلّ ما أفكّر به هو أنه صديق أمّي اللطيف. بدأ يأتي ليمكث معنا في إيدن بارك. وفي بعض الليالي كان يريد أن نزوره في الكراج الذي حوّله إلى مسكن في أورانج غروف، وكنا نفعل ذلك. لأنني بعد أن أحرقت بيت تلك العائلة البيضاء، انتهى كلّ ذلك. وبدأ يعيش معنا في إيدن بارك.

ذات ليلة، كنّا أنا وأمّي في اجتماع للصلاة عندما انتحت بي أمي جانباً.

قالت: «أريد أن أخبرك شيئاً. أنا وأبيل سنتزوّج».

غريزياً، وحتى من دون تفكير، قلت، «لا أظن أنها فكرة جيدة».

لم أكن منزعجاً منه أو أيّ شيء من هذا القبيل. كان لديّ إحساس معين تجاه هذا الرجل، حدس. أحسست به حتى قبل ما حدث عند شجرة التوت. ولم تتغيّر مشاعري تجاه أبيل منذ تلك الليلة لأنني رأيت بأمّ عيني ما الذي يمكن أن يفعله.

قالت: «أفهم أن هذا صعب عليك. أفهم أنك لا تريد أباً جديداً».

فقلت: «لا، ليس الأمر كذلك. فأنا أحبّ أبيل. أحبّه كثيراً. لكن يجب ألا تتزوّجيه». لم أكن أعرف كلمة «شرّير» آنذاك، لكن لو كنت أعرفها لربما قلتها. «فيه شيء على غير ما يرام. أنا لا أثق به. لا أظن أنه شخص جيد».

لم أكن أمانع عندما بدأت أمّي تخرج مع هذا الرجل، لكن لم يخطر ببالي قط أنه قد يصبح جزءاً من أسرتنا. كنت أستمتع بوجودي مع أبيل كما استمتعت عندما لعبت مع شبل النمر عندما زرنا قفص النمر أول مرة: أحببته، أمضيت وقتاً ممتعاً معه، لكنّني لم أفكّر قط بأن أجلبه إلى البيت.

إذا كان هناك أيّ شكّ حول أبيل، فقد كانت الحقيقة واضحة أمامنا، من اسمه. فهو أبيل، الأخ الطيب، الابن البار، الاسم المستمد من التوراة، وقد فعل كما يوحي به اسمه أيضاً (هابيل). كان الابن البكر، مطيعاً، يعتني بأمّه، يرعى إخوته وأخواته. كان فخر عائلته.

لكن أبيل كان اسمه الإنكليزي، أما اسمه بالتسونغا فهو نغيسافيني الذي يعني «كن حذراً».

تزوّجت أمّي وأبيل ولم يقيما حفلة رسمية، ولم يكن هناك تبادل خواتم. فقط ذهبا ووقّعا على الأوراق وكان هذا كلّ شيء. بعد حوالي سنة، أنجبت أمّي شقيقي أندرو. أذكر أن أمّي غابت بضعة أيام، وعندما عادت أصبح في بيتنا هذا الشيء الذي يبكي ويتغوّط ويرضع. لكن عندما تكون أكبر من شقيقك بتسع سنوات، فإن مجيئه لا يغيّر أشياء كثيرة في حياتك. فلم أكن أنا الذي أغيّر حفّاظاته، وإنما كنت ألعب خارج البيت، وأركض حول الحيّ.

كان الشيء الرئيسي الذي أتذكّره بعد ولادة أندرو أننا ذهبنا لزيارة عائلة أبيل لأول مرة أثناء عطلة عيد الميلاد. كانوا يعيشون في بلدة تزانين في غازانكولو، موطن التسونغا خلال نظام التفرقة العنصرية. والمناخ في تزانين استوائي، حار ورطب، وتُنتج المزارع المجاورة التي يملكها البيض أفضل أنواع الفاكهة -مانغو وليتشي وأجمل موز يمكن أن تراه في حياتك- التي تأتي منها جميع الفواكه

التي نصدّرها إلى أوروبا. أما التربة في أرضي السود التي تبعد حوالي عشرين دقيقة، فقد تدهورت بسبب زراعتها بشكل مكثف والرعي الجائر. كانت أمّ أبيل وأخواته نساء تقليديات، أمّهات يمكثن في البيت، ويعيل أبيل وأخوه الأصغر الذي يعمل شرطياً أفراد العائلة. كانوا كلّهم في غاية اللطف والكرم واعتبرونا جزءاً من العائلة.

عرفت آنذاك أن ثقافة التسونغا هي ثقافة أبوية بامتياز. إننا نتحدّث هنا عن عالم يتعين فيه على النساء أن ينحنين عندما يحيين الرجال. والعلاقات الاجتماعية بين الرجال والنساء عندهم محدودة. إذ يعمل الرجال، وتطهو النساء الطعام. حتى إنه لا يُسمح للرجال بالدخول إلى المطبخ. وكصبي في التاسعة من العمر، اعتبرت ذلك شيئاً رائعاً. فلم يكن يُسمح لي أن أفعل شيئاً. أما في بيتنا فكانت أمّي تطلب مني دائماً أن أقوم بأعمال البيت -غسل الصحون، كنس أرضيّة البيت- وعندما حاولت أن تفعل ذلك في تزانين، لم تدعها النساء تفعل لي ذلك.

«تريفور، رتّب سريرك»، تقول أمّي.

«لا، لا، لا»، تقول أمّ أبيل محتجة، «يجب أن يخرج تريفور ويلعب».

كنت أخرج وألعب بينما تنهمك أخوات أبيل بتنظيف البيت ومساعدة النساء في الطهي. كنت أعيش في الجنة.

كرهت أمّي كلّ لحظة أمضتها هناك. لكن الزيارة كانت رحلة

مميزة بالنسبة لأبيل، الابن البكر الذي يُحضر ابنه البكر لأول مرة. في مناطق السود، يكاد الابن البكر يصبح الأب/ الزوج بشكل تلقائي لأن الأب يعمل في المدينة. ويصبح الابن البكر رجل البيت، يربّي أشقاءه. وتعامله أمّه باحترام شديد باعتباره يقوم مقام الأب. وبما أن هذه الزيارة تمثّل عودة أبيل الكبيرة إلى البيت مع أندرو، فقد كان يتوقّع من أمّي أن تقوم بدورها التقليدي أيضاً، لكنّها رفضت أن تفعل ذلك.

"تؤدي النساء في تزانين أعمالاً عديدة أثناء اليوم. فيقمن بإعداد الفطور، وتحضير الشاي، وإعداد الغداء، بالإضافة إلى الغسيل والتنظيف. ويعمل الرجال طوال السنة في المدينة لإعالة العائلة، لذلك فهذه هي عطلتهم الوحيدة. فلا يفعلون شيئاً، وتقوم النساء على خدمتهم. "وقد يذبحون عنزة أو شيئاً من هذا القبيل، يقومون بالأعمال التي يؤديها الرجال عادة، ثمّ يذهبون إلى مكان مخصص للرجال حيث يتبادلون الأحاديث ويشربون بينما تنهمك النسوة في أعمال الطهي والتنظيف. لكن بما أن أمّي تعمل في المدينة طوال السنة أيضاً، فقد كانت باتريشيا نوا ترفض أن تعمل في مطبخ أحد. كانت روحاً تهيم بحرية. كانت تمشي إلى القرية حيث يلتقي الرجال وتتبادل معهم الحديث كأنداد لها.

"رأت أمّي أن التقاليد التي تفرض على النساء أن ينحنين للرجال سخيفة، لكنها لم ترفض أن تفعل ذلك. فقد فعلت ذلك هي نفسها لكن بطريقة مبالغ فيها. كانت تسخر منها. كانت النسوة الأخريات ينحنين قليلاً أمام الرجال بتهذيب، أما أمّي

فراحت تنحني بخنوع زائد حتى تلامس التراب كما لو كانت تصلّي لإله، وتظل جاثية طويلاً، لمدة طويلة جداً، لمدة طويلة حتى يشعر الجميع بالارتباك. هكذا كانت أمّي. لم تكن تحارب النظام، وإنما تسخر من النظام. ورأى أبيل أن زوجته لا تحترمه. فلدى كل رجل امرأة سلسة، طيّعة من القرية، وها هو يأتي بهذه المرأة المعاصرة، امرأة من الإكسهوزا، القبيلة التي يُعرف عن نسائها بأنهن ثرثارات ولسن أخلاقيات. كانا يتشاجران طوال الوقت، وبعد الزيارة الأولى تلك، لم تعد أمّي تزورهم أبداً.

حتى تلك اللحظة عشت حياتي كلّها في عالم تديره نساء، لكن بعد أن تزوجت أمّي أبيل، خصوصاً بعد أن أنجبت أندرو، بدأ أبيل يحاول أن يثبت نفسه ويفرض أفكاره على الأسرة كلها. واتضح شيء واحد في وقت مبكر وهو أن هذه الآراء لا تشملني. كنت أذكّره بأن أمّي عاشت حياة قبله، حتى إنني لم أكن أشاركه لونه. كانت أسرته تتألف من أمّي والطفل الجديد، أما أسرتي فتتألف من أمّي وأنا. في الواقع قدّرت ذلك منه. في بعض الأحيان كان رفيقي، وفي أحيان أخرى لم يكن، لكنّه لم يكن يدّعي بأن علاقتنا ليست كذلك. كنا نمزح ونضحك معاً. كنا نشاهد التلفزيون معاً، وكان يعطيني أحياناً مصروف جيب، لكنّه لم يقدّم لي هدية في عيد ميلادي أو هدية عيد الميلاد قط، ولم يمنحني العطف الذي يمنحه الأب عادة لأنني لم أكن ابنه قط.

جلب مجيء أبيل إلى البيت قواعد جديدة، وكان أحد تلك الأشياء هو أنه طرد الكلبتين فوفي وبانثر إلى خارج البيت.

«لا أريد كلاباً في البيت».

«لكنهما موجودان معنا في البيت طوال الوقت»

«ليس بعد الآن. في البيت الأفريقي، الكلاب تنام خارج البيت، والبشر ينامون داخله».

كان أبيل يريد أن يقول لنا عندما أخرج الكلبتين إلى باحة البيت: «سنفعل الأشياء في هذا البيت كما يجب أن تكون». عندما كانا لا يزالان يلتقيان قبل زواجهما كانت أمي لا تزال تلك الروح الحرة الطليقة، تفعل ما تريد، تذهب حيثما تشاء. إلا أن هذه الأشياء بدأت تتوقف شيئاً فشيئاً. كنت أرى أنه كان يحاول أن يكبح استقلاليتنا، حتى أنه كان يتبرم من ذهابنا إلى الكنيسة. كان يقول لها: «لا يمكن أن تظلي في الكنيسة طوال اليوم»، ثم يضيف، «زوجتي تذهب طوال اليوم، وماذا سيقول الناس؟ (لماذا زوجته ليست موجودة في البيت؟ أين هي؟ من يذهب إلى الكنيسة طوال اليوم؟) لا، لا، لا. إن هذا يجلب لي قلة الاحترام».

حاول أن يمنعها من أن تمضي وقتاً طويلاً في الكنيسة، وكانت إحدى أكثر السبل الفعالة التي استخدمها أنه لم يعد يصلح سيارة أمي. فعندما كانت تتعطل سيارتها كان يتعمد أن يتركها واقفة لا تتحرك. لم يكن باستطاعة أمي أن تشتري سيارة أخرى، ولم يكن بإمكانها أن تصلح السيارة في ورشة أخرى. أنتِ زوجة ميكانيكي وتذهبين إلى ميكانيكي آخر ليصلح سيارتك؟ هذه أسوأ من الخيانة. وهكذا أصبح أبيل وسيلة نقلنا الوحيدة، وكان يرفض أن

يأخذنا إلى أي مكان. وبما أن أمّي كانت متحدّية بطبعها، كانت تأخذ الميني باص لتذهب إلى الكنيسة.

إن عدم وجود السيارة كان يعني أيضاً أنني حرمت من الذهاب لزيارة أبي. كان علينا أن نطلب من أبيل أن يوصلنا إلى البلدة، لكنه كان يرفض لأنه كان يعتبر ذلك إهانة لرجولته.

«يجب أن نذهب إلى يوفيل».

«لماذا ستذهبان إلى يوفيل؟»

«لنزور والد تريفور».

«ماذا؟ لا، لا. كيف آخذ زوجتي وابنها وأنزلكما هناك؟ إنكِ تهينني. ماذا أقول لأصدقائي؟ ماذا أقول لعائلتي؟ زوجتي ذهبت إلى بيت رجل آخر؟ الرجل الذي أنجبت منه ذلك الطفل؟ لا، لا، لا».

بدأت زيارتي لأبي تقلّ كثيراً. ولم تمض فترة طويلة حتى انتقل إلى كيب تاون.

كان أبيل يريد زواجاً تقليدياً مع زوجة تقليدية. كنت أتساءل دائماً لماذا تزوّج امرأة مثل أمّي أساساً. فهي على عكسه تماماً في كلّ شيء. فإذا كان يريد امرأة تنحني له، فقد كانت هناك فتيات كثيرات في تزانين رُبين خصيصاً ليفعلن ذلك. وكانت أمّي تقول دائماً إن الرجل التقليدي يريد امرأة خانعة، لكنّه لا يحبّ النساء الخانعات، وإنما ينجذب دائماً إلى النساء المستقلات. قالت لي ذات

يوم: «إنه يشبه الشخص الذي يجمع الطيور الغريبة، يريد امرأة حرّة لأنه يحلم بأن يضعها في قفص». "

عندما تعرفنا على أبيل، كان يدخّن الحشيش كثيراً، وكان يشرب أيضاً، لكنّه كان يدخّن الحشيش في معظم الأحيان. عندما أتذكّر ذلك، أحنّ إلى تلك الأيام عندما كان تدخين الحشيش يجعله شخصاً ليناً لطيفاً. كان يدخّن، يشاهد التلفزيون، وينام. أظن أنه كان يعرف لا شعورياً بأنّه يجب أن يفعل شيئاً ليخفف من حدّة غضبه. عندما تزوّج أمّي أقلع عن التدخين. أقنعته أمي أن يتوقف عن التدخين لأسباب دينية – الجسد معبد وما إلى ذلك – لكن الشيء الذي لم ير أحد منّا أنه هو قادم أنه عندما أقلع عن تدخين الحشيش انتقل إلى شرب الكحول، وبدأ يشرب أكثر فأكثر. ولم يعد يوماً إلى البيت وهو صاح. كان يشرب حوالى ستّ علب بيرة بعد انتهاء عمله. وأثناء ليالي الأسبوع كان يسكر، ولم يكن يعود إلى البيت أيام الجمعة والسبت أحياناً. "عندما كان أبيل يسكر، تحمرّ عيناه، تحتقنان وتصبحان قانيتين بلون الدم. كانت تلك العلامة التي تعلّمت أن ألاحظها. كنت أرى أبيل دائماً ثعبان كوبرا: هادئ، ساكن، ثمّ ينفجر فجأة. لم تكن تظهر عليه أي علامات تشير إلى أنه غاضب، ولم يكن يكوّر قبضتيه. ففي لحظة يكون هادئاً جداً، ثم ينفجر العنف فجأة. كانت عيناه المؤشر الوحيد الذي يجعلني أبتعد عنه. كانت عيناه تشيان بكلّ شيء، كانتا عينيْ الشيطان. "

في إحدى الليالي استيقظنا في وقت متأخر من الليل والدخان

يملأ البيت. لم يكن أبيل قد عاد إلى البيت عندما أوينا إلى الفراش، وكنت قد نمت مع أمّي في غرفة نومها ومع أندرو الذي كان لا يزال رضيعاً. استيقظتُ مرعوباً وهي تهزّني وتصرخ: «تريفور! تريفور!» كان الدخان يملأ البيت. خيّل إلينا أن البيت يحترق.

ركضت أمّي في الممر إلى المطبخ ورأت المطبخ يحترق. كان أبيل قد عاد إلى البيت بعد منتصف الليل وهو سكران. كان فاقد الوعي من شدة السكر ولم نره هكذا من قبل. كان جائعاً. حاول أن يسخّن قليلاً من الطعام على الموقد، ثم أغمي عليه على الأريكة بينما كان الطعام لا يزال على الموقد، فاحترق القِدر ثم احترق جدار المطبخ وراء الموقد، وملأ الدخان المكان. أطفأت أمّي الموقد وفتحت الأبواب والنوافذ لتهوية البيت، ثمّ توجهت إلى الأريكة وأيقظته ووبختّه بأنه كاد يحرق البيت. كان في حالة شديدة من السكر ولم يعبأ بذلك.

عادت إلى غرفة النوم، رفعت سماعة الهاتف، واتصلت بجدتي. تحدّثت معها طويلاً على الهاتف عن أبيل وعن سكره. «سيقتلنا هذا الرجل ذات يوم. كاد يحرق البيت...»

فدخل أبيل إلى غرفة النوم. كان هادئاً جداً. كانت عيناه حمراوين بلون الدم، جفناه ثقيلين. وضع إصبعه على زر الهاتف وأغلق الهاتف. طار صواب أمّي.

«كيف تجرؤ أن تفعل ذلك. لا أسمح لك أن تغلق الهاتف وأنا أتكلم! ماذا تظن أنك تفعل؟»

فقال لها: «يجب ألاّ تخبري أحداً بما يجري داخل هذا البيت».

«أوه، أرجوك! هل تخاف ماذا سيقول عنك العالم؟ أرجو أن تقلق على هذا العالم، أن تقلق على ما تفكر به أسرتك».

انحنى أبيل فوق أمّي. لم يرفع صوته، لم يشتعل غضباً.

قال لها بهدوء: «مبوي، إنك لا تحترمينني».

«احترام؟! كدت تحرق بيتنا. احترام؟ أوه، أرجوك! اكسب احترامك! تريدني أن أحترمك كرجل، إذاً تصرّف كرجل! تنفق نقودك على الشرب في الشوارع، وأين حفّاضات طفلك؟! احترام؟! يجب أن تكسب احترامك....»

«مبوي...»

«أنت لست رجلاً. أنت طفل».

«مبوي...»

«لا يمكن أن يكون زوجي طفلاً».

«مبوي...»

«عندي أطفالي يجب أن أربيهم».

«مبوي اسكتي...»

«رجل يعود إلى البيت سكراناً».

«مبوي اسكتي...»

«ويحرق البيت مع أطفاله»

«مبوي اسكتي...»

«وتدعو نفسك أباً».

وفجأة، كالصاعقة عندما لا توجد غيوم، كراك! صفعها على وجهها بقوة. انزلقت من جانب الحائط وانهارت مثل طنّ من الآجر. لم أر شيئاً كهذا من قبل. وقعت على الأرض وبقيت مكومة هناك ثلاثين ثانية كاملة. بدأ أندرو يصرخ. لا أذكر أنني ذهبت لأحمله، لكنني أتذكّر بوضوح أنني كنت أضمه إليّ في لحظة ما. استجمعت أمّي نفسها ونهضت ووقفت على قدميها بصعوبة ثم اندفعت إليه بقوة. من الواضح أنها فوجئت بضربه لها، لكنّها كانت تحاول أن تتصرّف بسرعة. رأيت علائم عدم التصديق على وجهها. لم يحدث لها ذلك من قبل قط. عادت ووقفت أمامه وصاحت به.

«هل ضربتني؟»

طوال الوقت، في رأسي، كنت أقول في نفسي ما كان يقوله أبيل. اسكتي يا أمّي، اسكتي. ستزيدين الطين بلة. لأنني كنت أعرف، كمتلق لضربات كثيرة، الشيء الوحيد الذي لا يفيد هو أن يردّ المرء، لكنّها لم تسكت.

«هل ضربتني؟»

«مبوي، قلت لك...»

«لم يفعل لي ذلك رجل في حياتي! لا تظن أنك تستطيع أن تسيطر عليّ وأنت لا تستطيع أن تسيطر حتى على...»

كراك! صفعها مرة أخرى. ترنحت إلى الوراء لكنها لم تقع هذه المرة.

جاهدت، أمسكتني، وأمسكت أندرو وقالت: «النذهب. سنغادر».

جرينا وخرجنا إلى الشارع. كان ذلك في منتصف الليل، وكان الجو بارداً. لم أكن أرتدي شيئاً سوى فانيلة وبنطال رياضة طويل. ذهبنا إلى مركز شرطة بارك إيدن الذي يبعد مسافة كيلومتر. دفعتنا أمي إلى داخل المركز حيث كان يجلس شرطيان مناوبان في المكتب الأمامي.

«جئت لأسجّل اتهاماً»، قالت.

«ما هو الاتهام؟»

«جئت لأوجّه تهمة ضدّ الرجل الذي ضربني».

حتى الآن لن أنسى الطريقة الفوقية التي كلمّاها بها.

«اهدئي يا سيدتي. اهدئي. من ضربك؟»

«زوجي».

«زوجك؟ ماذا فعل لك؟ هل أثرت غضبه؟»

«ماذا؟ لا. لقد ضربني. جئت لأوجّه تهمة ضدّه...»

«لا، لا. مدام. لماذا تريدين أن تفتحي قضية، إيه؟ هل أنت متأكدة بأنك تريدين أن تفعلي ذلك؟ عودي إلى البيت وكلّمي زوجك. هل تعرفين أنك إذا وجهتي له تهمه لا يمكنك التراجع عنها؟ سيصبح عنده سجّل إجرامي. ولن تكون الأمور نفسها بالنسبة له. هل تريدين حقاً أن يدخل زوجك السجن؟»

أصرّت أمّي على فتح محضر، لكنهما رفضا أن يفعلا ذلك - رفضا أن يفتحا صحفة اتهام.

قالا لها: «هذه مسألة عائلية. لا نظن أنك ترغبين في إقحام الشرطة في هذا الأمر. لعلك تريدين أن تفكّري في الأمر مرة أخرى ثم عودي في الصباح».

بدأت أمّي تصيح بهما، وقالت إنها تريد أن ترى رئيس المركز. في تلك اللحظة دخل أبيل إلى مركز الشرطة. جاء بالسيارة. كان قد صحا قليلاً، لكنّه كان لا يزال سكراناً. قاد سيارته إلى مركز شرطة. لم يعبأ بذلك. توجّه مباشرة إلى الشرطيين، وتحوّل المركز إلى نادٍ للرجال. كما لو كانوا مجموعة من الرفاق القدامى.

قال: «يا شباب، تعرفان كيف هي الأمور. تعرفان كيف تسلك النساء. غضبتُ قليلاً، هذا كلّ ما في الأمر»

«حسناً يا رجل. نعرف. هذا يحدث كثيراً. لا تقلق».

لم أر شيئاً كهذا من قبل. كنت في التاسعة من عمري، وكنت لا

أزال أعتبر الشرطة رجالاً طيبين. فعندما تقع في مشكلة، تستدعي الشرطة، ثم تهرع بسيارة تشعل أضواء حمراء وزرقاء وتنقذك. لكنّي أذكر أنني كنت واقفاً هناك أنظر إلى أمّي، مذهولاً، خائفاً بألاّ يساعداها هذان الشرطيان. في تلك اللحظة أدركت أن الشرطة ليست كما كنت أظن. فهم رجال أولاً، وشرطة ثانياً.

غادرنا المركز. أخذتني أمّي أنا وأندرو، وذهبنا إلى بيت جدتي في سويتو ومكثنا هناك فترة من الزمن. بعد بضعة أسابيع، جاء أبيل واعتذر. كان أبيل مخلصاً وصادقاً دائماً في اعتذاراته: لم يكن يقصد ما فعله. كان يعرف بأنّه أخطأ. وقال إنه لن يكرر ذلك. أقنعت جدتي أمّي بأنها يجب أن تعطي أبيل فرصة ثانية. كانت حجّتها هي أن «كلّ الرجال يفعلون ذلك»، وقالت لها إن جدّي تيمبرانس كان يضربها. وأنها إذا تركت أبيل فإن ذلك لا يضمن ألاّ يحدث لها ذلك مرة أخرى، وأن أبيل، على الأقل، مستعد ليعتذر منها. فقرّرت أمّي أن تمنحه فرصة ثانية. عدنا إلى إيدن بارك معاً، ولسنوات لم يحدث شيء – لسنوات لم يمدّ أبيل يده عليها أو عليّ. وعادت الأمور إلى سابق عهدها.

كان أبيل ميكانيكياً ممتازاً، ربما كان يُعتبر واحداً من أفضل الميكانيكيين في ذلك الوقت. كان قد درس في المعهد الفني وكان الأول على دفعته. وجاءته عروض عمل من شركتيْ بي إم دبليو ومرسيدس. ازدهر عمله كثيراً، لأن الناس كانوا يجلبون إليه سياراتهم من جميع أنحاء المدينة لإصلاحها لأنه كان يفعل معجزات بها. آمنت أمّي به بصدق. ظنّت أنّها تستطيع أن ترفعه

إلى الأعلى، تساعده على تحقيق طموحاته، لا كميكانيكي فقط، وإنما كصاحب ورشة.

لكونها امرأة عنيدة ومستقلة، ظلت أمي المرأة المعطاءة. كانت تعطي وتعطي وتعطي. هذه هي طبيعتها. فمع أنها رفضت أن تكون خانعة لأبيل في البيت، كانت تريد أن ينجح كرجل. لو أنها تمكنت من أن تجعل زواجها زواجاً حقيقاً كندّين، لصبّت نفسها فيه بكاملها، كما صبّت نفسها في طفليها. ثم قرّر صاحب ورشة «الميكانيكيون القادرون» التي يعمل فيها أبيل أن يبيعها ويتقاعد. كانت أمي قد وفرت قليلاً من النقود، فساعدت أبيل على شراء الورشة ونقلاها من يوفيل إلى المنطقة الصناعية في وينبيرج، غرب الكس، وأصبحت ورشة «الميكانيكيون القادرون» ورشة الأسرة الجديدة.

عندما تبدأ عملاً لأول مرة تكتشف في ما بعد أشياء مخفية لا يخبرك أحد عنها. وينطبق هذا بشكل خاص عندما يكون صاحبا العمل الجديد شخصين أسودين شابين، سكرتيرة وميكانيكي، خارجين من زمن لم يكن يُسمح فيه للسود أن يؤسسا عملاً تجارياً خاصاً بهما. وأحد الأشياء التي لا يخبرك عنها أحد هي أنك عندما تشتري عملاً تجارياً فإنك تشتري معه دينه أيضاً. فبعد أن فتحت أمي وأبيل دفاتر حسابات الورشة أدركا حقيقة ما اشترياه، ورأيا بوضوح المشكلات العميقة التي تعاني منها الشركة.

شيئاً فشيئاً بدأت الورشة تهيمن على حياتنا. كنت أخرج

من المدرسة وأمشي الكيلومترات الخمسة من مدرسة ماريفال إلى الورشة، وأجلس ساعات طويلة أحاول أن أؤدي واجبي المدرسي بين آلات ومعدات وضجيج التصليح. لا بد أن أبيل سيتأخر عن موعد تسليم سيارة يقوم بإصلاحها، وبما أنه كان يوصلنا إلى البيت كنا نضطر أن ننتظره حتى ينهي عمله. بدأ يقول: «ستتأخر، اذهب وخذ غفوة في إحدى السيارات وسأوقظك عندما نذهب»، فأزحف إلى المقعد الخلفي لإحدى السيارات وأغفو، ثم يوقظني عند منتصف الليل لنعود إلى إيدن بارك. وبعد فترة قصيرة، بدأ يقول: «سنتأخر هذه الليلة. اذهب ونم في إحدى السيارات، وسنوقظك لتذهب إلى المدرسة في الصباح». بدأنا ننام في الورشة. في البداية، كان ذلك يحدث كل ليلة أو ليلتين في الأسبوع، ثمّ أصبحت ثلاث أو أربع ليال، ثمّ باعت أمّي البيت واستثمرت ثمنه كله في الورشة أيضاً. دفعت كلّ شيء. تخلّت عن كلّ شيء من أجله.

منذ ذلك الحين، بدأنا نعيش في الورشة التي كانت في الأصل مخزناً، ليس من النوع الرومانسي المبهرج الذي يمكن أن يحوّله محبّو موسيقى الجاز إلى صالة لعزف الموسيقى. لا، لا. كانت مكاناً بارداً، وخاوياً، له أرضية رمادية خرسانية مبقعة بالزيوت والشحوم، تتناثر في أرجائه سيارات قديمة متهالكة وقطع تبديل. وبجانب باب الورشة الدوّار الذي يطلّ على الشارع، يوجد مكتب صغير جداً مبنّي من لوح من الجص للقيام بالأعمال المكتبية وما شابهها. ويوجد في الخلف مطبخ صغير فيه مغسلة صغيرة، وموقد

صغير نقّال، وبعض الخزائن. ومن أجل الاستحمام، يوجد حوض غسيل مفتوح، يشبه مغسلة صغيرة، عُلّق فوقها رأس دش.

كان أبيل وأمّي ينامان مع أندرو في المكتب على مرتبة رقيقة يمدونها على الأرض. أما أنا فكنت أنام في السيارات. تعلّمت أن أنام في السيارات. أصبحت أعرف ما هي أفضل السيارات التي تصلح للنوم. كان أسوأها السيارات الرخيصة، سيارات الفولكسفاغن، والسيارات اليابانية الصغيرة الواطئة التي لا تميل مقاعدها إلى الخلف، ولا توجد فيها مساند للرأس، ومنجدة بجلد اصطناعي رخيص. كنت أمضي نصف الليلة أحاول ألاّ أنزلق وأقع من المقعد. كنت أستيقظ وركبتاي تؤلمانني لأنني لم أكن أستطيع أن أمدّ ساقيَّ. أما السيارات الألمانية فكانت عظيمة، لاسيما المرسيدس التي توجد فيها مقاعد جلدية فاخرة كبيرة تشبه الأرائك. تلسعك البرودة أول ما تدخل إليها، لكنّها سرعان ما تصبح دافئة لأنها جيدة العزل. كان كلّ ما أحتاج إليه هو سترتي المدرسية التي أطويها وأضعها تحت رأسي. كنت أشعر براحة كبيرة داخل سيارات المرسيدس، أما السيارات الأمريكية فهي الأفضل على الإطلاق. كنت أدعو الله لأن يأتي زبون بسيارة بويك كبيرة ذات مقاعد واسعة. عندما كنت أرى إحدى تلك السيارات، كنت أقول لنفسي «نعم»، فمن النادر أن تأتي سيارات أمريكية إلى الورشة، لكنها عندما تأتي، يا إلهي، كنت أشعر أنني في الجنة.

بما أن الورشة أصبحت ورشة العائلة الآن، وبما أنني أحد أفراد هذه العائلة، فقد كان عليّ أن أعمل أيضاً. لم يعد عندي

وقت للعب، لا بل لم يعد عندي وقت لأداء واجباتي المدرسية. كنت أعود مشياً إلى البيت، أخلع الزيّ المدرسي، وأرتدي بدلة العمل وأنحني تحت غطاء إحدى السيارات. بلغت مرحلة أصبح بإمكاني أن أقوم بالأعمال الأساسية في السيارات بمفردي، وكنت أفعل ذلك كثيراً. كان أبيل يقول لي: «تلك الهوندا. تحتاج إلى خدمة بسيطة». فأنزل تحت الغطاء. يوماً بعد يوم. نقاط الوصل، المقابس، المكثفات، مرشّحات الزيت، مرشّحات الهواء. ركّب مقاعد جديدة، غيّر العجلات، بدّل الأضواء العلوية، ثبّت الأضواء الخلفية. اذهب إلى محل قطع التبديل واشتري القطع اللازمة، عد إلى الورشة. كانت حياتي هكذا عندما كنت في الحادية عشرة من عمري. بدأت أتخلّف عن المدرسة. لم أعد أنجز شيئاً. كان أساتذتي يأتون إليّ.

«لماذا لم تؤدِ واجبك المدرسي؟»

«لا أستطيع أن أؤدي واجبي المدرسي. عندي عمل في البيت».

كنا نعمل ونعمل ونعمل، لكن على الرغم من كلّ هذا العمل لساعات طويلة، كانت الورشة تخسر. خسرنا كلّ شيء. حتى أننا لم نعد نستطيع تأمين طعام حقيقي. مرّ علينا شهر لا يمكنني أن أنساه، كان أسوأ شهر في حياتي. أصبحنا معدمين إلى درجة أننا لم نكن نأكل شيئاً طوال أسابيع سوى ماروغو، نوع من السبانخ البري، يُطبخ مع يرقات يطلقون عليها اسم «ديدان موبان». وديدان موبان هي أرخص شيء يمكن أن يتناوله أفقر

الفقراء. لقد نشأتُ فقيراً، لكن هناك فقراء وهناك «لكن انتظر، أنا أتناول ديدان». ديدان موبان هي الشيء الذي يقول عنه حتى الناس في سويتو، «ماذا... لا». إنها تلك اليرقات ذات الأشواك البراقة التي لا يزيد حجمها على حجم إصبعك. إنها لا تشبه الحلزون على الإطلاق، عندما أخذ أحدهم بَزّاقَة وأطلق عليها اسماً فاخراً. إنهم يضاجعون تلك الديدان التي توجد فيها أعمدة نفرية سوداء تثقب سقف حلقك وأنت تأكلها، وليس من النادر أن يتدفّق خراء دودة موبان الأصفر في فمك وأنت تقضمها.

لفترة من الزمن بدا أنني كنت أستمتع بتناول اليرقات. كانت أشبه بمغامرة في الطعام، لكن بعد عدة أسابيع، بعد تناولها كلّ يوم، يوماً بعد يوم، لم يعد بإمكاني أن أتناول المزيد منها. لن أنسى أبداً ذلك اليوم عندما قسمت دودة موبان إلى قسمين فنزّ منها ذلك السائل الأصفر – الأخضر وقلت لنفسي إنني «آكل خراء يرقة»، وأردت على الفور أن أتقيأ. عضضتها وجريت إلى أمّي وأنا أبكي، «لا أريد أن آكل يرقات بعد الآن». في تلك الليلة جمعت أمّي قليلاً من النقود واشترت لنا دجاجة. مع أننا كنا فقراء في ذلك الوقت، فإننا لم نكن بدون طعام قط.

في تلك الفترة من حياتي كرهت أشياء كثيرة – أن أعمل طوال الليل، أن أنام في السيارات، أن أستيقظ وأستحمّ في مغسلة، أن أنظّف أسناني في حوض معدني صغير، أن أمشط شعري في مرآة سيارة تويوتا، ثمّ أحاول أن أرتدي ثيابي المدرسية وأحرص على ألاّ تتلوث ببقع الزيت والشحم حتى لا يعرف التلاميذ في

المدرسة بأنني أعيش في ورشة سيارات. كنت أكره ذلك كثيراً. كرهت السيارات. كرهت النوم في السيارات. كرهت أن أصلّح السيارات. كرهت أن أوسّخ يدي. كرهت أن أكل الديدان. كرهت كلّ شيء.

والغريب في الأمر أنني لم أكره أمّي ولا حتى أبيل. لأنني كنت أرى كيف كانا يعملان بجد. في البداية، لم أكن أعرف شيئاً عن الأخطاء التي كانت تحصل في العمل والتي كانت تزيده صعوبة. كنت أظن أن الأوضاع صعبة. ثم بدأت أرى لماذا كانت الورشة تستنزف مالاً كثيراً. كان أبيل يرسلني لشراء قطع تبديل للسيارات، ثم عرفت أنّه كان يشتري تلك القطع بالدين، وكان البائعون يرفعون السعر بشكل جنوني. بدأ الدين يشلّ الورشة، وبدلاً من تسديد الدين، كان ينفق ذلك المبلغ الضئيل الذي يكسبه على الشراب. ميكانيكي ذكي لكنه رجل أعمال فاشل.

بعد فترة من الزمن، تركت أمّي عملها في شركة آي سي آي لتحاول إنقاذ الورشة وجاءت لتساعده في إدارتها. جلبت كلّ المهارات التي اكتسبتها خلال عملها في المكتب إلى الورشة وتفرغت للعمل فيها وبدأت تشرف على دفاتر الحسابات، وتنظم المواعيد، وتعمل الميزانية. سارت الأمور بشكل جيد، حتى بدأ أبيل يشعر بأنها تدير عمله. وبدأ الناس يعلّقون على ذلك أيضاً، وبدأ الزبائن يأخذون سياراتهم في الموعد المحدد، وأصبح يسدّد للباعة ديونهم في الوقت المناسب، وكانوا يقولون: «هيه، آبي،

أصبحت الورشة أفضل بكثير بعد أن استلمت زوجتك إدارة الورشة». حتى ذلك لم يكن مجدياً.

عشنا في الورشة حوالي سنة، ثم لم تعد أمّي تحتمل أكثر من ذلك. كانت تريد أن تساعده، لكنها لم تكن تريد أن تفعل ذلك إذا كان سيبدد كلّ ما تربح الورشة على الشراب. كانت دائماً امرأة مستقلة معتدّة بنفسها، لكنّها فقدت ذلك الجزء من نفسها تحت رحمة حلم شخص آخر فاشل تماماً. وجاء وقت قالت له، «لم أعد أحتمل ذلك. سأترك كلّ هذا. انتهى»، فتركت الورشة وحصلت على عمل كسكرتيرة في شركة بناء عقارات، وبشكل ما، تمكنت أمّي من شراء بيت لنا في هايلندز نورث الذي انتقلنا إليه، واستولى الدائنون على الورشة، وكانت تلك النهاية.

عندما بدأت أكبر، لم تتخلّ أمّي عن مدرستها القديمة في التأديب بحسب تعاليم الكتاب المقدس التي تقول «الجهالة متأصلة في قلب الطفل، وعصا التأدب تبعدها عنه». لكن تعاملها مع أندرو كان مختلفاً. في البداية كانت تضربه على مؤخرته، لكن حتى ذلك بدأ يخفّ مع الوقت حتى توقف تماماً. عندما سألتها لماذا كانت تضربني ولم تكن تضرب أندرو، أخذت الأمر بالمزاح كعادتها وقالت: «كنت أضربك لأنك تتحمل ذلك»، وأضافت «لكنني لا أستطيع أن أضرب شقيقك الصغير كما كنت أضربك لأنه نحيل كالعصا. إنه سينكسر. أما أنت فقد منحك الله هذه

المؤخرة المكتنزة لأضربك عليها». ومع أنها كانت تمزح، يمكنني أن أعرف أنها لم تعد تضرب أندرو لأن قلبها أصبح رقيقاً أكثر. والغريب في الأمر أنها تعلّمت الدرس منّي.

لقد نشأتُ في عالم مليء بالعنف، لكنني لم أكن عنيفاً في حياتي. صحيح أنني كنت أمارس ألعاباً على آخرين وأشعلت حريقاً وكسرت نوافذ، لكنني لم أهاجم أحداً قط. لم أضرب أحداً في حياتي. لم أغضب قط. لم أر نفسي أفعل ذلك. لقد أرتني أمّي عالماً مختلفاً عن العالم الذي نشأتُ فيه. فكانت تشتري لي الكتب التي لم تستطع أن تقرأها في حياتها. ووضعتني في المدارس التي لم تستطع أن تذهب إليها. غصت في تلك العوالم وعدت أنظر إلى العالم بنظرة مختلفة. رأيت أن ليس كلّ العائلات تمارس العنف. رأيت عبثية العنف، الدائرة التي تكرّر نفسها، الضرر الذي يلحق بالناس ثم الضرر الذي يلحقونه هم أنفسهم بأشخاص آخرين.

رأيت، أكثر من أيّ شيء آخر، أنّ العلاقات لا تدوم بالعنف وإنما بالحبّ. الحبّ عمل إبداعي. عندما تحبّ أحداً فإنك تخلق عالماً جديداً له. لقد فعلت أمّي ذلك لي، ومع التقدّم الذي أحرزته والأشياء التي تعلّمتها، عدت وخلقت عالماً جديداً وفهماً جديداً لها. بعد ذلك لم تعد ترفع يدها على أبنائها. لسوء الحظ، عندما لم تعد تفعل ذلك، بدأ أبيل.

عندما كانت أمّي تضربني، لم أخف منها قط. بالطبع لم أكن أحبّ أن تضربني. عندما قالت: «كنت أضربك بدافع الحبّ»، لم

أكن أوافقها الرأي بالضرورة. لكنني كنت أعرف أنها كانت تفعل ذلك لتؤدبني. لكن عندما ضربني أبيل أول مرة تملكني شعور لم أشعر به من قبل. تملكّني ذعر شديد.

كنت في الصفّ السادس، آخر سنة لي في مدرسة ماريفال. كنا قد انتقلنا إلى هايلاندز نورث، وكنت قد وقعت في مشكلة في المدرسة لأنني زوّرت توقيع أمّي على إحدى الوثائق. كان هناك نشاط في المدرسة لم أرغب أن أشارك به، فوقّعت باسمها بأنني لن أشارك في ذلك النشاط. اتصلت المدرسة بأمّي، وعندما عدت إلى البيت مساء ذلك اليوم وسألتني عن هذا الأمر، كنت متأكّداً بأنها ستعاقبني، لكن تبيّن لي أنها لن تفعل ذلك. فقالت إنه كان عليّ أن أسألها، وأنها كانت ستوقّع على الوثيقة في جميع الأحوال. ثمّ قال أبيل الذي كان جالساً معنا في المطبخ، يشاهد ما يحدث: «هيه، هل أستطيع أن أتحدّث إليك لحظة؟» وأخذني إلى تلك الغرفة الصغيرة، مخزن صغير بجانب المطبخ، وأغلق الباب خلفنا.

وقف أبيل بيني وبين الباب، لكن لم يخطر ببالي أيّ شيء. لم يخطر لي أن أخاف منه لأنه لم يحاول أن يعاقبني من قبل، حتى أنه لم يلق عليّ محاضرة واحدة، وإنما كان يقول لأمّي دائماً: «مبوي، ابنك فعل كذا»، فتعالج أمّي الأمر. حدث ذلك في بداية المساء. لم يكن سكراناً وكان صاحياً تماماً، لهذا السبب أصبح ما حدث لاحقاً شيئاً مرعباً.

قال: «لماذا زوّرت توقيع أمّك؟»

بـدأت أختلـق بعـض الأعـذار. «أوه، أنـا...، نسـيت أن أحـضر الوثيقـة إلى البيـت».

«لا تكذب عليّ. لماذا زوّرت توقيع أمّك؟»

بـدأت أتلعثـم وأقـول المزيـد مـن الـكلام الفـارغ، لا أعـرف مـا الـذي كان سـيحدث بعـد ذلـك، وفجـأة حـدث مـا لم يكـن بالحسبان.

أصابتنـي الضربـة الأولى في أضلاعـي. لمـع عقـلي: إنـه فـخ! لم أكـن قـد تشـاجرت مـع أحـد مـن قبـل، ولم أكـن أعـرف كيـف أقاتل الآخريـن، لكـن غريـزتي قالـت لي أن أقـترب منـه كثـيراً. فقـد رأيـت مـاذا يمكـن أن تفعـل هاتـان الذراعـان الطويلتـان. كنـت قـد رأيتـه يـضرب أمّـي، ورأيتـه يـضرب أيضـاً رجـالاً آخريـن. لم أر أبيـل قـط يوجّـه لكمـة بقبضـة مغلقـة إلى أحـد، وإنـما كان يـضرب رجـلاً عـلى وجهـه براحـة يـده المنبسـطة ويطرحـه أرضـاً. كان قويـاً جـداً. نظـرت إلى ذراعيـه وقلـت في نفـسي: يجـب ألاّ أقـف عنـد الطـرف الآخـر لهذيـن الشـيئين، فاقتربـت منـه كثـيراً حتـى التصقـت بـه وظـل يـضرب ويـضرب، لكـنّ بـما أنني كنـت ملتصقـاً بـه كثـيراً لم يسـتطع أن يوجه إليّ ضربـات قويـة. عندمـا أدرك ذلـك توقّـف عـن ضربي وحـاول أن يمسـك بي ويصارعنـي. أمسـك جلـد ذراعـي وقرصـه بـين إبهامـه وسـبّابته بقـوة. يـا إلهـي، كان ذلـك مؤلمـاً جـداً.

كانـت تلـك أشـدّ اللحظـات رعبـاً في حيـاتي. لم أشـعر بالخـوف مثـل مـا شـعرت بـه الآن، لأنـه لم يكـن هنـاك سـبب يدعـو إلى ذلـك – وهـذا مـا جعـل الأمـر مرعبـاً. لم يكـن تأديبـاً، ولم يكـن نابعـاً مـن

المحبة. بدا أنه يريد أن يلقنني درساً كي لا أزوّر توقيع أمّي مرة أخرى. بدا لي أنه شيء لن ينتهي إلاّ عندما يريد هو أن ينهيه هو، عندما يستنفد كلّ غضبه. كان يبدو أن ثمة شيئاً في داخله يريد أن يحطمني.

كان أبيل أضخم وأقوى منيّ بكثير، لكن وجودنا في مكان ضيق كان لصالحي لأنه لم يكن لديه مجال للمناورة. وبينما كان يمسكني ويوجّه لكماته إليّ، درت من حوله وانسللت من الباب. كنتُ سريعاً، لكن أبيل كان سريعاً أيضاً. فلحق بي. جريت خارج البيت وقفزت من فوق البوابة. ركضت وركضت وركضت. عندما التفت إلى الوراء آخر مرة، رأيت أبيل يدور حول البوابة، ثم خرج من الباحة وراح يجري ورائي. حتى بلغت الخامسة والعشرين من عمري، كنت أرى كابوساً متكرراً بتلك النظرة على وجهه عندما دار حول الزاوية.

عندما رأيته أطرقت برأسي في الأرض ورحت أركض. جريت كأن الشيطان يطاردني. كان أبيل أكبر مني وأسرع، لكنني كنت أعرف هذا الحيّ جيداً. لا يمكنك أن تمسك بي في الحيّ الذي أعيش فيه. كنت أعرف كلّ زقاق وكلّ شارع فيه، كلّ جدار أتسلقه، كلّ سياج أتسلل منه. كنت أتفادى السيارات، أتجاوز باحات البيوت. لم أعرف متى استسلم لأنني لم أنظر إلى الوراء. ركضت وركضت وركضت، بقدر ما كانت ساقاي تحملاني. عندما توقفت كنت قد وصلت إلى براملي التي تبعد ثلاثة أحياء

عن بيتنا. ثم وجدت مكاناً بين بعض الشجيرات وزحفت إليها واختبأت لما بدا ساعات.

ليس من الضروري أن تلقّنني درساً مرّتين. منذ ذلك اليوم وحتى أن غادرت البيت، أصبحت أعيش مثل فأر في ذلك البيت. فإذا دخل أبيل إلى غرفة، كنت أخرج من تلك الغرفة، وإذا كان جالساً في زاوية، كنت أذهب إلى الزاوية الأخرى، وإذا دخل إلى غرفة، كنت أنهض وأتظاهر بأنني أريد أن أذهب إلى المطبخ، وعندما أعود إلى الغرفة، كنت أحرص على أن أكون قريباً من الباب. قد يكون في مزاج سعيد وودّي. لا يهم. لكني لن أدعه يكون بيني وبين باب مرة أخرى، فقد يلكمني أو يركلني فجأة قبل أن أتمكن من الهرب. لذلك لم أعد أثق به، ولا للحظة واحدة.

أما الوضع بالنسبة لأندرو فكان مختلفاً. فهو ابن أبيل، من لحمه ودمه. ومع أنه كان يصغرني بتسع سنين، فقد كان أندرو الابن البكر في ذلك البيت، ابن أبيل البكر، وقد منحه ذلك احتراماً لم أحظ به ولا حتى أمّي. فقد كان أندرو يحظى بحبّ ذلك الرجل، على الرغم من المشكلات التي كان يحدثها، وبسبب ذلك الحبّ، كما أظن، كان أندرو الوحيد بيننا الذي لم يكن يخاف من أبيل. كان مُرَوّض الأسد، وقد ربّاه الأسد - كان يحبّ الوحش مع أنه كان يعرف ما الذي يمكن أن يفعله ذلك الوحش. أما أنا، فما إن كنت ألاحظ أول لمحة غضب أو جنون على أبيل حتى كنت أتوارى عن الأنظار. أما أندرو فكان يبقى ويجادل أبيل. حتى أنه كان يتدّخل بين أبيل وأمّي. أذكر تلك الليلة عندما ألقى أبيل

قنينة جاك دانيال على رأس أندرو، لكنها لم تصبه وتهشمت على الحائط. ظل أندرو فترة طويلة مذهولاً حتى أدرك أن القنينة كانت قد أُلقيت عليه، أما أنا فلم أبق في البيت ليضربني مرة أخرى.

عندما أُغلقت الورشة، كان على أبيل أن يُخرج كل سياراته لأن شخصاً اشترى الورشة بعد أن تم الحجز على ممتلكات أبيل. عمّت الفوضى كل شيء. ثم نقل ورشته إلى باحة بيتنا. كان ذلك عندما طلّقته أمّي أيضاً.

في الثقافة الأفريقية يوجد نوعان من الزواج: زواج قانوني وزواج تقليدي. فإذا طلّق رجل امرأة بشكل قانوني فإن ذلك لا يعني أنهما لم يعودا زوجين. فعندما بدأت ديون أبيل والقرارات الفظيعة التي كان يتخذها في عمله تؤثر على ديون أمّي وعلى قدرتها على إعالة ابنيها، أرادت أن تخرج من العلاقة معه. فقالت له: «لا توجد عندي ديون، وسجلي الائتماني جيد، فلن أواصل معك». كنا لا نزال أسرة وظلاّ متزوجين بشكل تقليدي، لكنّها طلّقته كي تفصل أمورهما المالية، وتمكنت من استعادة اسمها أيضاً.

عندما بدأ أبيل يدير ورشته بدون ترخيص في منطقة سكنية، اشتكى أحد الجيران وطلب إزالة الورشة، لكن أمّي تقدّمت بطلب حصلت فيه على رخصة لإدارة الورشة في بيتها. فبقيت الورشة، لكن أبيل ظل يقودها إلى الحضيض، وينفق النقود التي يكسبها على الشراب. كانت أمّي قد بدأت تترقى في عملها في

شركة العقارات آنذاك، وأصبحت تضطلع بمسؤوليات أكبر، وبدأت تتقاضى راتباً أعلى. كادت ورشته تصبح شيئاً هامشياً. وكان من المفترض أن يسدد رسوم مدرسة أندرو ويدفع ثمن مواد البقالية، لكنّه بدأ يتخلّف عن ذلك أيضاً، فبدأت أمّي تدفع كلّ شيء: فواتير الكهرباء وأقساط رهن البيت. من الناحية العملية لم يكن يساهم في أي شيء.

كانت تلك نقطة التحوّل. عندما بدأت أمّي تكسب نقوداً وتستعيد استقلاليتها -بدأنا نرى المارد يظهر. فأصبح يشرب بجنون وازداد عنفاً. ولم تمض فترة طويلة على ضربي في الغرفة الصغيرة حتى ضرب أبيل أمّي مرّة أخرى. لا أتذكّر تفاصيل ذلك، لأنها اختلطت كلّها مع الأوقات الأخرى التي حدثت بعدها. أذكر أنه تم استدعاء الشرطة. دخلوا إلى البيت هذه المرة، لكن مرة أخرى كان ذلك أشبه «بنادي الرجال». «هيه. تعرف كيف تسلك النساء». ولم يُدوّن محضر، ولم تُقدم شكوى.

عندما كان يضربها أو يجري ورائي، كانت أمّي تراني أبكي فتأخذني جانباً، وتكرر على أسماعي ما تقوله كلّ مرّة.

كانت تقول: «صَلِّ من أجل أبيل، لأنه لا يكرهنا. إنه يكره نفسه».

لم يكن لهذا الكلام معنى بالنسبة لطفل في عمري، فكنت أقول لها: «حسناً، إذا كان يكره نفسه، فلماذا لا يركل نفسه؟»

كان أبيل أحد أولئك الأشخاص الذي عندما يسكر كثيراً

وتنظر في عينيه فإنك لا تعود ترى نفس الشخص. أذكر أنه عاد إلى البيت ذات ليلة وهو في حالة شديدة من السكر، وكان يتعثّر في جنبات البيت، دخل إلى غرفتي وهو يتمتم لنفسه، استيقظت ورأيت أنه أخرج قضيبه وراح يتبوّل على أرضية الغرفة. كان يظنّ أنه في الحمّام. كان السكر يصل به إلى هذه الدرجة - فلا يعود يعرف في أيّ غرفة من البيت هو. وفي عدة ليال دخل إلى غرفتي معتقداً أنها غرفته وكان يركلني خارج السرير ويغيب عن الوعي. كنت أصرخ به، لكنك كنت كأنك تكلّم شبحاً، فأذهب وأنام على الأريكة.

كان يشرب مع عمّاله في فناء البيت الخلفي مساء كلّ يوم، وكان ينتهي به الأمر في أحيان كثيرة بأن يتشاجر مع أحد عمّاله. فإذا قال أحدهم شيئاً لا يروق لأبيل، كان يضربه بعنف، فلا يعود ذلك العامل إلى الورشة يوم الثلاثاء أو الأربعاء، لكنه يعود يوم الخميس لأنه يحتاج إلى العمل. وكانت هذه القصّة تتكرر كلّ بضعة أسابيع، كما تعمل الساعة.

وكان أبيل يركل الكلبتين أيضاً. كان يركل فوفي أكثر، أما باتر الأذكى فكانت تبقى بعيدة عنه. كانت فوفي البكماء تحاول التقرّب من أبيل. كان يركلها كلما رآها فتذهب وتختبئ في مكان ما الفترة من الوقت. وعندما كان يركل فوفي، كنا نعرف أن مشكلة ستحدث. في معظم الأحيان كانت الكلبتان وعمّال الورشة أول من يتذوقون طعم غضبه، فكنا نتحاشاه. كنت أذهب عادة أبحث عن فوفي وأختبئ معها.

الغريب في الأمر أن فوفي لم تكن تعوي أو تصيح عندما كان يركلها. وعندما وجد الطبيب البيطري أنها لا تسمع، اكتشف أيضاً أنها تعاني من حالة عدم الإحساس. فلم تكن تشعر بالألم. لذلك كانت تعود إلى أبيل دائماً كما لو كان يوماً جديداً. كان يركلها، فتختبئ، ثمّ تعود صباح اليوم التالي، تهزّ ذيلها، كأنها تقول له: «هيه، أنا هنا. سأمنحك فرصة أخرى».

وكان دائماً يأخذ فرصة أخرى. لم يغب أبيل الذي كان شخصاً محبوباً. فمع أنه كان يعاني من السكر الشديد، كان رجلاً لطيفاً. كنّا أسرة. "عندما تعيش في بيت تملأه المشكلات والإهانات، فإنك تجاهد بفكرة أنك تستطيع أن تحبّ شخصاً تكرهه، أو تكره شخصاً تحبّه. إنه شعور غريب. تريد أن تعيش في عالم يكون فيه أحدهم جيداً أو سيئاً، فإمّا أن تكرهه وإما أن تحبّه، لكن الناس ليسوا هكذا. "

كان هناك تيّار خفيّ من الرعب يجري في البيت، لكن الضرب الفعلي نفسه لم يكن متكرّراً. أظن أنه لو كان كذلك، لانتهى الوضع منذ زمن. ومن سخرية القدر، أن فترات الهدوء التي تخللت ذلك هي التي جعلتها تستمر وتتصاعد حتى بلغت المستوى الذي وصلت إليه. كان قد ضرب أمّي مرة، وضربها مرة أخرى بعد ثلاث سنوات، وكانت أسوأ قليلاً. ثمّ جاءت المرة الثالثة بعد سنتين، وكان أسوأ قليلاً. ثمّ بعد سنة، وكانت أسوأ قليلاً. "كانت متقطعة إلى درجة أنه يخيّل إليك أنها لن تتكرر، لكنّها كانت تتكرّر إلى حد أنك كنت تنسى أنها قد تحدث." كان

ثمة إيقاع في حدوثها. في إحدى المرات، بعد وقوع مشكلة كبيرة أذكر أن أحداً لم يكلّمه لأكثر من شهر: لا كلمات، لا تواصل بالعين، لا حديث، لا شيء. كنّا نتحرّك في البيت كأننا غرباء، في أوقات مختلفة. التعامل بالصمت التام. ثمّ، في صباح أحد الأيام، تكون في المطبخ وترى إيماءة، «هيه»، «هيه»، وبعد أسبوع، تسمع «هل رأيت ذلك الشيء في نشرة الأخبار؟» «نعم». وفي الأسبوع الذي يليه تسمع نكتة وضحكة، وشيئاً فشيئاً، تعود الحياة كما كانت. وبعد ستّة شهور، بعد سنة، يتكرر الشيء نفسه.

بعد ظهر أحد الأيام عدت إلى البيت من ساندرينغهام وكانت أمّي في غاية الانزعاج والتوتر.

قالت: «هذا الرجل غير معقول».

«ماذا حدث؟»

«اشترى مسدساً».

«ماذا؟ مسدس؟ ماذا تقصدين أنه 'اشترى مسدساً'؟»

في عالمي كان المسدس شيئاً سخيفاً. كنت أظن أن الشرطة والمجرمين فقط هم الذين يحملون أسلحة. خرج أبيل واشترى مسدس بارابيلوم سميث وويسون عيار ٩ مم، أملساً، أسود اللون، مرعباً. لم يكن يشبه المسدسات التي رأيتها في الأفلام. بدا لي أنه شيء يقتل أشياء حقاً.

«لماذا اشترى مسدساً؟» سألتها.

«لا أعرف».

قالت إنّها سألته عن سبب شرائه المسدس فقال كلاماً سخيفاً بأنه يجب على العالم أن يتعلّم كيف يحترمه.

قالت: «يظن أنّه شرطي العالم. وهذه هي المشكلة في هذا العالم. هناك أشخاص لا يستطيعون التحكم بأنفسهم، ويريدون أن يتحكموا بمن حولهم».

بعد فترة ليست طويلة، غادرت البيت لأن الأجواء أصبحت مسمومة. لقد كبرت وأصبحت مثل أبيل. كبرت بما يكفي لأن أردّ له الكلمة. لا يخاف الأب أن يردّ عليه ابنه، لكنّني لم أكن ابنه، وكان يعرف ذلك. بدأت أمّي تستخدم ذلك التشبيه الذي يقول إنه أصبح في البيت الآن أسدان ذكران. قالت لي: «كلّما نظر إليك رأى والدك. إنك تذكّره دائماً برجل آخر. إنه يكرهك، ويجب أن تغادر البيت. يجب أن تغادر قبل أن تصبح مثله».

وكان الوقت قد حان كي أخرج أيضاً. بغض النظر عن أبيل، فقد كانت خطتنا أن أغادر البيت بعد انتهاء المدرسة. لأن أمّي لم تكن تريد أن أصبح مثل خالي، أحد أولئك الرجال، العاطل عن العمل الذي لا يزال يعيش في البيت مع أمّه. ساعدتني على استئجار الشقّة التي انتقلت إليها. كانت الشقّة تبعد عن البيت حوالي عشر دقائق، فكنت أزورها دائماً وأساعدها في بعض الأشياء وأتعشّى معها أحياناً. لكن، الأهم من كلّ ذلك، كنت أحرص على ألاّ أحتك مع أبيل.

في فترة ما، انتقلت أمّي إلى غرفة نوم منفصلة في البيت، ومنذ ذلك الحين أصبحا متزوّجين بالاسم فقط. لم تكن حتى مساكنة، وإنما تعايش. ظلاّ هكذا لمدة سنة، ربما سنتين. بلغ أندرو التاسعة، وكنت أعدّ بشكل تنازلي حتى يبلغ الثامنة عشرة من عمره، لأنني كنت أظن أن ذلك سيحرّر أمّي أخيراً من هذا الرجل الشرير. وبعد ظهر أحد الأيام، اتصلت بي أمّي وطلبت أن آتي إلى البيت. بعد بضع ساعات قليلة، وصلت.

قالت: «تريفور، أنا حامل».

«آسف، ماذا؟»

«أنا حامل».

«ماذا؟»

يا إلهي، استشطت غضباً. كنت في حالة غضب شديد. بدا لي أنها كانت مصمّمة على ذلك، لكن كان في كلامها نبرة حزن لم أرها من قبل، كما لو أن الخبر قد دمّرها في البداية لكنّها تصالحت مع هذا الواقع.

«كيف تركتي ذلك يحدث؟»

«تصالحنا أنا وأبيل. عدت إلى غرفة النوم. كانت ليلة واحدة فقط، ثم... حملت. لا أعرف كيف».

لم تكن تعرف. كانت في الرابعة والأربعين من عمرها. كانت

قد أجرت عملية ربط أنابيب بعد إنجابها أندرو. حتى طبيبها قال، «هذا غير ممكن. لا نعرف كيف حدث ذلك».

كنت أغلي من الغضب. كان كلّ ما علينا عمله أن ننتظر أندرو حتى يكبر، وسينتهي كل شيء، لكن يبدو الآن أنها جددت العقد معه .

«إذاً ستنجبين هذا الطفل من هذا الرجل؟ ستبقين مع هذا الرجل ثماني عشرة سنة أخرى؟ أنتِ مجنونة؟»

«كلّمني الله يا تريفور. قال لي: 'باتريشيا، أنا لا أفعل أيّ شيء بالخطأ. لا يوجد شيء أمنحك إياه لا تستطيعين أن تتدبريه' أنا حامل لسبب. أعرف نوعية الأولاد الذين أنجبهم. أعرف نوعية الأبناء الذين أربيهم. يمكنني أن أربّي هذا الطفل. سأربّي هذا الطفل».

" بعد تسعة شهور ولد إسحاق. سمتّه إسحاق لأن سارة في الكتاب المقدس حملت وقد بلغت مائة سنة من العمر ولم يكن يفترض أن تُنجب أطفالاً، فأطلقت على ابنها اسم إسحاق. "

أبعدتني ولادة إسحاق عن البيت أكثر. قلّت زياراتي كثيراً. وفي أحد الأيام ذهبت لزيارتها بعد ظهر أحد الأيام. كانت سيارات الشرطة واقفة أمام البيت، نتائج معركة أخرى.

كان قد ضربها أبيل بدراجة هوائية. كان أبيل يوبّخ أحد عمّاله في باحة البيت، فحاولت أمّي أن تتدخل بينهما. كان أبيل

غاضباً جداً وكذبّته أمام عمّاله، فرفع دراجة أندرو وضربها بها. ومرة أخرى استدعت الشرطة، وكان رجال الشرطة الذين جاؤوا يعرفون أبيل. كان يصلح لهم سياراتهم، وكانوا أصدقاء. فلم توجّه ضده أي تهمة. لم يحدث شيء.

واجهته هذه المرة. فقد أصبحتُ كبيراً بما يكفي الآن. قلت له: «لا يمكنك أن تستمر في عمل ذلك. هذا شيء غير مقبول».

اعتذر كعادته. لم ينفخ صدره ويدافع عن نفسه أو يفعل شيئاً من هذا القبيل.

قال: «أعرف، أنا آسف. لا أحبّ أن أفعل ذلك، لكنّك تعرف أمك. إنها تتكلّم كثيراً ولا تستمع إليّ. في بعض الأحيان أشعر أن أمّك لا تحترمني. جاءت ولم تبدِ لي أي احترام أمام عمّالي. لا يمكنني أن أبدو أمام هؤلاء الرجال بأنني لا أعرف كيف أسيطر على زوجتي».

بعد حادثة الدراجة هذه، جلبت أمّي مقاولين من شركة العقارات التي تعمل فيها لبناء بيت منفصل لتقيم فيه في الفناء الخلفي للبيت، بيت يشبه بيت الخدم، وانتقلت إليه مع إسحاق.

«هذا أكثر جنون رأيته في حياتي»، قلت لها.

فقالت: «هذا كلّ ما يمكنني أن أفعله. فالشرطة لن تساعدني. والحكومة لن تحميني. الله فقط هو الذي يستطيع أن يحميني. لكن الشيء الذي يمكنني أن أستخدمه ضدّه هو الشيء الوحيد

الذي يقدّره كثيراً وهو كبرياؤه. فعندما أسكن وحدي في الكوخ، سيسأله الجميع، «لماذا تسكن زوجتك في كوخ خارج بيتك؟» وعليه أن يجيب على هذا السؤال، ومهما قال، فإن الجميع سيعرفون أنه توجد عنده مشكلة. فهو يحبّ أن يعيش من أجل العالم، لذلك دع العالم يراه على حقيقته. إنه قدّيس في الشارع، وشيطان في هذا البيت. ليراه الناس على حقيقته».

عندما قرّرت أمّي أن تحتفظ بإسحاق، كنت على وشك أن ألغيها من حياتي لأنني لم أعد أستطيع أن أتحمّل الألم. لكن رؤيتها تُضرب بالدراجة، وتعيش مثل سجينة في كوخها في فناء البيت الخلفي، كانت القشّة الأخيرة بالنسبة لي. كنت محطّماً. لقد انتهيت.

قلت لها: «هذا الشيء؟ هذا الشيء السيء؟ لن أكون جزءاً منه. لا أستطيع أن أعيش هذه الحياة معك. أرفض ذلك. لقد اتخذتِ قرارك. حظّاً سعيداً بحياتك. سأعيش حياتي».

فهمتْ. لم تشعر بأنني خنتها أو تخليت عنها. قالت: «حبيبي، أعرف حقيقة مشاعرك. ففي لحظة ما، كان عليّ أن أترك أسرتي وأعيش حياتي الخاصة أيضاً. أفهم لماذا يجب أن تفعل الشيء نفسه».

وهكذا فعلت. خرجت. لم أتصل بها. لم أزرها. جاء إسحاق وغادرتُ، ولم أفهم في حياتي لماذا لم تفعل كما فعلت من قبل: أن تغادر. أن تغادر فقط. تغادر فقط.

لم أفهم كيف كانت مشاعرها. لم أفهم العنف المنزلي. لم أفهم

كيف تسير العلاقات بين البالغين. حتى أنه لم تكن عندي صديقة. لم أفهم كيف تستطيع أن تضاجع رجلاً تكرهه وتخاف منه، لم أعرف كيف يمكن أن يتشابك الجنس والكراهية والخوف معاً بهذه السهولة.

كنت غاضباً من أمّي. كنت أكرهه، لكنّي أنحيت باللائمة عليها. كنت أرى أبيل الشخص الذي اختارته وما زالت تختاره. طوال الوقت كانت تحكي لي قصصاً كيف أنها نشأت في منطقة السود، وكيف أنها هجرت أبويها، وكانت تردد دائماً، «لا يمكنك أن تلوم أحداً آخر على ما تفعله. لا يمكنك أن تلوم ماضيك على من أنت الآن. إنك مسؤول عن نفسك. يجب أن تتخذ خياراتك بنفسك».

لم تكن تدعني نرى أنفسنا ضحايا. كنّا ضحايا، أنا وأمّي وأندرو وإسحاق. ضحايا التفرقة العنصرية. ضحايا إساءة المعاملة. لكن لم يكن مسموحاً لي بأن أفكّر بهذه الطريقة، ولم أكن أرى حياتها بهذه الطريقة. كان الابتعاد عن أبي وقطعه من حياتنا من أجل أبيل، كان ذلك خيارها. كان دعم ورشة أبيل خيارها. كان إنجاب إسحاق خيارها. فهي التي تملك النقود، لا هو. لم تكن تابعة لأحد. لذلك كنت أرى أنها هي التي كانت تتخذ القرار.

من الخارج كان الأمر في غاية السهولة، أن تلوم المرأة وتقول لها: «يجب أن تغادري». لم يكن بيتنا هو البيت الوحيد الذي توجد

فيه إساءة المعاملة. هكذا نشأتُ. رأيتُ ذلك في شوارع سويتو، وفي التلفزيون، وفي الأفلام. إلى أين يمكن أن تذهب المرأة في مجتمع كهذا إذا كان هذا هو المعيار؟ عندما لا تساعدها الشرطة؟ عندما لا تساعدها عائلتها؟ إلى أين تذهب المرأة إذا هجرت رجلاً يضربها. فقد تذهب إلى رجل آخر يضربها أيضاً، وربما يكون أسوأ من الرجل الأول؟ إلى أين تذهب المرأة عندما تكون أماً عزباء عندها ثلاثة أطفال وتعيش في مجتمع ينبذها لأنها امرأة لا زوج لها؟ يعتبرها المجتمع عاهرة إذا فعلت ذلك؟ إلى أين تذهب؟ ماذا تفعل؟

لم أكن أفهم ذلك في ذلك الحين. كنت فتى أفهم الأشياء كشاب صغير. أذكر بوضوح المرة الأخيرة التي تجادلنا فيها حول هذا الأمر أيضاً. كان ذلك بعد فترة قصيرة من حادثة الدراجة، أو عندما انتقلت إلى كوخها في فناء البيت الخلفي. كنت ذاهباً، أتوسل إليها للمرة الألف.

«لماذا؟ لماذا لا تغادرين؟»

هزّت رأسها وقالت: «أوه، حبيبي. لا، لا، لا. لا أستطيع أن أغادر».

«لِمَ لا؟»

«لأنني إذا غادرت سيقتلنا».

لم تكن متوترة. لم ترفع صوتها. قالت كلّ ذلك بهدوء كأنه أمر واقع، ولم أطرح عليها هذا السؤال مرة أخرى.

في النهاية غادرتُ. نقطة اللا عودة هي التي جعلتها تغادر. لا أعرف ما هي لأنني كنت قد غادرتُ البيت. كنت قد أصبحت كوميدياً، أطوف في أرجاء البلاد، أقدّم عروضاً كوميدية في إنكلترا، أستضيف برامج إذاعية، أستضيف برامج تلفزيونية. كنت قد انتقلتُ لأسكن مع ابن خالتي ملانغيسي وفصلت حياتي عن حياتها. لم يعد بإمكاني أن أحتمل أكثر مما تحملته، لأن ذلك كان سيحطمني ويهشمني إلى قطع متناثرة. لكنها كانت قد اشترت بيتاً آخر في هايلندز نورث، وتزوجت رجلاً آخر، وانتقلت بحياتها. كان أندرو وإسحاق لا يزالان يريان والدهما الذي كان آنذاك موجوداً في العالم فقط، لا يزال يعيش في نفس دوامة السكر والشجار مع الآخرين، وكان لا يزال يعيش في بيت تسدد إيجاره زوجته السابقة.

مرّت سنوات. واستمرت الحياة.

في صباح أحد الأيام، كنت مستلقياً في السرير حوالي الساعة العاشرة صباحاً عندما رنّ هاتفي. كان ذلك يوم الأحد. أعرف أنّه كان يوم الأحد لأن جميع أفراد العائلة ذهبوا إلى الكنيسة، وبقيت أنا مستلقياً بسعادة كبيرة. فلم تعد تلك الأيام اللانهائية من الذهاب والإياب إلى الكنيسة مشكلتي، وكنت نائماً بتكاسل. سخرية القدر في حياتي هي أنه عندما يتعلق الأمر بالكنيسة تحدث مشكلة، كما حدث عندما خطفنا سائقا حافلة الميني باص العنيفين. كنت أستثير أمّي دائماً حول هذه القصة وأقول: «الذهاب إلى الكنيسة، كلّ هذا المسيح، ما الذي نفعك؟»

نظرتُ إلى شاشة الهاتف. كان يومض برقم أمّي، لكن عندما أجبت، كان أندرو على الطرف الآخر. بدا هادئاً جداً.

«هيه، تريفور، أنا أندرو»

«مرحباً».

«كيف حالك؟»

«جيد. ما هي الأخبار؟»

«هل أنت مشغول؟»

«كنت نائماً. لماذا؟»

«لقد أُطلقت النار على أمّي».

حسناً، كان هناك شيئان غريبان في هذه المكالمة. أولاً، لماذا يسألني إن كنت مشغولاً؟ لنبدأ من هنا. وعندما تُطلق النار على أمّك، يجب أن تكون أول عبارة تخرج من فمك هي «أُطلقت النار على أمّي»، وليس «كيف حالك؟» وليس «هل أنت مشغول؟» شوّشني ذلك. والشيء الغريب الثاني هو عندما قال: « أُطلقت النار على أمّي» لم أسأله، «من أطلق عليها النار؟» لم أكن مضطراً لأسأل ذلك. قال: « أُطلقت النار على أمّي»، وعقلي ملأ ما تبقى من فراغات بشكل آلي: «أبيل أطلق النار على أمّي».

«أين أنت الآن؟» قلت.

«إننا في مستشفى لينكسفيلد».

«حسناً، أنا قادم».

قفزت من السرير، جريت في الممر، وقرعت على باب غرفة ملانغيسي بقوة. «هيه، لقد أصيبت أمّي بطلق ناري. إنها في المشفى». فقفز من سريره أيضاً وركبنا السيارة وانطلقنا بسرعة كبيرة إلى المستشفى الذي كان يبعد خمس عشرة دقيقة.

في تلك اللحظة، كنت غاضباً لكنني لم أكن خائفاً. فقد كان أندرو هادئاً جداً على الهاتف، لم يكن يبكي، لم تكن هناك نبرة خوف في صوته، فقلت لنفسي لا بد أنها بخير. لا بد أن الأمر ليس خطيراً. اتصلت به ثانية من السيارة لأعرف منه المزيد.

«أندرو، ما الذي جرى؟»

«كنّا عائدين إلى البيت من الكنيسة»، قال بهدوء شديد مرة أخرى، «وكان أبي ينتظرنا عند البيت، وخرج من سيارته وبدأ يطلق النار».

«لكن أين؟ أين أطلق عليها النار؟»

« أصابها في ساقها».

«أوه، حسناً»، قلت، وشعرت بالارتياح.

«ثم أصابها في رأسها».

عندما قال ذلك، انهرت تماماً. أتذكّر إشارة المرور التي كنت واقفاً عندها. للحظة ساد صمت مطبق، ثم أجهشت في البكاء

وسالت مني دموع كما لم تسل من قبل. انهرت تماماً ورحت أبكي بحرقة. بكيت كما لو أنّ كلّ ما بكيته طوال حياتي لم يكن شيئاً. بكيت بحرقة إلى درجة أنه إذا عادت نفسي الباكية الحالية بالزمن ورأيت نفوسي الباكية الأخرى، لصفعتها وقلت: «هذا الشيء لم يكن يستحق البكاء». فلم يكن بكائي بكاء حزن، ولم يكن بكاء للتنفيس عن غضبي. لم أكن حزيناً على نفسي. وإنما كان تعبيراً عن ألم شديد نجم عن عدم قدرة جسدي على التعبير عن ذلك الألم بأي وسيلة أخرى. إنها أمّي. رفيقتي. كنّا دائماً معاً، أنا وهي، في مواجهة العالم. عندما قال أندرو، «أصابها في رأسها»، كُسرتُ إلى قطعتين.

تغيّر ضوء إشارة المرور. ومع أنني لم أعد أستطيع رؤية الطريق، فقد قدتُ السيارة من وراء غشاوة الدموع، لا أفكّر بشيء سوى **أن أصل إلى هناك، أن أصل إلى هناك**. عندما وصلنا إلى المستشفى قفزت من السيارة. كانت توجد منطقة انتظار خارج المستشفى بجانب مدخل غرفة الطوارئ. كان أندرو جالساً ينتظرني، وحده، ثيابه ملطخة بالدم. كان لا يزال هادئاً جداً، لكن ما إن رفع عينيه ورآني حتى انهار وبدأ يصرخ. كان يبدو أنه كان يتمالك نفسه طوال الصباح ثم أفلت كلّ شيء فجأة. جريت إليه وعانقته وراح يبكي ويبكي. كان بكاؤه يختلف عن بكائي. كان بكائي بكاء ألم وغضب أما بكاؤه فكان بكاء عجز.

استدرتُ وجريت إلى غرفة الطوارئ. كانت أمّي في وحدة الإسعاف مستلقية على عربة. كان الأطباء يبذلون ما بوسعهم

حتى تستقر حالتها. كان جسمها كلّه مضرجاً بالدم. كانت هناك فتحة في وجهها، جرح واسع فوق شفتها، وقد كُشط جزء من أنفها.

كانت هادئة وساكنة كما كنت أراها دائماً. كانت لا تزال تستطيع أن تفتح عيناً واحدة، والتفتت ونظرت إليّ ورأت نظرة الرعب في وجهي.

«كل شيء على ما يرام، حبيبي»، همست، بالكاد تستطيع أن تتكلم والدم في حنجرتها.

«لا ليس كل شيء على ما يرام».

«لا، لا، أنا بخير، أنا بخير. أين أندرو؟ أين شقيقك؟»

«في الخارج».

«اذهب إلى أندرو».

«لكن يا أمّي...».

«هسسس. أنا بخير، يا حبيبي. أنا بخير».

«أنتِ لست بخير، أنت...»

«هسسس. أنا بخير، أنا بخير، أنا بخير. اذهب إلى شقيقك. إنه بحاجة إليك».

ظلّ الأطباء يعملون، ولم يكن هناك شيء يمكنني أن أفعله

لمساعدتها. خرجت لأذهب وأجلس مع أندرو. جلسنا معاً، وحكى لي القصّة.

كانوا عائدين إلى البيت من الكنيسة، مجموعة كبيرة، أمّي وأندرو وإسحاق وزوجها الجديد وأطفاله ومجموعة كاملة من عائلته الممتدة وعمّاته وأعمامه وبنات أخته وأبناء أخوته. عندما توقفوا عند المدخل، توقف آبيل بسيارته وترجّل منها. كان يحمل مسدساً. ونظر إلى أمّي مباشرة.

قال لها: «لقد سلبتِ مني حياتي. أخذتِ كلّ شيء مني. سأقتلكم جميعاً الآن».

سار أندرو نحو أبيه ووقف أمام المسدس تماماً.

«لا تفعل ذلك يا أبي، أرجوك. إنك سكران. ضع المسدس جانباً».

نظر أبيل إلى ابنه.

ثم قال: «لا، سأقتل الجميع، وإذا لم تبتعد فإني سأقتلك أول واحد».

تنحّى أندرو جانباً.

«لم تكن عيناه تكذبان»، قال لي، «كانت عيناه تشبهان عيني الشيطان. في تلك اللحظة عرفت أن أبي عازم على ذلك».

" مع كلّ الألم الذي اعتراني في ذلك اليوم، أدركت لاحقاً، أنّ

ألم أندرو كان أعظم من ألمي بكثير. فالرجل الذي أطلق النار على أمّي هو رجل أحتقره وأشعر بالرغبة في الانتقام منه. كان بإمكاني أن أوجّه كلّ غضبي وكراهيتي نحو أبيل بدون خجل أو شعور بالذنب. أما بالنسبة لأندرو فقد أطلق أبوه النار على أمّه، أبوه الذي يحبّه. كيف يستطيع أن يوفّق بين حبّه له وبين ما حدث؟ كيف يستطيع أن يستمر في حبّه لكلا الجانبين؟ جانبيْ نفسه؟

كان إسحاق في الرابعة من عمره فقط. ولم يكن يعي حقيقة ما كان يحدث. عندما تنحّى أندرو جانباً، بدأ إسحاق يبكي.

«أبي، ماذا تفعل؟ أبي ماذا تعمل؟»

«إسحاق اذهب عند أخيك»، قال له أبيل.

جرى إسحاق إلى أندرو وأمسكه. عندها رفع أبيل مسدسه وبدأ يطلق النار. قفزت أمّي أمام المسدس لتحمي الجميع، عندها أصيبت بالرصاصة الأولى، لا في ساقها وإنما في إليتها. انهارت ووقعت على الأرض وصرخت.

«اركضوا».

ظل أبيل يطلق النار وركض الجميع. تفرقوا. كانت أمّي تكافح لتقف على قدميها عندما سار أبيل نحوها ووقف فوقها. صوّب المسدس إلى رأسها مباشرة، بطريقة الإعدام. ثمّ سحب الزناد. لا شيء. لم تخرج الرصاصة. كليك! سحب الزناد مرة أخرى، نفس الشيء. مرة ثانية وثالثة. كليك! كليك! كليك!

كليك! سحب الزناد أربع مرات، وأربع مرات لم يُطلق المسدس. كانت الطلقات تخرج من نافذة القذف وتسقط من المسدس وتسقط فوق أمّي ثم تتدحرج على الأرض.

توقّف أبيل ليرى ما مشكلة المسدس. قفزت أمّي بفزع، دفعته جانباً وركضت نحو السيارة، وقفزت إلى مقعد السائق.

ركض أندرو وراءها وقفز إلى المقعد بجانبها. عندما شغّلت أمّي السيارة، سمع أندرو طلقاً نارياً أخيراً، وتلطخ الزجاج الأمامي باللون الأحمر. كان أبيل قد أطلق النار من وراء السيارة، فدخلت الرصاصة من مؤخرة رأسها وخرجت من مقدمة وجهها، وتناثر الدم في كل مكان. سقط جسدها فوق المقود. عندها سحب أندرو أمّي بدون تفكير إلى الكرسي المجاور وقفز من فوقها إلى مقعد السائق، وانطلق بالسيارة بسرعة إلى المستشفى في لينكسفيلد.

سألتُ أندرو ما الذي جرى لأبيل، فقال لا يعرف. استشطت غضباً، لكن لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً. أحسست بالعجز التام، لكنّي كنت أشعر بأنني يجب أن أفعل شيئاً. أخرجت هاتفي واتصلت به - اتصلت بالرجل الذي أطلق النار للتو على أمّي، وردّ عليّ.

«تريفور».

«قتلت أمّي».

«نعم، قتلتها».

«قتلت أمي».

«نعم. وإذا وجدتك سأقتلك أنت أيضاً».

وأغلق الهاتف. كانت أفظع لحظة في حياتي. كانت لحظة مخيفة. الشجاعة التي تملكتني لأتصل به فقدتها فوراً. حتى يومنا هذا لا أعرف بمَ كنت أفكر. لا أعرف ما الذي كنت أتوقع أن يحدث. كنت فقط في حالة غضب شديدة.

ظللت أسأل أندرو أسئلة، أحاول أن أحصل على مزيد من التفاصيل. وبينما كنّا نتكلّم، خرجت ممرضة تبحث عني.

«هل أنتم أسرتها؟» سألتني.

«نعم».

«سيدي، توجد مشكلة. كانت أمّك تتكلّم قليلاً في البداية. وقد توقّفت الآن عن الكلام، لكننا عرفنا أنه لا يوجد عندها تأمين صحي».

«ماذا؟ لا، لا. لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. أعرف أنه يوجد لدى أمّي تأمين صحي».

لا يوجد عندها. فكما تبين أنها منذ بضعة أشهر، كانت قد قالت، «التأمين الصحي غشّ. فلم أمرض أبداً. سألغيه». فلم يعد عندها تأمين صحي الآن.

«لا نستطيع أن نعالج أمّك هنا»، قالت الممرضة، «إذا لم يكن عندها تأمين صحي يجب أن نرسلها إلى مستشفى حكومي».

«مستشفى حكومي؟ ماذا - لا! لا يمكنكم أن تفعلوا ذلك. أمّي مصابة في رأسها. ستعيدونها إلى العربة؟ ثم ترسلوها بسيارة إسعاف؟ ستموت. يجب أن تعالجوها فوراً».

«يا سيدي، لا نستطيع. نحتاج إلى دفعة».

«أنا سأدفع».

«نعم، يقول الناس ذلك، لكن إذا لم يكن هناك ضمان...».

أخرجت بطاقة الائتمان لديّ.

قلت: «خذي هذه. أنا سأدفع. سأدفع كلّ شيء».

«يا سيدي، قد تكون تكاليف المستشفى باهظة».

«لا يهم».

«يا سيدي، لا أظن أنك تفهم. قد يكون المستشفى غالياً جداً».

«يا سيدتي، عندي نقود. سأدفع أيّ شيء. ساعدينا فقط».

«يا سيدي، إنك لا تفهم. يجب أن نُجري اختبارات عديدة. الاختبار الواحد قد يكلّف ألفان أو ثلاثة آلاف راند».

«ثلاثة آلاف؟ يا سيدتي، هذه حياة أمّي التي نتحدّث عنها. سأدفع».

«يا سيدي، إنك لا تفهم. أمّك أصيبت بطلقة في دماغها.

يجب أن تدخل وحدة العناية المشددة. قد تكلفك ليلة واحدة في وحدة العناية المشددة خمسة عشرة ألف، عشرون ألف راند».

«يا سيدتي، ألا تسمعين ما أقوله؟ هذه حياة أمّي. هذه حياتها. خذي النقود. خذيها كلّها. لا يهمني».

«يا سيدي! إنك لا تفهم. لقد رأيت هذا يحدث. قد تبقى أمك في العناية المشددة لعدة أسابيع. قد يكلّفك ذلك خمسمائة ألف، ستمائة ألف. ربّما تصل إلى ملايين. ستبقى مديناً طوال حياتك».

لن أكذب عليكم: صمتُ. توقّفت بصعوبة. في تلك اللحظة، ما سمعت الممرضة تقوله هو: «ستذهب كلّ نقودك»، ثم بدأت أقول لنفسي، حسناً... كم عمرها، خمسون؟ هذا جيد، صحيح؟ لقد عاشت حياة جيدة.

لم أعرف حقّا ماذا أفعل. حدّقت في الممرضة بينما بدأت استوعب الصدمة. بدأت تدور في رأسي مجموعة من السيناريوهات المختلفة. ماذا لو دفعت كلّ تلك النقود، ثم ماتت؟ هل يعيدون لي المبلغ؟ تخيّلت أمّي، المرأة المقتصدة، تستيقظ من غيبوبتها وتقول لي: «كم أنفقت؟ أنت أحمق. كان عليك أن توفّر تلك النقود لتعتني بإخوتك». وماذا عن إخوتي؟ سيكونون مسؤوليتي الآن. يجب أن أربّي الأسرة، وهو شيء لا أستطيع أن أفعله لو كنت مديناً بالملايين، وكانت أمّي تقسم دائماً بأن تربية إخوتي هو الشيء الذي يجب ألا أفعله أبداً. حتى عندما انطلقت في عملي، كانت ترفض أيّ

مساعدة أقدّمها لها. كانت تقول: «لا أريد أن تدفع لأمّك كما كنت أفعل مع أمّي، لا أريدك أن تربي إخوتك كما كان على أبيل أن يربي إخوته».

كان أكبر خوف ينتاب أمّي هو أن ينتهي بي الأمر بأن أعلق في دوامة الفقر والعنف التي حدثت من قبل. كانت تعدني دائماً بأنني سأكون الشخص الذي سيكسر هذه الدوامة. أنني يجب أن أكون الشخص الذي يتقدّم إلى الأمام ولا يعود إلى الوراء. عندما نظرت إلى تلك الممرضة خارج غرفة الطوارئ، خفت أن تستمر اللحظة التي أعطيتها فيها بطاقة ائتماني، فتستمرّ الدوامة وأعود إلى الوراء.

يقول الناس دائماً إنّهم سيفعلون أيّ شيء من أجل الأشخاص الذين يحبّونهم. لكن هل ستفعل ذلك حقاً؟ هل ستعطي أيّ شيء؟ هل ستعطي كلّ شيء؟ لا أعرف أنّ ابناً يعرف هذا النوع من الحبّ الغيّري. الأمّ، نعم. الأمّ ستمسك أطفالها وتقفز من سيارة وهي تسير لتحميهم من الأذى. إنها تفعل ذلك بدون تفكير. لكنني لا أظن أن الابن يعرف كيف يفعل ذلك، ليس بالغريزة. إنه شيء يجب على الابن أن يتعلّمه.

ضغطت بطاقة ائتماني في يد الممرضة.

«اعملي ما يجب عمله. أرجوك ساعدي أمّي».

أمضينا ما تبقى من اليوم في حالة ضياع، ننتظر، لا نعرف، نسير جيئة وذهاباً حول المستشفى، أفراد الأسرة يأتون. بعد عدّة

ساعات، خرج الطبيب من غرفة الطوارئ أخيراً ليخبرنا بما حدث.

«ما الذي يجري؟» سألته.

قال: «حالة أمّك مستقرّة. لقد خرجت من غرفة العمليات».

«هل ستصبح على ما يرام؟»

فكّر لحظة بما سيقوله.

ثم قال: «لا أحبّ أن استخدم هذه الكلمة لأنني رجل علوم ولا أومن بها. لكن ما حدث لأمّك اليوم معجزة. لا أقول ذلك أبداً، لأنني أكره أن يقول الناس ذلك، لكن لا توجد لديّ طريقة أخرى يمكنني أن أفسّر ما حدث».

قال إن الطلقة التي أصابت أمّي في إليتها دخلت وخرجت ولم تحدث لها أيّ ضرر حقيقي، أما الطلقة الأخرى التي اخترقت مؤخرة رأسها، فقد دخلت تحت الجمجمة في أعلى رقبتها، ومرت بجانب الحبل الشوكي قيد شعرة، ولم تصب البَصَلَة، وسارت داخل رأسها تحت الدماغ مباشرة، ولم تُصب أي عِرق رئيسي أو شريان أو عصب. وبالمسار الذي سارت فيه الطلقة، كانت متجهة مباشرة إلى محجر عينها اليسرى وكانت ستفجّر عينها، لكنها في آخر ثانية تباطأت، وأصابت عظم خدّها بدلاً من ذلك، فهشّمت عظم خدّها وانزلقت ثم خرجت من فتحة أنفها اليسرى. وعلى العربة في غرفة الطوارئ، كان الدم قد جعل الجرح يبدو أسوأ

بكثير مما كان عليه في حقيقة الأمر، وكشطت الرصاصة قطعة صغيرة جداً من الجلد بجانب فتحة أنفها، وخرجت ولم تبق أي أجزاء من الطلقة في داخلها. حتى أنها لم تكن بحاجة إلى إجراء عملية جراحية. لقد تمكنوا من إيقاف النزيف، وخاطوا في المؤخرة، وخاطوا في المقدمة، وتركوها حتى تلتئم.

«لم يكن هناك شيء يمكننا أن نفعله، لأنه لا يوجد شيء يجب أن نفعله»، قال الطبيب.

خرجت أمّي من المستشفى بعد أربعة أيام. وعادت إلى عملها بعد سبعة أيام.

أعطاها الأطباء مسكناً خلال ما تبقى من النهار والليل لترتاح. وطلبوا منّا جميعاً أن نعود إلى البيت. وقالوا: «إن حالتها مستقرّة، لا يوجد شيء يمكنكم أن تفعلوه هنا. اذهبوا إلى بيوتكم وناموا». وهذا ما فعلناه.

كان أول شيء فعلته في صباح اليوم التالي أنني عدت لأكون مع أمّي في غرفتها وأنتظرها حتى تستيقظ. عندما دخلت إلى غرفتها كانت لا تزال نائمة. كان الضماد يلفّ مؤخرة رأسها. كانت هناك قُطب في وجهها وشاش يغطّي أنفها وعينها اليسرى. بدت واهنة، ضعيفة، متعبة، إحدى المرات القليلة في حياتي التي رأيتها تبدو كذلك.

جلستُ بجانب سريرها، وأمسكت يدها، ورحت أراقبها وأنتظرها حتى أراها تتنفّس. فيض من الأفكار كان يتدفق في

رأسي. كنت لا أزال أخشى أن أفقدها. كنت غاضباً من نفسي لأنني لم أكن هناك، غاضباً من الشرطة لأنهم لم يلقوا فيها القبض على أبيل طوال ذلك الوقت. قلت لنفسي إنه كان عليّ أن أقتله منذ سنوات، وكان التفكير في هذا الأمر سخيفاً لأنني لست قادراً على أن أقتل أحداً، لكنّني فكّرت بذلك على أي حال. كنت غاضباً من العالم، غاضباً من الله. لأن كلّ ما تفعله أمّي هو أنها تصلّي. لو كان هناك نادٍ يضم أنصار المسيح، لكانت أمّي من بين المائة الأوائل في هذا النادي، وهذا ما حدث لها؟

بعد حوالي ساعة من الانتظار، فتحت عينها التي لا يوجد عليها ضماد. عندما فعلت ذلك، فقدت أعصابي. أجهشت في البكاء. طلبتْ قليلاً من الماء وأعطيتها كوباً، مالت إلى الأمام قليلاً ورشفت بواسطة القشّة. لم أتوقف عن البكاء. لم أستطع أن أتمالك نفسي.

«هسسس»، قالت، «لا تبكِ، يا حبيبي. هسسس لا تبكِ».

«كيف لا أبكي يا أمّي؟ كدتِ تموتين».

«لا، لم أكن سأموت. لم أكن سأموت. أنا بخير. لم أكن سأموت».

«لكني ظننت أنك متِّ». ظللت أبكي، «ظننت أنني فقدتك».

«لا، يا حبيبي. حبيبي، لا تبكِ. تريفور. تريفور، اسمع، اسمعني».

«ماذا؟» قلت، والدموع تسيل على وجهي.

«حبيبي، يجب أن تنظر إلى الجانب المشرق».

«ماذا؟ عمَ تتحدّثين ‹الجانب المشرق›؟ أمّي، لقد أطلق عليك النار في وجهك. لا يوجد جانب مشرق».

«طبعاً يوجد. الآن أنت رسمياً أجمل شخص في العائلة».

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهها وبدأت تضحك. ومن خلال دموعي بدأتُ أضحك أيضاً. كنت أبكي وأضحك بشكل هستيري في الوقت نفسه. جلسنا هناك وضغطت على يدي ورحنا نتجادل كما كنا نفعل دائماً، أمّ وابن، يضحكان معاً من خلال الألم في غرفة الإنعاش في غرفة العناية المركّزة في يوم مشرق ومشمس جميل.

عندما أطلقت النار على أمّي، جرت أحداث كثيرة بسرعة كبيرة. فقد استطعنا أن نجمع خيوط القصّة كلها بعد الحادثة، وجمعنا مختلف الروايات من جميع الأشخاص الذين كانوا موجودين هناك. خلال انتظارنا في المستشفى في ذلك اليوم، كانت لدينا أسئلة كثيرة لم تكن هناك إجابات عليها، مثل، ماذا حدث لإسحاق؟ أين كان إسحاق؟ اكتشفنا فقط بعد أن وجدناه وحكى لنا.

عندما انطلق أندرو بالسيارة مع أمّي وترك الطفل البالغ من العمر أربع سنوات وحده جالساً على العشب، جاء أبيل وحمل أصغر ابنيه ووضعه في سيارته وذهب. في طريقهما التفت إسحاق إلى أبيه.

«أبي، لماذا قتلت أمّي؟» سأله، مفترضاً في تلك اللحظة، كما افترضنا جميعاً، أنّ أمّي ماتت.

«لأنني حزين جداً»، أجاب أبيل، «لأنني غير سعيد».

«نعم، لكنّك يجب ألا تقتل أمّي. إلى أين سنذهب الآن؟»

«سأوصلك إلى بيت عمك».

«وإلى أين ستذهب؟»

«سأقتل نفسي».

«لكن لا تقتل نفسك يا أبي».

«لا، سأقتل نفسي».

لم يكن العمّ الذي كان أبل يتحدّث عنه عمّاً حقيقياً، وإنما صديق. أوصل إسحاق إلى بيت هذا الصديق وذهب. أمضى ذلك اليوم في زيارة جميع أقاربه وأصدقائه لتوديعهم. حتى أنه حكى لهم ما الذي فعله. «هذا ما فعلته. لقد قتلتها، وأنا ذاهب الآن لأقتل نفسي. الوداع». وأمضى اليوم كله في هذه الجولة التوديعية الغريبة، حتى اتصل به أخيراً أحد أبناء عمّه.

قال له ابن عمّه: «يجب أن تكون رجلاً، هذا أسلوب الجبناء. يجب أن تتصرّف كرجل. إن كنت رجلاً وفعلت ما فعلته، يجب أن تكون رجلاً لتواجه عواقب ما فعلته».

توقّف أبيل وسلّم المسدس إلى ابن عمه الذي أوصله إلى مركز الشرطة حيث سلّم نفسه.

أمضى أسبوعين في مركز الاحتجاز، بانتظار جلسة الكفالة. قدّمنا طلباً اعترضنا فيه على خروجه بكفالة لأنه يشكل تهديداً. وبما أن أندرو وإسحاق كانا لا يزالان قاصرين، فقد تدّخل موظفو الخدمات الاجتماعية. اعتقدنا أن القضية واضحة، لكننا تلقينا اتصالاً بعد حوالي شهر، بأنّه خرج بكفالة. والسخرية في الأمر أنه خرج بكفالة لأنه قال للقاضي إنه إذا دخل السجن فلن يستطيع أن يعمل ليعيل ابنيه مع أنه لم يكن يعيل ابنيه وإنما كانت أمّي تعليهما.

خرج أبيل من الحبس، ومرت القضية ببطء عبر النظام القانوني، وسار كلّ شيء ضدّنا. وبسبب تحسّن أمّي بمعجزة، أصبحت التهمة محاولة قتل. وبما أنه لم تكن قد وجّهت إليه تهم بارتكاب عنف منزلي عندما كانت أمّي تستدعي الشرطة لتبلغ عنه، لم يكن لدى أبيل أي سجلّ إجرامي. وعيّن محامياً جيداً أقنع المحكمة بأن لديه طفلين بحاجة إليه، لذلك لم تُرفع القضية إلى المحكمة. واعترف أبيل بأنه مذنب في محاولة قتل، وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات تحت المراقبة. ولم يمض يوماً واحداً في السجن، وحصل على رعاية مشتركة لابنيه. وهو يتجوّل اليوم بحرية مطلقة في أرجاء جوهانسبرغ. وكان آخر ما سمعته عنه أنه يعيش في مكان قريب من هايلندز نورث، ليس بعيداً جداً عن بيت أمّي.

وسمعت الجزء النهائي من القصّة من أمّي التي حكت لنا القصة من جانبها. عندما استيقظت قالت إنها تتذكّر أن أبيل كان يصوّب المسدس نحو أندرو، وتتذكّر أنها سقطت على الأرض بعد أن أصيبت بطلقة في إليتها، ثمّ اقترب منها أبيل ووقف فوقها وصوّب مسدسه إلى رأسها. رفعت عينيها ونظرت إليه مباشرة أسفل فوهة المسدس، ثمّ بدأت تصلّي. لم تخرج الطلقة من المسدس، لم تخرج للمرة الثانية، ثمّ المرة الثالثة والرابعة. عندها قفزت ودفعته بعيداً، وجرت إلى داخل السيارة. ثم قفز أندرو إلى جانبها وشغّلت السيارة، وهنا لم تعد تتذكّر شيئاً.

حتى يومنا هذا، لا يستطيع أحد أن يوضح ما جرى. حتى

الشرطة لم تفهم. لأنه لا يمكن لهذا المسدس ألاّ يعمل. فقد أطلق الرصاصة في البداية، ثم توقف، ثم أطلق مرة ثانية وثالثة حتى الطلقة الأخيرة. أي شخص يعرف شيئاً عن الأسلحة النارية سيقول لك إن المسدس عيار ٩ مم لا يمكن ألاّ تنطلق منه الرصاصة كما حدث مع أبيل. وفي موقع الجريمة، رسمت الشرطة دوائر صغيرة بالطباشير حول أغلفة الطلقات التي أطلقها أبيل، وتبين لهم أن تلك الطلقات الأربع كانت سليمة، من المكان الذي كان واقفاً فيه فوق أمّي - لا أحد يعرف السبب.

بلغت قيمة فاتورة المستشفى ٥٠,٠٠٠ راند. دفعتها عندما خرجنا من المستشفى. خلال الأيام الأربعة التي أمضيناها في المستشفى، كان أفراد العائلة يأتون للزيارة، يتحدثون، يضحكون ويبكون. وعندما جمعنا أغراضنا لنغادر المستشفى، فكّرت كم كانت أيام هذا الأسبوع مجنونة.

«إنكِ محظوظة لأنك بقيت على قيد الحياة»، قلت لها، «لا أزال لا أستطيع أن أصدق بأنه لا يوجد عندك أيّ تأمين صحي».

«لكن يوجد عندي تأمين»، قالت.

«صحيح؟»

«نعم. المسيح».

«المسيح؟»

«المسيح»

«المسيح هو تأمينك الصحي؟»

«إذا كان الله معي فمن يستطيع أن يكون ضدّي؟»

«حسناً يا أمّي».

«تريفور، لقد صلّيت. قلت لك لقد صلّيت. أنا لا أصلّي من أجل لا شيء».

فقلت لها: «أتعرفين، لمرة واحدة في حياتي لا أستطيع أن أجادلك. طلقات المسدس - لا أستطيع أن أفسّر شيئاً»، ثمّ لم أتمالك نفسي من أن أستثيرها للمرة الأخيرة، وقلت لها: «لكن أين كان مسيحك حتى يدفع فاتورة علاجك في المستشفى، هممممم؟ أعرف شيئاً حقيقياً واحداً وهو أنه لم يدفعها».

فابتسمت وقالت: «صحيح إنه لم يدفعها، لكنّه أنعم عليّ بابن دفعها».

الشكر

أشكر جميع الذين أخذوا بيدي في مهنتي طوال السنوات الماضية وقادوني إلى الطريق الذي أوصلني إلى إصدار هذا الكتاب، وأدين بالشكر الجزيل إلى نورم ألادجيم، وديريك فان بيلت، وساناز يامين، وراشيل روش، ومات بليك، وجيف إندليتش، وجيل فريتزو.

وأشكر الذين جعلوا هذا الكتاب يرى النور والذين ضبطوا مساره في وقت ضيّق ومليء بالأعمال، وأودّ أن أشكر بشكل خاص بيتر مكغويغان وفريقه في Foundry Literary + Media، بمن فيهم كرستين نيوهاوس، وساره دينوبريغا، وكلير هاريس. وأتوجه بالشكر الجزيل أيضاً إلى تانير كولبي لمساعدتي على وضع قصّتي على الورق.

وأشكر الذين وضعوا رؤية هذا الكتاب ليصبح أمراً واقعاً، وأخصّ بالشكر جميع العاملين في دار نشر Random House and Spiegel & Grau بمن فيهم محرّر كتابي كريس جاكسون، والناشرون جولي غراو وسيندي شبيغل، وتوم بيري، وغريغ موليكا، وسوزان ترنر، وأندريا ديويرد، ولاي مارشانت،

وباربـرا فيلـون، ودارا باريـخ، وريبيـكا بيرلانـت، وكيـلي تشـيان، ونيكـول كاونتـس، وجينـا سـينتريلو.

وأشكـر الذيـن سـاهموا في جلـب هـذا الكتـاب إلى جنوب أفريقيـا ونـشره بأجمـل حلّـة وأخـصّ بالشـكر جميـع العاملين في Pan Macmillan South Africa، بمـن فيهـم شـون فريـزر، وسـاندلي خومالـو، وأندريـا ناتـراس، ورولاني نيتشـيفهيرا، وسـاندلي نكـوسي، ونكاتيكـو تـراور، وكاتليغـو تابـالا، ويـزلي تومسـون، ومايـا فـان هيرديـن.

وأشـكر جميـع مـن سـاهم في قـراءة مخطوطـة هـذا الكتـاب في مراحلهـا الأولى وتبـادل الأفـكار والآراء لجعلهـا تخـرج في شـكلها النهائـي الـذي تـراه بـين يديـك، وأديـن بامتنـاني العميـق إلى كلّ مـن خايـا دلانغـا، وديفيـد كيـووكا، وأنيـلي مـدودا، ورايـان هـاردوث، وسـيزوي دلومـو، وكسـوليسـا ديشـانا.

وأخـيراً، أوّد أن أشـكر الشـخص الـذي جلبنـي إلى هـذا العـالم وجعلني الرجـل الـذي أنـا عليـه اليـوم، والـذي أديـن لـه بأعظـم ديـن، ديـن لا يمكننـي أن أسـدّده طـوال حيـاتي، أمّـي.

تريڤور نوا

ولد في جنوب أفريقيا من أم جنوب أفريقية وأب أوروبي، وهو الكوميدي الأكثر نجاحاً في أفريقيا وهو مضيف جائزة ايمي وبيبودي- الحائز على العرض اليومي على الكوميديا سنترال. هذا العام تم ترشيح البرنامج اليومي لثلاثة جوائز إيمي، بما في ذلك سلسلة الأحاديث المتنوعة البارزة. انضم نوح إلى العرض اليومي مع جون ستيوارت في عام 2014 كمساهم. في نوفمبر 2016، أصدر تريڤور أول كتاب له جريمة الولادة، قصص من طفولة جنوب أفريقيا، والتي أصبحت لحظة صدورها من الأكثر مبيعاً على نيويورك تايمز.

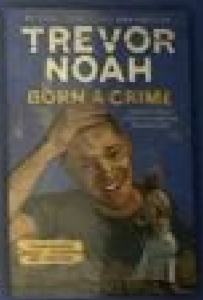

"في بعض الأحيان، مرعبة، وفي أحيان أخرى حزينة، ثم ساخرة... إنها لا تحكي عن الحياة في جنوب أفريقيا في ظلّ نظام التفرقة العنصرية فحسب، وإنما هي رسالة حبّ إلى أمّ الكاتب غير العادية".

- ميشيكو كاكوتاني، نيويورك تايمز

"لن تجد قصة ساخرة حقيقية أفضل من القصة التي كتبها تريڤور نوا في "جريمة الولادة"... قصة ساخرة، ذكية، مُلحة، خفيفة الظل، تروي الحقيقة.

- مجلة أوبرا

"في هذا الكتاب يروي تريڤور نوا قصص طفولته بكلّ المرح والبهجة والذكاء التي تتميّز بها عروضه الكوميدية، ويضيئ، في الوقت نفسه، فترة مظلمة وشديدة القسوة من تاريخ جنوب أفريقيا الذي يجب ألاّ يُنسى أبداً".

- إسكواير

"رائعة.... ذكية.... مميزة... نادرة.... جوهرية.... على جميع المستويات".

- سياتل تايمز

"ترعرع تريڤور تريڤور نوا بمساعدة والدته التي تتصف بشجاعة مدهشة... هذه الرابطة القوية التي تربطهما تجعل هذه القصة تحلّق في الأعالي".

People —

ISBN 978-614-429-786-5
9 786144 297865
Madarek
Madarek Publishing House
مدارك